مواقف وسلوكيات
في القرآن الكريم
(بحث في التفسير الموضوعي)
محمد خير رمضان يوسف
١٤٤٠ هـ

مواقف وسلوكيات

في القرآن الكريم

(بحث في التفسير الموضوعي)

محمد خير رمضان يوسف

١٤٤٠ هـ

تصميم الغلاف: أحمد محمد خير يوسف

مقدمة

الحمد لله مالكِ الملك، والصلاةُ والسلام على نبيِّ الرحمة، صاحب الخُلق العظيم، وعلى آلهِ وأصحابهِ أجمعين.

مواقف كثيرة في القرآن الكريم فيها اعتبار للناس، متنوعة ومؤثِّرة، فيها بيان للحق، وتحذير من الباطل، وترغيب في الهداية، وترهيب من الباطل. كلها تلائم طبيعة الإنسان، مهما كانت ثقافته، وفي أيِّ زمن كان.

وفيه وصف لسلوكيات متباينة، لمؤمنين وكافرين، في تاريخ طويل للبشر، أورد الله جوانب منها تبعث على العبرة أيضًا، بأسلوب رباني محكم، يتفق مع ما تهفو إليه النفوس من المعرفة والاطلاع.

ومصطلح (الموقف) استعملته لمعناهُ المتعارف عليه في عصرنا، وهو الشعور والرأي وردُّ الفعل تجاه أمر ما، وفيه يتبيَّن النهج. وفي (السلوك) اقتصرت على إيراد ما يتعلق بالظاهر من الأفعال والنشاطات من معناه.

ولم أورد كلَّ المواقف والسلوكيات الواردة في كتاب الله تعالى، ولم أتقصَّها، ولكني نوَّعت ما استطعت، حتى تكون سهلة ومختصرة ومشجعة على القراءة والتركيز والاستفادة.

وقد استخرجت مادته من التفسير الذي وفقني الله لوضعه (الواضح في التفسير)، الذي اعتمدت فيه على أمهات التفاسير.

ولم أسلك طريقة واحدة في عرضه، لكن معظمه جاء على أسلوب التفسير التحليلي لهذا الموضوع، فالكتاب بحث في التفسير الموضوعي، وليس معالجة ودراسة أكاديمية، وهو ما رأيتهُ أوفق للقارئ.

وجعلته في أحدَ عشر فصلًا.

ومن الله تعالى أستمدُّ العون والتوفيق، والحمد له وحده.

محمد خير يوسف

إستانبول ٢٠ رمضان ١٤٤٠ هـ

الفصل الأول

مواقف الأنبياء عليهم السلام

آدم عليه السلام

أمرَ اللهُ آدمَ أن يسْــكُنَ هوَ وزوجهُ حوّاءُ الجنَّة، وألّا يأكلا من شــجرةٍ حدَّدَها لهما؛ فيَصــيرا بذلكَ منَ الذينَ ظَلموا أنفسَهم، ويستَحقَّا العَذاب.

قالَ اللهُ تعالَى في ذلك: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٩]

لكنَّ الشيطانَ حسدَهما، وألقَى في قلبَيهِما بوسوستهِ ومكرِهِ عِصيانَ أمرِ ربِّهما، ليترتَّبَ على ذلكَ ظُهورُ ما غُطِّيَ مِنْ عوراتِهما، وقالَ لهما في خُبثٍ وحِقدٍ وكذِب: إنَّ اللهَ منعكما مِنْ أكلِ هذهِ الشجرةِ حتَّى لا تكونا مِنَ الملائكة، أو لئلاّ تَخلُدا في الجنَّة.

وحلفَ الشَّــيطانُ لآدمَ وحوّاءَ باللهِ أنَّهُ صــادقٌ في قَولهِ لهما، وناصِــحٌ لهما بذلك، وأنَّهُ كانَ قبلَهما في الجنَّة، ويَعرِفُ مثلَ هذهِ الأمور، حتَّى خَدعَهما!

وغرَّهما قسَــمُ الشــيطان، وقد طَمَعا في الخُلودِ في الجنَّة. فلمّا أكلا مِنَ الشَّــجرةِ أكلاً يســيراً ظهرتْ لهما عوراتُهما، فجعلا يَرْقَعانِ ويُلْزِقانِ عليها مِنْ ورَقِ شَــجَرِ الجنَّة، وناداهما ربُّهما لوماً وتَوبيخاً: ألَمْ أمنعْكُما مِنَ الأكلِ مِنْ تلكَ الشَّــجرة، وأقلْ لكما إنَّ الشَّــيطانَ ظاهرُ العداوةِ لكما فلا تُطيعاه؟

قالَ آدم وحوّاء: ربَّنا إنَّنا أضــرَرْنا بأنفسِــنا عندما عَصــينا أمرَك، وإذا لم تَغفِرْ لنا هذا الذَّنْب، وتَرحَمْنا بالرِّضَى عنّا، فسنَكونُ منَ الهالِكين.

قالَ اللهُ لهما ولإبليس: انزِلوا مِنَ الجنَّةِ إلى الأرضِ ليَكونَ بَعضُــكمْ عدوًّا لبعض، ولكمْ في الأرضِ استقرارٌ لمدَّةٍ محدودة، في آجالٍ مَعلومَة.

قالَ اللهُ تعالى: {فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}.

(تفسير للآيات ١٩ – ٢٥ من سورة الأعراف).

نوح عليه السلام

دَعا نُوحٌ عليهِ السَّـلامُ قومَهُ مُدَّةً طَويلَة، ألفًا إلاّ خَمسـينَ عامًا، وهمْ يَمتَنِعونَ عنِ الإيمَان، كما في الآيات (٥ – ٢٤) من سورةِ نوح، فقالَ مُناجيًا ربَّه، يَشكو إليهِ قَومَهُ المعانِدين: اللهمَّ إنّي دعَوتُ قَومي في اللَّيلِ والنَّهار، ولم أتوانَ في دَعوَتِهِمْ إلى دينِكَ وطاعَتِك، امتِثالاً لأمرِك، وابتِغاءَ مَرضاتِك، فلمْ تَزِدْهمْ دَعوَتي لهمْ إلاّ نُفورًا وإدبارًا عنِ الإيمَان!

وإنّي كُلَّما دَعوتُهُمْ إلى دِينِكَ لتَغفِرَ لهمْ إذا آمَنوا، سَـدُّوا آذانَهُمْ لئلاّ يَسـمَعوا دَعوَتي، وتغَطَّوا بثيابِهِمْ لئلاَّ يرَوني، وأصرُّوا على كُفرِهم، واستَكبَروا عنِ اتّباعِ الحقّ استِكبارًا عَظيمًا.

ثمَّ إنّي دعَوتُهُمْ جَهرَةً بينَ النَّاس.

ثمَّ كرَّرْتُ فأعلَنتُ لهمُ الدَّعوَة، ونوَّعتُ في الأُسـلُوبِ فدعَوتُهُمْ سـرًّا بَيني وبينَهم، فقدْ يَكونُ ذلكَ أدعَى لاستِجابتِهم، فقلتُ: انتَهوا عنِ الكُفرِ والمعاصي، وارجِعوا إلى اللهِ وتُوبوا إليه، فإنَّهُ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادِهِ المؤمِنينَ التَّائبين.

فإنْ تَفعَلوا ذلكَ يُنعِمْ عَليكمْ ويُنْزِلْ عَليكمْ مطَرًا كثيرًا مُتواصِلاً.

ويُكثِرْ مِنْ رِزقِهِ لكم، ويَهَبْكمْ أولادًا كثُرًا، ويُبارِكْ في زرُوعِكمْ وثِمارِكم، ويَجعَلْ لكمْ فيها أنهارًا جاريَة.

ما الذي جرَى لكمْ فلا تُعَظِّمونَ اللهَ حقَّ عَظمَتِه، ولا تَخافونَ بأسَهُ ونِقمَتَه؟

وقدْ عَلِمتُمْ قُدرَتَهُ مِنْ خِلالِ بَدْءِ خَلقِكمْ نُطفَة، ثمَّ علَقَة، ثمَّ مُضغَة، ثمَّ عِظامًا ولَحمًا، إلى تَمامِ الخَلق.

ألمْ تَتفَكَّروا في خَلقِ اللهِ وكمالِ قُدرَتِهِ وعَظمَتِهِ في ذلك، فخلَقَ سَـبعَ سَماواتٍ مُتَطابِقَةً بَعضُـها فَوقَ بَعض؟

وجعلَ القمَرَ في السَّـماءِ الدُّنيا نُورًا يُضـيءُ ظُلمةَ اللَّيلِ في الأرْض، وجعلَ الشَّـمسَ في النَّهارِ كالمِصَباحِ المضيءِ لأهلِ الدُّنيا، فيُبصِرونَ فيهِ ويَعمَلونَ في ضَوئِها...

لكنَّ وَعظَ نُوحٍ عليهِ السَّلامُ لم يُؤثِّرْ فيهم، وقدْ تَشرَّبَتْ قُلوبُهُمْ بالكُفر، فدَعا ربَّهُ قائلاً: ربَّاه، إنَّهُمْ كذَّبوني وخالَفوني فيما دعَوتُهُمْ إليه، واتَّبَعوا أبنَاءَ الدُّنيا، مِنَ الرُّؤساءِ والزُّعَماءِ والوجَهاء، ممَّنْ غرَّتْهُمْ أموالُهُمْ وأولادُهم، وغفَلوا عنْ دِينِك، وكانَ ذلكَ سبَبًا في زيادَةِ خَسارَتِهِمْ في الآخِرَة. وكادُوا كَيدًا عَظيمًا، بصَدِّ النَّاسِ عنِ الدِّين، وتَحريضِهِمْ على أذيَّةِ النبيِّ نُوحٍ عليهِ السَّلام، والاستِهزاءِ بهِ وبرِسالتِه.

وقالَ بَعضُهمْ لبَعض: لا تَترُكوا عِبادةَ آلِهَتِكمْ إلى عِبادةِ رَبِّ نُوح، ولا تَترُكوا عِبادَةَ هذهِ الآلهةِ خُصوصًا: وَدًّا، وسُوَاعًا، ويَغُوثَ، ويَعُوْقَ، ونَسْرًا.

وقدْ ضَلَّ بسبَبِ الأصنَامِ كثيرٌ مِنَ النَّاس {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ} [سورة إبراهيم: ٣٦]. اللهمَّ ولا تَزِدِ الكافِرينَ إلاّ ضَلالاً. وقدْ عتَوا وتمَرَّدوا وأصَرُّوا على الكُفر، وأيقنَ نوحٌ أنَّهُ لا خَيرَ في هذهِ القُلوبِ الظَّالمةِ الباغيَةِ العاتيَة، وأنَّها لا تَستَحِقُّ الهدايةَ والنَّجَاة، وقدْ أوحَى اللهُ إليهِ أنَّهُ لنْ يؤمِنَ مِنْ قَومِهِ إلاّ مَنْ قدْ آمَن.

*** *** ***

أرسَلَ اللهُ نوحاً نبيًّا إلى قَومِه، وقدِ انتَشرَتْ بينهمْ عبادةُ الأصنام، وكانوا في بِلادِ العِراق، فقالَ لهمْ مُنَبِّهاً ومُحَذِّراً: أيُّها القوم، اعبُدوا اللهَ وحدَهُ ولا تُشرِكوا به شَيئاً، فليسَ لكمْ إلهٌ يَستَحِقُّ العِبادةَ غيرُه، فإذا أصرَرتُمْ على عبادةِ الأوثانِ ولم توَحِّدوا ربَّكمْ وتَعبدوه، فإنِّي أخشَى أنْ يُصيبَكمْ عَذابٌ منهُ عَظيم. قالَ اللهُ تعالى في ذلك:

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: ٥٩]، وتتمتها حتى الآيةِ (٦٤) من السورة.

قالَ الرؤساءُ والكُبراءُ مِنْ قومِه: إنَّنا نَراكَ بَعيداً عنِ الحقِّ عندَما تَدعُونا إلى تركِ عِبادةِ الأصنام، فعلى هذا كانَ آباؤنا مُقيمِين، ولا نُصَدِّقُ نبوَّتك.

قالَ لهم: يا قوم، ما أنا بضالٍّ عنِ الحقّ، ولكنِّي رسولٌ مَبعوثٌ مِنْ قِبَلِ ربِّكمْ وربِّ الناسِ أجمَعين.

أبلِّغكمْ ما أمرَني اللهُ بتَبليغهِ إليكم، وأنا ناصِـــحٌ لكمْ بأمانةٍ وإشـــفاق، فأتحرَّى ما فيهِ خيرُكمْ وصلاحُكم، وأرغِّبُكمْ في قَبولِ أوامرِه، وأحذِّرُكمْ مِنْ نَواهيه، حتَّى لا يُصيبَكمْ عِقابُه، وأنا أعلمُ أشياءَ لا علمَ لكمْ بها، فاتَّقوا ربَّكم، واسمَعوا نَصيحَتي، ولا تكونوا مِنَ الكافِرينَ المتكبِّرين.

ولماذا تَتعجَّبونَ وتَستبعِدونَ مجيءَ مَوعظةٍ وبيانٍ مِنْ ربِّكم، يُوحي بهِ على رَجُلٍ منْ جنسِكم، ليُحَذِّرَكمْ منَ العَذابِ والهلاكِ إذا عَصيتُم، ولتتَّقوا بذلكَ نقمتَه، وليَرحَمَكمْ ويُحسِنَ إليكم إذا آمنتُمْ واتَّقيتُم؟!.

لكنَّهمْ استكبَروا عنْ طَاعةِ رَسولِهِمْ وكذَّبوه، وأصرُّوا على كُفرِهم، على الرَّغمِ منَ المدَّةِ الطويلةِ التي دعاهُمْ فيها إلى دينِ الله، فأنجيناهُ مِنْ بينِهم، هوَ ومَنْ آمنَ معَهُ في السَّفينة، منَ الطُّوفانِ العارم، وأغرَقنا جميعَ مَنْ كذَّبوه، ولقدْ كانوا عُمياً عنِ الحقّ، لا يَهتدونَ إلى الإيمان. وهو معنى قولِهِ تعالَى:

{فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ} [الأعراف: ٦٤].

...والسَّفينةُ تَجري بهمْ على الماء، والأمواجُ تتراكَمُ وتتَصاعَدُ كالجِبال.

ونادَى نوحٌ ابنًا لهُ كافِرًا، وكانَ في مَكانٍ عَزَلَ نفسَـــهُ عنْ أبيهِ وإخوانِهِ المؤمِنين: يا بُنيَّ اركَبْ معَنا في السَّـــفينة، وآمِنْ مثلَ إخوانِك، ولا تَكُنْ معَ الكافِرينَ فتَغرَقَ مثلَهم. {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ} (هود: ٤٢) حتى الآيةِ (٤٧)

قالَ لهُ ابنُه: سألتَجئُ إلى رَأسِ جَبَلٍ عالٍ يَحفَظُني ويَمنَعُني منَ الماءِ فلا يَصِلُ إليَّ. قالَ لهُ أبوه: يا بُنَيّ، ليسَ شَـيءٌ يَعصِـمُ اليومَ مِنَ العَذاب، إلاّ مَنْ رَحِمَهُ اللهُ فنَجا، فالتَجئْ إليهِ حتَّى يَرحَمَكَ ويُنجِيَك. وحالَ الموجُ بينَ نوحٍ وابنِه، فصارَ منَ المغرَقينَ معَ القَومِ الكافِرين.

وقالَ اللهُ للأرض: ابلَعي ما على وَجهِكِ منْ ماءِ الطُّوفان، وأنتِ يا سَماءُ أمسِكي عنْ إرسالِ المطَر. وبدأ الماءُ يَنقُصُ حتَّى غارَ مِنْ سَـــطحِها ونَضَـــب. وأُنْجِزَ ما وعدَ اللهُ بهِ مِنْ إهلاكِ الكافِرينَ وإنجاءِ المؤمِنين، ولم يَبقَ كافِرٌ على وَجهِ الأرض. واســـتَقرَّتِ السَّـــفينةُ على جَبلِ الجُودِيّ، وهوَ في مِنطَقَةِ ديارِ بكرٍ مِنْ أرضِ تُركيا، وقيلَ هَلاكًا وخَسارًا للكافِرينَ الظالِمين.

ودَعا نوحٌ رَبَّهُ قائلاً: إلهي، إنَّ ابني الذي غَرِقَ مِنْ أهلي، وقدْ وعَدتَني بإنجاءِ أهلي، ووَعدُكَ حَقٌّ لا تُخلِفُه، وأنتَ أعلَمُ مَنْ حَكَم، وأعدَلُ مَنْ قَضَى.

قالَ اللهُ تعالَى ما مَعناه: يا نُوح، إنَّ ابنَكَ ذاكَ لم يَكُنْ مِنْ أهلِكَ الذينَ وعَدتُ بإنجائهم، فلا قَرابةَ حقيقيَّةَ بينَ المؤمِنِ والكافِرِ ولو كانَ بينَهما نَسَب، فالعَقيدَةُ هيَ الأساس، فهوَ ليسَ مِنْ أهلِكَ ما دامَ كافِرًا، والكُفرُ عَقيدَةٌ فاسِدَةٌ وعَمَلٌ سَيِّء، فلا تَطلُبْ منّي ما لا تَعلَمُ أنَّ حصُولَهُ صَوابٌ ومُوافِقٌ للحِكمة، إنّي أنصَحُكَ خَشيَةَ أنْ تَكونَ منَ الجاهلينَ بحَقيقَةِ ذلك.

وقالَ نوحٌ عليهِ السّـــلام: اللهمَّ إنّي ألتَجِئُ إليك، وأعوذُ بكَ مِنْ أنْ أقَعَ فيما نَهيتَني عنه، وأنْ أسـألَكَ ما لا عِلمَ لي بصَـوابِه، وإذا لم تَغفِرْ لي ما صـدَرَ عنّي، وتَرحَمْني بقَبولِ تَوبَتي، أكُنْ منَ الخاسِرين، فتقَبَّلْ توبَتي، وارْضَ عنّي.

هود عليه السلام

أرسَـلَ اللهُ إلى قَبيلةِ عادٍ الأُولى أخاهُمْ في النسَـبِ هوداً، وكانوا بالأحقاف، بين عُمانَ والربعِ الخالي واليمن، وآثارُهمْ مازالتْ موجودةً في عُمان، فقالَ لهمْ نبيُّهم: يا قوم، اعبُدوا اللهَ وحدَه، ولا تُشرِكوا بهِ شَيئاً، فليسَ لكمْ إلهٌ غيرُ الله، أفلا تخافونَ أنْ يُصيبَكمْ بعَذابٍ مِنْ عندِه؟.

كما قالَ الله تعالَى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} [الأعراف: ٦٥]

قالَ الكافِرونَ مِنْ كُبراءِ قومِهِ وســادتِهم، وكانوا مِنْ أشــدِّ الأقوامِ تَكذيباً وعِناداً: يا هُود، إنَّنا نَراكَ في حُمْقٍ وجَهالة، حيثُ تُفارِقُ دينَ آبائكَ وتَدعو إلى دينٍ لا نَعرِفُه، ونحنُ نظنُّ أنَّكَ تكذِبُ بادِّعائكَ الرِّسَالة.

قالَ لهمْ هودٌ عليهِ السَّـــلام: يا قوم، لســتُ في جَهالةٍ وضَـــلالةٍ كما تَزعُمون، ولكنّي مُرسَـــلٌ إليكمْ مِنْ ربِّ العَالمين، ورُسُلهُ متَّصِفونَ بالرُّشدِ والصِّدْق، والأمانةِ والنُّصْح، والبَلاغةِ والبَيان.

أبلِّغُكمْ ما أمرَني اللهُ بتَبليغِهِ إليكم، وأنا أنصـــحُكمْ بأمانةٍ وإخلاص، لا أكذِبُ على الله، ولا أكذِبُ عليكم، فلماذا تتَّهمونَني بالجَهلِ والسَّفَه؟

ولماذا تَتعجَّبونَ وتَستَبعِدونَ مجيءَ رَسولٍ إليكمْ مِنْ ربِّكمْ يَكونُ مِنْ بينِكم، يَعرِفُكمْ وتَعرِفونَه، فيُحَذِّرُكمْ بأسَهُ إذا أعرضتُمْ عنْ أمرِه، وأصررتُمْ على الكُفرِ والعِصيان. واذكروا فضلَ اللهِ عليكمْ واشْكروا نعمتَه، وقدْ جعلَكمْ خُلفاءَ ومُلوكاً بعدَ قَومِ نوح، وقدْ أهلكَهمْ لتَكذيبِهمْ رسولَ ربِّهم، فلا تَكونوا مثلَهم. واشكروهُ كذلكَ أنْ ميَّزَكمْ في أجسادِكمْ على الناسِ بالطُّولِ والقوَّة، فتذكَّروا نِعمَهُ ومِنَنهُ عليكمْ وكُونوا لهُ منَ الشَّاكرين، لتكونوا عندَهُ مِنَ الفائزين.

قالوا في تحدٍّ وعِناد: هلْ أُرسِلْتَ إلينا منْ قِبَلِ ربِّكَ لنَعبدَهُ وحدَهُ ونترُكَ ما كانَ يَعبدهُ آباؤنا وأجدادُنا مِنْ أصنامٍ وألِفْنا ذلكَ ورَضِينا به؟ فإذا كنتَ صادقاً في قولِكَ فأتِنا بالعَذابِ الذي وعدتَنا به!

قالَ لهمْ نبيُّهمْ هُود: لقدْ وجَبَ عليكمْ منَ اللهِ السُّخْطُ والغَضَب، والعَذابُ والانتِقام، أتخاصِمُونَني وتُجادِلونَني في هذهِ الأسماءِ التي وضعتُموها للأصنامِ أنتُمْ وآباؤكمُ المشرِكون، وجعلتُمْ منها آلهة، وهوَ ما لم يُنْزِلِ اللهُ بهِ حُجَّةً ولا دَليلاً؟

قيلَ إنَّهمْ سمَّوها خالِقة، ورازِقة، ومُنزِلةَ المطر، ونحوَ ذلك.

فانتَظِروا نزولَ العَذابِ بكمْ كما طَلبتُموه، وأنا مُنتَظِرٌ مَعكمْ ليَحيقَ بكمْ ويُهلِكَكم.

فوقعَ العَذابُ المتربّصُ بهم، وأنجَينا هوداً ومَنْ مَعه منَ المؤمِنينَ رأفةً بهم، وأهلَكنا الكافرينَ الذينَ كذَّبوا رَسولَنا واستكبَروا عنِ الإيمانِ بآياتِنا، واستأصَلناهمْ عنْ آخِرِهم، ولم يؤمِنوا كما آمنَ غيرُهمْ ليَنجوا، بلْ أصرُّوا على الكُفرِ والتَّكذيب.

{فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٧٢]

تفسيرُ الآيات (٦٥ – ٧٢) من سورة الأعراف.

وقد قالَ لهم نبيُّهم هود:

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء: ١٢٧)

أي: لا أطلبُ منكمْ أُجرَةً مِنْ مالٍ أو مَتاعٍ مُقابِلَ تَبليغِ رسالَةِ رَبِّي، حتَّى لا تَقولوا إنَّهُ يُريدُ أنْ يُثرِيَ مِنْ خِلالِ هذهِ الدَّعوَة، إنَّما أطلبُ الأجرَ والثَّوابَ مِنَ اللهِ وحدَه.

وقالَ لهم: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ}

أي: ما لكم تُضَـيِّعونَ جُهودَكمْ وأوقاتَكمْ مِنْ دُونِ فائدَة، فتَبنونَ في مُلتقَى كُلِّ طَريقٍ مَعْلَمًا، أو مُجَسَّمًا بارِزًا لا حاجةَ لكمْ إليه؟!

{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}

وتَبنونَ قُصورًا مُشَيَّدَة، أو مصانِعَ ضَخمَةً للمِياه، وكأنَّكمْ ستَخلُدونَ في الدُّنيا، ولا تَحسُبونَ حِسابًا للمَوتِ والثَّوابِ والعِقاب.

{وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}

وإذا أَخَذتُمْ شَيئًا أو عاقَبتُمْ على أمْر، فضَرَبتُمْ أو انتَقَمتُم، فعَلتُمْ ذلكَ بقوَّةٍ وغِلْظَة، وجبَروتٍ وغضَب، دونَ مُراعاةِ أدَبٍ أو حِسابِ أثَرٍ مَكروهٍ له.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}

فاحذَروا غضَبَ اللهِ واترُكوا هذهِ الأفعَال، وأطيعُوني فيما آمرُكمْ به، فإنَّهُ أفضَلُ لكم.

{وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ}

واحذَروا عِقابَ الله، الذي أنعمَ عَليكمْ وأعطاكمْ مِنَ الخيراتِ ما تَعرِفون، فإنَّهُ قادِرٌ على سَلبِها منكم.

(في سورة الشعراء، الآيات ١٢٧ – ١٣٢).

صالح عليه السلام

أرسَلَ اللهُ إلى قَبيلةِ ثمودَ أخاهُمْ في النسَبِ النبيَّ صالحاً عليهِ السَّلام، وكانوا فيما بينَ الحجازِ والشَّام (مدائنَ صالحٍ في بلادِ الحرَمَينِ في عَصرِنا)، فقالَ لهمْ وقدْ كفَروا وأشرَكوا: يا قوم، اعبُدوا اللهَ وحدَهُ ولا تُشرِكوا في عبادتِهِ أصناماً لا تَنطِقُ ولا تَسمَع، ليسَ لكمْ منْ إلهٍ غيرُ الله، وهذهِ مُعجِزَةٌ خارِقةٌ تَدُلُّ على صِدقِ نبوَّتي وإرسالي إليكمْ منْ قِبَلِ ربِّكم، هذهِ ناقةُ اللهِ – قيلَ ذلكَ تعظيماً لها وتشريفاً، وقدْ جاءتْ منْ عندِ اللهِ ولم يَملِكْها أحَد – فاترُكوها تأكلِ العشبَ في أرضِ اللهِ الواسِعة، ولا تمدُّوا أيديَكمْ إليها بأذًى وشَرّ، كذَبحٍ أو ضَرْب، حتَّى لا يُصيبَكمُ اللهُ بعَذابٍ مِنْ عندِه. قالَ الله تعالى:

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـــذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأعراف: ٧٣]

وقالَ لهم: تذكَّروا فَضـــلَ اللهِ عليكم، حيثُ جعلَكمْ خُلفاءَ في الأرضِ منْ بعدِ قَومِ عاد، وأنزلَكمْ في أرضِ الحِجْر، بينَ الحِجازِ والشَّـــام، تَبنونَ المســـاكنَ العاليةَ في سُـــهولِها، وتَنقُبونَ الجبالَ وتَنحِتونَ منها البُيوتَ لتَســـكُنوا فيها شِـــتاء، فتذكّروا النِّعمَ التي قدَّرَكمُ اللهُ عليها، ولا تُفسِـدوا في الأرضِ فتَكونوا أشـراراً مسـتَحقِّينَ العِقاب. {وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الأعراف: ٧٤].

قالَ السَّـادةُ والأشـرافُ الذينَ تَكبَّروا منْ قَومِ صـالح، ممَّنْ لم يَسـمَعوا نصـيحتَه، واسـتهزَؤوا بالمعجِزةِ التي أيَّدتْ نُبوَّته؛ قالوا لأتباعهِ منَ المؤمِنينَ الضُّـــعفاءِ في سُـــخريةٍ وتَهكُّم: هلْ أنتُمْ متأكِّدونَ مِنْ أنَّ صـالحاً نبيٌّ مُرسَـلٌ منْ عندِ اللهِ إليكم؟ قالوا: نحنُ مؤمِنونَ بذلك، ولا شُـبهةَ عندَنا فيه.

قالَ لهمُ الكافِرونَ المستَكبِرونَ في عتوٍّ وجَلافة: ونحنُ نَجحَدُ بالذي آمنتُمْ به، ولا نسلِّمُ مثلَكمْ بنبوَّته.

فنَحروا الناقَة، واســتَكبَروا عنِ الامتِثالِ لأمرِ ربِّهمُ الذي بلَّغَهمْ نبيُّهم، ثمَّ وقَفوا في تحدٍّ وتَعجيزٍ أمامَ تهديدهِ قائلين: يا صالح، ائتِنا بالعَذابِ الذي وعدتَنا به، إذا كنتَ حقًّا نبيًّا مُرسَلاً.

فأهلكَهمُ اللهُ بزَلزَلةٍ شَديدةٍ مِنْ تحتِهم، وصَيحةٍ قويَّةٍ مِنْ فَوقِهم، فأصبَحوا في ديارِهمْ خامِدين، موتَى هامِدين، لا حَرَاك بهم، ولا حِسَّ فيهم.

فأعرضَ عنهمْ صـالحٌ وهوَ مُتَحسِّـرٌ على ما فاتَهمْ منَ الإيمان، وخاطَبَهُمْ كما خاطبَ رسـولُنا صلى الله عليهِ وسلم موتَى المشرِكينَ في غَزوةِ بدر: يا قوم، لقدْ أبلغتُكمْ رسالةَ ربِّي كما طَلبَ منِّي، وكانَ فيها فوزُكمْ ونجاتُكمْ لو أطعتُمْ ولم تُعانِدوا، ونَصـــحتُكمْ كما يَنبغي، وأنا مُشـــفِقٌ عليكم، ووددْتُ لو آمنتُمْ عنْ آخِركم، ولكنَّكمْ لا تَوَدُّون الناصِـــحين، وتُعادونَ المخلِصـــين، فكانَ هذا جزاءَكم، وفي الآخِرةِ عذابٌ أشدُّ وأبقَى.

{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: ٧٩]

(الآيات ٧٣ – ٧٩ من سورة الأعراف)

إبراهيم عليه السلام

أمرَ اللهُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ بالإخلاصِ والاستِسلامِ له، والانقيادِ لأوامرِه، فأجابَ إلى ذلك، وأطاعَ وأخلصَ على أحسنِ ما يَكون، مُفَوِّضاً أمرَهُ كلَّهُ إلى الله.

قالَ سبحانَهُ مِن قائل: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: ١٣١]

والاستِسلامُ الكاملُ للهِ من المواقفِ المشرِّفةِ والعَظيمة.

وذكرَ اللهُ تعالَى قصَّةَ نبيِّهِ إبراهيمَ مع قومهِ في عدَّةِ مواضعَ من كتابهِ الكريم، منها في سورةِ الأنبياء (الآيات ٥١ – ٧٠)، وفيها تتبيَّنُ جوانبُ من مواقفِ إبراهيمَ العظيمة، ومواقفَ وسلوكيَّاتٍ مخزيةٍ لقَومِه، وهذا بيانُها:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ} (الأنبياء: ٥١):

أي: هَدَينا إبراهيمَ إلى التَّوحيد، وألهَمناهُ طَريقَ الخَيرِ والفَلاح، قَبلَ موسَى وهارون، وكُنّا عالِمينَ بأحوالِهِ ومَحاسِنِ صِفاتِه، واستِعدادِهِ لحَملِ الرِّسالَة.

إذْ قالَ لأبيهِ آزَرَ وقَومِهِ المشرِكين: ما هذهِ الأصنامُ التي تُلازِمونَ عِبادتَها؟

قالوا له: هكذا وجَدنا آباءَنا وأجدادَنا يَعبدُونَها، ونحنُ نتَّبِعُهمْ ونُقَلِّدُهمْ في ذلك.

قالَ لهمْ إبراهيمُ عَليهِ السَّلام: إنَّكمْ أنتُمْ وآباؤكمْ زائغونَ مُنحَرِفون، على غَيرِ هِدايَةٍ ودَليلٍ تَعبُدون.

قالوا لهُ مُتَعَجِّبينَ مِنْ تَخطِئَتِهِ إيّاهُم: أتَقولُ ذلكَ جادًّا أمْ لَعِبًا وهَزْلاً، فإنَّنا لم نَرَ مَنْ تكَلَّمَ على آلهَتِنا، وعابَ عَلينا عِبادتَهُمْ قَبلَك؟

قالَ لهمْ مُصَحِّحًا ومُنَبِّهًا: إنَّ هذهِ الأصْنامَ أحجَارٌ عَملتُموها بأيدِيكمْ ثمَّ زَعَمتُمْ أنَّها آلِهة، فليسَ فيها أيَّةُ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِ الأُلوهيَّة، إنَّما خالِقُكمْ ورازِقُكمْ هوَ اللهُ رَبُّ السَّماواتِ

والأرْض، الذي خَلقَهُنَّ ومَنْ فيهنَّ مِنَ الأحْياءِ والنَّباتِ والجَماد، وأنتُمْ جُزءٌ مِنْ هذهِ الأحياءِ المخلوقَةِ بأمرِهِ وتَدبيرِه، وأنا أشهَدُ أنَّهُ هوَ الإلهُ الحَقُّ الذي لا إلهَ غَيرُه، ولا يُعبَدُ سِوَاه.

ووالله لأَمكُرَنَّ بأصنامِكمْ وأجتَهِدَنَّ في تَحطِيمِها بعدَ أنْ تَنتَهوا مِنْ عِبادَتِها وتَمضُوا.

فحَطَّمَها وجعلَها قِطَعًا، إلاّ الصَّنمَ الكبيرَ بينَها، لم يَكسِرْه، لعلَّهُمْ يَرجِعونَ إليهِ ويَسألونَهُ عمَّنْ داهَمَ آلِهَتَهمْ فكسَرَها وأذَلَّها هكذا، وكيفَ لم يُدافِعْ عَنها وهوَ كبيرُها؟! ثمَّ يَرجِعونَ إلى أنفُسِهمْ ويُدرِكونَ ما هُمْ فيهِ منْ وَهْمٍ وخطَأ.

وحينَ رجَعوا إلى أصنامِهمْ مرَّةً أُخرَى ورأَوها مَكسورة، تنادَوا قائلِين: مَنِ الذي أهانَ آلِهَتَنا وفعلَ بها كُلَّ هذا؟ لا شَكَّ أنَّهُ ظالِمٌ مُتَعَدٍّ، قدْ عرَّضَ نفسَهُ لعِقابٍ كَبير.

قالَ بعضُ مَنْ سَمِعَ إبرَاهيمَ يَتعَرَّضُ لها ويُهَدِّدُ بكَسرِها: سَمِعنا شابًّا يَعِيبُها يُقالُ لهُ إبرَاهيم.

قالوا: فأَحْضِروهُ ليَراهُ النَّاسُ كُلُّهمْ ويَشهَدوا ما نُوقِعُ بهِ منْ عِقاب.

فلمّا اجتمَعَ النَّاسُ – وكانَ هذا مَقصُودَ خَليلِ اللهِ إبرَاهيمَ عَليهِ السّلامُ – قالوا له: أأنتَ الذي حطَّمْتَ آلِهَتَنا وكسَرتَها هكَذا يا إبرَاهيم؟

قالَ لهمْ عَليهِ السَّلام: بلِ الذي كسَرَها هوَ هذا الصَّنَمُ الكبير – الذي تَرَكَهُ ولم يَكسِرْهُ – فاسْألوهمْ إذا كانَ بالإمكانِ أنْ يَنطِقوا ويَدُلُّوكمْ عَليه.

ففُوجِئوا بهذا الجَواب، بلْ أُفحِموا ولم يَعرِفوا كيفَ يَرُدُّونَ عَليه. وعندَما تدَبَّروا أنَّ قَولَهُ حَقّ، وأنَّ هذهِ الآلِهَةَ المزعومَةَ ما هيَ سِوَى أحجارٍ صَمَّاءَ لا قُدرَةَ لها على الحرَكةِ والكلام، ولا الدِّفاعِ عنْ نَفسِها، قالوا فيما بينَهم: بلْ أنتُمُ المخطِئونَ بعِبادَةِ مَنْ لا يَتكَلَّمُ ولا يَفهَم، ولا يَضُرُّ ولا يَنفَع.

ثمَّ أطرَقوا رُؤوسَهمْ وهمْ في خَيبَةٍ وحَيرَة، وقالوا في عِنادِ الكافِرِ ومَنطِقِ المهزوم: لقدْ عَلِمتَ يا إبرَاهيمُ أنَّ هذهِ الآلِهَةَ لا تتَكلَّم، وأنَّنا كنّا نَعبُدُها معَ عِلمِنا بذلك!

قالَ لهمْ عَليهِ السَّلام: إذا كانتْ هذهِ الأحْجارُ لا تَنطِق، ولا تَستَطيعُ الدِّفاعَ عنْ نَفسِها، فكيفَ تُسَمُّونَها آلِهة، وكيفَ تَعبدُونَها مِنْ دونِ الله، وهيَ لا تَنفَعُكمْ بشَيء، ولا تَضُرُّكمْ بشَيء؟!

تُبًّا لكمْ على إصْـرارِكمْ وتَشَـبُّثِكمْ بالباطِل، وعِبادَتِكمْ لهذهِ الجَماداتِ التي تَدَّعونَ أُلوهيَّتَها وقدْ صَـنَعتُموها بأيديكم، وهيَ غَيرُ قادِرَةٍ على نَفعِكمْ ولا الإضْـرارِ بكم، أفلا تَتفَكَّرونَ فيما أنتُمْ فيهِ مِنْ ضَلالٍ وجَهل، وتَتدَبَّرونَ فيمَنْ يَستَحِقُّ العِبادَةَ حقًّا؟

ولما انقطَعَتْ حُجَّتُهم، وضـاقَتْ حيلَتُهم، لجَؤوا إلى الظُّلمِ والتَّعَسُّـف، وقالوا: أحرِقُوهُ بالنَّار، حتَّى لا يَجرُؤَ أحَدٌ بَعْدَهُ أنْ يَقولَ مَقولتَهُ في آلِهتِنا، فانتَقِموا لها إذا أرَدتُمْ أنْ تَنصُروها حَقًّا.

وعندَما ألقَوهُ في النَّار، قُلنا لها: يا نارُ لا تُحرِقِيه، بلْ كوني لهُ بَرْدًا وسَلامًا وعافِيَة.

وأرَادوا أنْ يَمكُروا بهِ فيُحرِقُوهُ ليُطفِئوا بذلكَ نورَ الحَقّ، ولكنَّ اللهَ هوَ الذي مكرَ بهِمْ وجعَلَهمْ خائبينَ مَغلوبين.

(في سورةِ الأنبياء، الآيات ٥١ – ٧٠)

وجادلَهُ قومهُ في أمرِ التوحيدِ وخاصَـموهُ في عبادةِ اللهِ دونَ الأصـنام، فقالَ لهم: أتجادِلُونَني في أمرِ اللهِ وقدْ بصَّـرني بالحقِّ وهَداني إلى التوحيد، ولا أخافُ منْ هذهِ الأصـنامِ التي تَعبدونها وتَظنُّونَ أنَّها تَضُـرُّ مَنْ يَسـتَهزِئُ بها، فهي أحجارٌ صـمّاءُ صـنَعتُموها بأيديكم، فإذا أصـابَني شَـيءٌ فمِنْ جهةِ اللهِ وبتَقديرِهِ ولا علاقةَ لأصنامِكمْ بها، قدْ أحاطَ ربِّي عِلمًا بكلِّ المخلوقات، فلا يَخفَى عليهِ شَـيءٌ منها ومِنْ أحوالِها، أفلا تَفقَهونَ وتَعتبِرونَ ممّا قلتُهُ لكم، فتَتركوا عبادةَ الآلهةِ الباطِلة، وتَتوجَّهوا إلى اللهِ الواحِدِ الأحَدِ في عبادتِكمْ ودُعائكم، وخوفِكمْ ورجائكم، وفي السرّاء والضرّاء؟!

قالَ اللهُ في ذلك: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْـرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام: ٨٠]

وقالَ لهم، كما في الآيةِ التالية: كيفَ أخافُ مِنْ أصـنامِكمُ المصـنُوعةِ مِنْ حِجارة، وهيَ لا تَسـمعُ ولا تَتكلَّم، ولا تَدري بأمرِ عِبادتِكمْ لها، وأنتُمْ لا تَخافونَ مِنْ إشـراكِكُمْ باللهِ العَظيمِ وعبادتِكمْ مِنْ دونه، وهوَ خالقُ السَّـماواتِ والأرضِ وما فيهما مِنْ أشـياء، على كثرتِها وتنوُّعِها، وعبادتُكمْ لها لا أساسَ لها مِنَ الصحَّة، فلمْ يُنـزِلِ اللهُ بذلكَ حُجَّةً ولا دَليلاً، وأمرُ العبادةِ مَتروكٌ للهِ وحدَه، لا يَشْرَعُ الإنسانُ شَيئاً منها.

فأيُّ الجانبَينِ على الحقِّ والصَّـواب: الذي يَعبدُ ما لا يَضـرُّ ولا يَنفَع، أمِ الذي يَعبدُ مَنْ بيدهِ الضرُّ والنَّفع؟ وأيُّهما أحقُّ بالأمنِ منْ عَذابِ الله، أخبِروني بذلكَ إنْ كنتُمْ منْ أهلِ العِلم.

وفي آياتٍ أخرَى من سورةِ الشعراء (٧٥ – ٨٢) بيانُها:

قالَ لهمْ إبراهيمُ عَليهِ السَّلامُ لقَومِه: أفَرأيتُمْ هذهِ الأصَنامَ التي تَعكُفونَ على عِبادَتِها، أنتُمْ وآباؤكمْ وأجدادُكمُ الأوَّلون،

فإنَّها عَدوٌّ لِي، لا أعبُدُها ولا أُبالي بها، ولا أنتَظِرُ منها نَفْعًا، ولا أتوَقَّعُ منها ضُـرًّا، فإذا كانتْ آلِهَةً حقًّا فَلْتَمَسَّـني بسُـوء. لكنَّ ربَّ العالَمينَ ليسَ كذلك، فهوَ وليِّي في الدُّنيا والآخِرَة، وهوَ الذي بيدِهِ الأمرُ كُلُّه، وأنا أعبدُهُ لأنَّهُ الإلهُ الحَقّ.

الإلهُ الذي خلَقَني، فهوَ يُرشِدُني إلى ما يُصلِحُني، ويَدُلُّني على طريقِ النَّجاة.

وهوَ الذي يَرزُقُني أنواعَ الطَّعامِ والشَّـراب، وقدْ هَيَّأ ليَ الاسـتِفادَةَ منها بما يُناسِـبُ طَبيعَتي وجِسمي.

وإذا قدَّرَ اللهُ أنْ مَرِضـتُ، فهوَ الذي يُبرِئُني مِنَ المرَض، لا أحَدَ غَيرُه، وما الأدويَةُ والعِلاجاتُ سِوَى أسبَاب، إنْ شاءَ جعلَ فيها الشِّفاء، وإنْ لم يَشَأ لا يَكونُ شِفاء.

وهوَ الإلهُ القادِر، الذي يُميتُني في الدُّنيا، ثمَّ يَبعَثُني بعدَ الموتِ يَومَ القيامَة، ولا يَقدِرُ على ذلكَ سِواه.

وهوَ الغَفورُ الرَّحيم، الذي أرجو أنْ يَغفِرَ لي ذُنوبِي يَومَ الحِساب، فإنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلاّ هو.

وما كانَ استِغفارُ إبراهيمَ لأبيه، بقولهِ: {وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّـالِّينَ} [سورة الشعراء: ٨٦] بأنْ يَهدِيَهُ للإيمان، إلاّ عنْ مَوعِدٍ وَعَدَ بهِ إبراهيمُ أباهُ بقَولهِ: {لَأَسْـتَغْفِرَنَّ لَكَ} [سورة الممتحنة: ٤] فلمّا تَبيَّنَ لإبراهيمَ أنَّهُ اسـتمرَّ في عَداوتهِ للهِ حتَّى ماتَ كافِراً، قطعَ الصِّـلةَ التي بينَهُ وبينَهُ، وتركَ الاسـتغفارَ له، إنَّ النبيَّ إبراهيمَ كثيرُ التضـرُّعِ والدُّعاء، كثيرُ الصَّـبرِ على أذَى الناس، صَفُوحٌ عنهم.

وكانَ المسلمونَ يَستغفِرونَ لأمواتِهِمْ مِنَ المشركين، بحُجَّةِ أنَّ إبراهيمَ استغفرَ لأبيه، فنزلتِ الآيةُ لتُزيلَ الإشكال، فكَفُّوا.

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤]

وقالَ عليهِ السَّلام:

{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}: اللهمَّ ارزُقني ذُرِّيَّةً صالِحَةً تُعينُني على تَبليغِ رِسالتِك.

{فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}: فوَهَبنا لهُ على الكِبَرِ إسماعِيل، وكانَ عاقِلاً حَليمًا، مُطيعًا.

{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}: فلمَّا شَبَّ وقَدَرَ على أنْ يَفعَلَ ما يَفعَلُ والدُه، وصارَ يَرتَحِلُ معَه، قالَ لهُ مرَّة: يا بُنيّ، إنِّي أرَى في المنامِ أنِّي أذبَحُكَ – ورؤيا الأنبياءِ حَقٌّ – فانظُرْ ما تَقول؟

قالَ إسماعِيلُ عَليهِ السَّلامُ في إيمانٍ وتَسليم، وطاعَةٍ وصَبرٍ جَميل: يا أبَتِ، افعَلْ ما يأمرُكَ بهِ رَبُّك، ستَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ صابِرًا على قَضائه، مُحتَسِبًا ذلكَ عندَه.

{فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ}: فلمَّا استَسلَما وانقادَا لأمرِ الله، وأكَبَّهُ إبراهيمُ على وَجهِه،

{وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ}: نادَيناه: يا إبراهيم،

{قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}: لقدْ أوفَيتَ الرُّؤيا حَقَّها بعَزمِكَ على ذَبحِ ولَدِك، وهكذا نَجزِي عِبادَنا المطِيعين، ونَصرِفُ عَنهمُ الشَّدائدَ والمكارِه.

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ}: إنَّ هذا هوَ الابتِلاءُ والاختِبارُ الصَّعبُ البَيّن.

{وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}: وفدَيناهُ بحيَوانٍ عَظيمٍ ليُذبَحَ بدلاً. ذُكِرَ أنَّهُ كَبْش.

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ}: وأبقَينَا ذِكرَهُ الطيّبَ بينَ الأنبياءِ والأُمَمِ والطَّوائفِ كُلِّها.

{سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ}: سَلامٌ مِنَ اللهِ على نَبيِّهِ إبراهيم، وسَلامٌ عَليهِ مِنْ كُلِّ الأنبياءِ والمؤمِنين.

{كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}: وهكذا نُثيبُ مَنْ كانَ مؤمِنًا باللهِ ومُطيعًا له، فنَرفَعُ ذِكرَه، ونَجزيهِ خَيرَ الجَزاء.

(تفسيرُ الآياتِ ١٠٠ – ١١٠ من سورةِ الصافّات)

لوط عليه السلام

أرسَلَ اللهُ تعالَى لوطاً نبيًّا إلى قومِه، وكانوا حولَ البَحرِ الميّت بفلسطين، فقالَ لهمْ مُستَنكِراً: أتأتونَ فاحشةً بَغيضةً مُنكَرةً لم يَسبِقْكمْ بها أحدٌ منَ العالَمين؟

إنَّكم تأتونَ الذُّكورَ منَ الرِّجالِ في أدبارِهمْ لشَهوتِكمْ وتَترُكونَ ما خلقَ اللهُ لكمْ منَ النِّساءِ وهنَّ محلُّ الاشتهاءِ عندَ ذوي الفِطَرِ السَّليمةِ والطِّباعِ المستَقِيمة؟ لا شكَّ أنَّكمْ مُتجاوزونَ بذلكَ الحلالَ إلى الحرام، والمستَحْسَنَ إلى المرْذول، والمعرُوفَ إلى المنكَرِ المستَهجَن.

فاللِّواطُ فِعلٌ فاحِشٌ بَذيء، فيهِ فسادُ الفِطرةِ، وانحلالُ الخُلق، وسوءُ السُّلوك، وانحِرافُ الرُّجولة. ويسبِّبُ أمراضاً خَطيرة، مثلَ الزُّهْرِيّ، وقُصورِ الجهازِ المناعي عنْ أداءِ وظيفتِه، فيُصبِحُ الجسمُ ضَعيفاً عاجِزاً عنْ مقاومةِ أنواعٍ كثيرةٍ منَ العدوَى، معَ أمراضٍ أخرى...

{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} [الأعراف: ٨١]

وما كانَ جوابَ المستَكبِرينَ مِنْ قومِه، إلاّ أنْ قالَ بعضُهمْ لبَعض، وقدْ أبَوا نَصيحةَ نبيِّهمْ وأعرَضوا عنْ رسالتِه: أخرِجوا لوطاً ومَنْ تَبِعَهُ منْ بلدتِكُمْ هذه، وقالوا في سُخريةٍ وتهكُّم: إنَّهمْ يَتطهَّرونَ منَ الفواحِش، ويَتنَزَّهونَ عن اللِّواط، ويَتقَذَّرونَ ما نَرغَبُ فيه.

فأنجينا لوطاً وأهلَهُ الذينَ آمَنوا به، إلا امرأتَه، التي بَقيتْ على دِينِ قومِها، فكانتْ منَ الباقينَ معَهم، وقدْ هَلَكوا جميعاً.

(تفسيرٌ للآياتِ الكريمة ٨٠ – ٨٣ من سورةِ الأعراف):

{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ}

{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}

{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}.

وقالَ الله تعالَى في موضعٍ آخرَ من كتابِهِ العزيز:

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} (هود: ٨٢)

أي: فلمَّا جاءَ عَذابُنا قلَّبنا مُدُنَهُمْ على رأسِها، فصاروا كلُّهم تحتَ الأرضِ أنقاضًا، وأرسَلنا عليهمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ مُتَحَجِّرٍ مُتراكِم، يَتْبَعُ بعضُهُ بَعضًا.

وقدْ أثبتَتْ دِراساتُ عُلومِ الأرض، أنَّ طَبقاتِ الصُّخورِ في مِنطَقةِ جَنوبِ البحرِ الميّت، وهيَ مكانُ سَكَنِ قومِ لوط، مَقلوبَةٌ رأسًا على عَقِب، كما جاءَ في نَصِّ الآيةِ الكريمة.

{مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} (هود: ٨٣):

وهذهِ الحِجارةُ مُعْلَمَةٌ مُمَيَّزة، لتُصيبَ كُلاًّ باسمِه، وليسَتْ هذهِ النقْمَةُ ببَعيدةٍ مِنَ الظَّالِمين، واللهُ يأتي بها متَى شَاء.

شعيب عليه السلام

وأرسَلَ اللهُ إلى قَبيلةِ مَدْيَن – وهوَ اسمُ مدينةٍ أيضاً، قُربَ مَعَان – أخاهُمْ في النسَبِ شُعَيباً، فقالَ لهمْ ناصِحاً ومُحَذِّراً: يا قَوم، اعبُدوا اللهَ وحدَه، ولا تُشرِكوا في عِبادتهِ أحداً مِنْ أصنامِكمُ التي تَزعُمونَ أنَّها آلهة، فإنَّهُ لا إلهَ لكمْ غيرُ الله، وقدْ جاءَتكمْ آيةٌ بيّنة، ومُعجِزةٌ ظاهِرةٌ مِنْ ربِّكم، تدلُّ على صِدقِ رِسالتي إليكم، فاسمَعوا التَّوجيهاتِ الربَّانية، والنصائحَ النبويَّة، التي تأخذُ بيدكمْ إلى السَّعادةِ والنَّجاة:

أتِمُّوا المِكيالَ ولا تَنقُصوا مِنْ مَقاديرِ مَقاييسِ الوَزنِ والكَيْل، واعدِلوا في وَزنِ الميزان، ولا تَنقُصوا الناسَ حقوقَهم، ولا تَخونُوهمْ في أموالِهمْ ومُبايعاتِهمْ خُفْيَةً وتَدليساً.

ولا تُفسِدوا في الأرضِ بالكفرِ والظُّلم، والتحايلِ والخيانة، بعد إصلاحِ أمرِها وأهلِها بالشَّرائعِ الربّانية، فإنَّهُ خيرٌ لكمْ وأفضلُ لمجتَمعِكمْ وأهليكمْ منَ الظُّلمِ والفسادِ الذي أنتمْ فيه، هذا إذا تدبَّرتمْ ما أقولُ ووَعيتُموهُ وآمنتُمْ بأنَّهُ الأحسَنُ والأولى.

وقالَ شُعيبٌ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ أيضاً وهوَ يَعِظُ قومَهُ، وكانَ يُسمَّى خطيبَ الأنبياء، لفَصاحةِ عبارتِه، وجَودةِ حوارِه، ومهارتهِ في الحديث: ولا تَقعُدوا بالطرُقِ تخوّفونَ النَّاسَ وتُهَدِّدونهمْ بالقَتلِ والأذَى، وتَمنعونَ الناسَ عنْ دينِ الله، وتَقولونَ إنَّ شُعيباً كذَّابٌ فلا يَصرِفنَّكمْ عنْ دينِكم، وتتوعَّدون الذينَ آمنوا بهِ بافتِتانِهِمْ عنْ دِينِهم، وتَبغونَ مِنْ دِينِ اللهِ الميَلانَ والعُدولَ عنِ الحقِّ ليوافِقَ أهواءَكم.

وتَذكَّروا كيفَ أنَّكمْ كنتُمْ قِلَّةً مُستَضعَفين، فوهبَكمُ الذريَّةَ وزادَ منْ عددِكمْ حتَّى صِرتُمْ كُثُراً. وتَفَكّروا واعتَبِروا بمنْ كانَ قبلَكمْ مِنْ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ ولوط، وما حلَّ بهمْ منَ العَذابِ نَتيجةَ فسادِهمْ وعِصيانِهمْ وتكذيبِهمْ رُسُلَهم.

وإذا كانَ مِنكمْ جماعةٌ قدِ اهتَدَوا وآمَنوا وصدَّقوا برِسالتي إليكم، وجماعةٌ أخرَى ضلُّوا وكفَروا وأبَوا أنْ يُصَدِّقوني، فانتَظِروا – جماعةَ الكفّارِ – وتربَّصوا، حتَّى يَفصِلَ اللهُ بينَنا وبينَكم، وستَرونَ حينئذٍ حُكمَهُ العادِل، وكيفَ أنَّهُ يَنصُرُ المحِقَّ ويَخذُلُ المبطِل، وهوَ سبحانَهُ أعدَلُ الحاكِمين.

قالَ السَّادةُ الزعماءُ الذينَ استَكبَروا عنْ قَبولِ الحقّ مِنْ قَومِ شُعَيب: سوفَ نُخرِجُكَ يا شُعَيبُ أنتَ ومَنْ آمنَ معكَ مِنْ بلدِنا، حتَّى لا تُزعِجَنا برسالتِك، أو لنُكرِهنَّكمْ على الرجوعِ إلى ما نحنُ عليهِ مِنْ دينِ آبائنا.

قالَ لهمْ شُعَيبٌ عليهِ السَّلام: حتَّى لو كنّا كارهينَ الشِّركَ والكُفر، مُبغِضينَ الظلمَ والفسَاد؟ إنَّنا نَكونُ كذَبنا على اللهِ كَذِباً عَظيماً إذا رجَعنا إلى مِلَّتكمْ وأشرَكنا معَ الله، بعدَ أنْ خلَّصَنا اللهُ منها ومِنْ ظُلماتِها، وعَلِمنا بُطلانَها عنْ طَريقِ رَسولِه، ولا يَحِقُّ لنا ولا يُعقَلُ أنْ نَعودَ في الكفر، إلا حالَ مَشيئةِ اللهِ لعَودِنا في حالِ انتِكاسِنا وخِذلانِنا. وهذا كلامُ أصحابِ شُعَيبٍ عليهِ السَّلام.

وقد أحاطَ اللهُ عِلماً بأحوالِ عِبادِه، فهوَ يَعرِفُ نيَّاتِهم وظواهرَهم، ومَنْ يَنوي الخيرَ ونَقيضَه، قدْ فوَّضنا أمرَنا إلى الله، واعتمدْنا عليهِ في أمورِنا كلِّها.

اللهمَّ إنَّا نسألُكَ أنْ تَفصِلَ بينَنا وبينَ قومِنا الذينَ أبَوا دينَك، وعتَوا وعانَدوا وظَلموا، فأنتَ الحقّ، وأنتَ خيرُ مَنْ قضَى وحَكَم.

ثم أصَرُّوا واستَكبَروا، وتمادَوا في الغَيِّ والضَّلال، وقَالَ لَهُمْ أشرافُهمْ ورُؤسَاؤُهم، بعدَ أنْ رأوا ثباتَ النبيِّ شُعَيبٍ والمؤمِنينَ معه: إنَّكم إذا اتَّبعتُمْ شُعَيباً وفارقتُمْ دينَ آبائكم، فإنَّكمْ خاسِرونَ مَغبونون.

فزَلزلَ اللهُ الأرضَ مِنْ تحتِهمْ وأهلكَهمْ أجمَعين، وصاروا موتَى خامِدين؛ لا أثرَ للحياةِ والحركةِ فيهم.

(تفسيرٌ للآيات ٨٥ – ٩١ من سورةِ الأعراف)

يعقوب عليه السلام

كلُّ الأطعمةِ كانتْ حَلالاً على بَني إسـرائيل، إلا ما حرَّمَهُ إسـرائيلُ (يعقوبُ) عليهِ السـلامُ على نَفسِـه، قبلَ أنْ تَنزِلَ التوراةُ على موسَى، وربَّما حرَّمها لمرضٍ أو نَذْرٍ، فتابَعَتْهُ بَنو إسرائيلَ هكـذا، وليسَ تَبَعـاً للتوراة، ثمَّ حُرِّمـتْ عليهِمْ أطعمـةٌ لملابسـاتٍ أخرى؛ عقوبـةً لهمْ على معاصِيهمُ المتَتالية.

وقلْ لهمْ يا رسـولَ الله: هاتُوا التوراةَ فاقرَؤوها لتُقِرُّوا بصـحَّةِ ما قلتهُ لكمْ أيُّها اليهود، وليَتبيَّنَ صدقُ قولِكم، إذا كنتُمْ صادقينَ فيه. فبُهتوا، ولم يأتوا بها!

قالَ اللهُ تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْـرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْـرَائِيلُ عَلَى نَفْسِـهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران:٩٣]

يوسف عليه السلام

قصةُ يوسفَ عليه السلامُ جاءتْ في سورةٍ كاملة، وقد حسدَهُ إخوتهُ من غيرِ أمِّهِ لمكانتهِ عندَ أبيهم، واتفَقوا أن يَخرجوا به إلى البرِّ ويغيِّبوهُ عنه، ويدَّعوا أن الذئبَ أكله. فوضـعوهُ في بئر، وجاءَ مسـافرون وأخذوهُ إلى مصـر، وباعوهُ لكبيرِ وزرائها. وهناك تعرَّضَ لمكيدةٍ نسـائيةٍ ونجّاهُ الله منها، وسُجنَ ظلمًا سنوات.

ورأى الملكُ رؤيا عَجيبة، وطلبَ تفسـيرها، فلم يعرفْها أصـحابه، ثم دلُّوهُ على معبِّرٍ للرؤى في السجن، هو يوسفُ عليه السلام. ولما طلبَ خروجَهُ من السجنِ أبَى أن يغادرَهُ إلا بعد تبرئةِ ذمَّتهِ مما اتُّهمَ به، فكان له ذلك.

وعيَّنَهُ الملكُ وزيرًا للمالية. ولما عمَّ القحطُ مصـرَ ومعها بلادُ الشـام، حلَّ بآلِ يعقوبَ ما حلَّ بالناس. وسَمعوا بعدلِ يوسـفَ وإحسـانه، فقصـدَهُ إخوتهُ ليسَـاعدَهم وهم لا يَعرفونه، فزوَّدَهم بالميرة، وطلبَ إحضـارَ أخيهم (شـقيقهِ بنيامين) شرطًا لمساعدتهم في المرةِ القادمة. فسـمحَ لهم والدُهم باصـطِحابهِ بشُـروط. ثم احتَفظَ به يوسـفُ في قصَّـة. ثم أعلمَهم بنفسـه. واعترفوا بخطَئهم، وطلَبوا مسامحَته، معترفِين بفضلهِ عليهم.

فعفَا عنهم. ثم حضرَ الوالدُ معهم، وعاشوا عند يوسفَ عليه السلام.

قالَ الله تعالَى في نهايةِ سورةِ يوسف:

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـــكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}

أي: لقدْ كانَ في خبَرِ الأنبياءِ معَ أُمَمِهم، ومِنْ ذلِكَ قِصَّةُ يوسُفَ معَ إخوتِهِ وأبيه، ثمَّ سَجنُهُ، ومَآلُ أمرِه، تَذكِرةٌ وعِبرَةٌ لذَوي العُقول، أهلِ الفِكرِ والاعتِبار.

وما كانَ هذا القُرآنُ العَظيم، الذي احتَوَى على قَصَصِ الأنبياءِ وغيرِها ممّا فيهِ فائدةٌ وعِبرَة، ما كانَ كلامًا مُختَلَقًا، ولا حِكايةً شَـــعبيَّةً تُســـرَد، فإنَّ الكذِبَ لا يُحَقِّقُ هِداية، ولا يَطمَئنُّ إليهِ النَّاس، ولكنَّهُ كِتابُ هِدايةٍ وتَوجيه، صدَّقَ الكتُبَ السَّماويةَ السَّابِقة، وشَهِدَ لها بالصحَّةِ إذا وافقَتِ الوحي. وفيهِ بيانُ ما يَحتاجُهُ النَّاس، مِنْ عِبادات، ونِظامِ حياة، وتَربيَةٍ وأخلاق، وهوَ هِدايةٌ منَ الغَيِّ والضَّـــلالِ إلى الحقِّ والرَّشَـــاد، ورحمَةٌ لهمْ مِنْ ربِّ العِباد، يَنالونَ بها خَيرَ الدُّنيا والآخِرة. هذا لِمَنْ صدَّقَ بكتابِ الله، وآمنَ بالإسلامِ كُلِّه، واتَّبعَ هُداه.

موسى عليه السلام

خرجَ موسَى عليه السلامُ من مصرَ متوجِّهًا إلى مَدين،

ولَمَّا وصَـلَ إلى البِئرِ التي يَشـرَبُ منها أهلُ مَدْيَن، وَجدَ حَوْلَها جَماعَةً يَسـقونَ منها أنعامَهم، ووَجـدَ أبعـدَ منهمُ امرأتَينِ تَمنعـانِ غَنمَهُمـا مِنَ المـاء، فرَقَّ لهمـا وقـال: مـا خبرُكمـا ولمـاذا لا تَسـقيان؟ قالَتا: لا نَسـقي حتَّى يَصـرِفَ الرُّعاةُ مَواشِـيَهم، ولا نُزاحِمُ الرِّجالَ حتَّى لا نؤذَى، ووالِدُنا شَيخٌ كبيرٌ في السِّنّ، وليسَ لنا رَجُلٌ يَقومُ مَقامَه.

فسَقَى موسَى لهما رَحمَةً بهما، ثمَّ مضَى إلى ظِلِّ شَجَرَةٍ مِنْ شِدَّةِ الحرّ، وناجَى ربَّهُ قائلاً: اللهمَّ إنِّي فَقيرٌ مُحتاجٌ إلى نِعمَتِكَ وفَضلِك.

ورجَعَتْ إحدَى الفَتاتَينِ إلى موسَى عَليهِ السَّلامُ وهيَ تَمشي في حَياءٍ وقالَتْ له: إنَّ أبي يَطلُبُ منكَ المجيءَ إليهِ ليُعطيَكَ أُجرَةَ سَقيك. فمضَى إليه، وسردَ عَليهِ ما جرَى لهُ في مِصر، وقَتْلَهُ القِبطيَّ، فقالَ له: لا تَخَف، لقدْ أنقَذَكَ اللهُ مِنْ قَومِ فِرعَونَ الكافِرينَ المعتَدين.

والمشهورُ أنَّ ذلكَ الرجُلَ هوَ شُعَيبٌ عَليهِ السَّلام، وذكرَ بَعضُهمْ أنَّهُ غَيرُه.

قالَتْ إحدَى الفَتاتَينِ لأبيها: يا أبتِ، اتَّخِذْهُ أجيرًا ليَرعَى أغنامَنا ويَقومَ بأمرِها، فإنَّهُ قَويٌّ أَمين، وإنَّ خَيرَ مَنِ استُؤجِرَ مَنْ جمَعَ بينَ القُدرَةِ والأمانَة.

قالَ صاحبُ "تيسيرِ الكريمِ الرحمنِ في تَفسيرِ كلامِ المنَّان": وهذانِ الوَصفانِ يَنبَغي اعتبارُهما في كُلِّ مَنْ يَتوَلَّى للإنسَـــانِ عمَلاً، بإجارَةٍ أو غَيرِها، فإنَّ الخَللَ لا يَكونُ إلاّ بفَقدِهما، أو فَقدِ أحَدِهما، وأمّا باجتِماعِهما فإنَّ العمَلَ يَتِمُّ ويَكمُل. اهـ. يَعني القوَّةَ والأمانة.

قالَ والِدُ الفَتاةِ لموسَى عَليهِ السَّلام: إنِّي أُريدُ أنْ أُزَوِّجَكَ إحدَى ابنتَيَّ اللَّتَينِ رأيتَهما، على أنْ تَعمَلَ أجيرًا عِندي ثماني سَنوات، فإذا أكمَلتَها عَشرًا فهوَ تَفضُّلٌ منك، ولا أُريدُ أنْ أُكَلِّفَكَ بما لا تُطيق، وستَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ حسَنَ المعامَلة، وافِيًا بالعَهد.

قالَ لهُ موسَى عَليهِ السَّلام: ذاكَ الشَّرطُ بيني وبَينَك، وأيَّ الأجلَينِ أتمَمْتُ، الثَّمانيَ أو العَشْرَ، فلا حرَجَ عَليّ، واللهُ شَهيدٌ على ما تعاهَدنا عَليه.

(تفسير للآيات ٢٣ – ٢٨ من سورة القصص)

قالَ فرعونُ لموســى عليه الســلام، وقد أوحَى الله إليه، بعدَ إيابهِ من مَدين، ودخلَ إلى فرعَونَ يَدعوه:

{قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ} (الشعراء : ١٨)

{وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}

أي: قَتَلتَ رَجُلاً منّا، فجَحَدتَ بفَعْلَتِكَ تلكَ نِعمتَنا عَليك؟

{قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ}

قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: لقدْ فعَلتُ ذلكَ حينَئذٍ وأنا مِنَ الجاهِلين، قَبلَ أنْ أُبْعَثَ رَسولاً.

{فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء : ٢١)

أي: خرَجتُ هارِبًا منكمْ إلى مَدْيَنَ لما خِفتُ انتِقامَكمْ منّي، فوَهبَني اللهُ النبوَّةَ وأرسَلَني إليكم.

{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}؟

وما ذَكَرْتَ مِنْ تَربيَتي في بَيتِكَ عندَما كنتُ صَـــبيًّا، هيَ نِعمَةٌ في ظاهِرِها، ولكنَّها جاءَتْ مِنْ ظُلمِكَ لبَني إسْرائيلَ وقَتلِكَ أبناءَهم، ولولا ذلكَ لتربَّيتُ في بَيتِ والِدَيَّ لا بَيتِك.

ويستمرُّ الحوارُ حتى الآيةِ (٣١) من سورةِ الشعراء، وبيانها:

قالَ لهُ فِرعَونُ جاحِدًا مُتَمَرّدًا: وأيُّ شَيءٍ يَكونُ رَبُّ العالَمين؟ وكانَ يَدَّعي أنَّهُ هوَ الرَّبّ.

قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: هوَ خالِقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما وما فيهما مِنْ مَخلوقات، وهوَ مالِكُهما ومُدَبِّرُ أمرِهما والمتَصَرِّفُ فيهمَا كما يَشاء، لا يُعينُهُ ولا يُشرِكُهُ أحَدٌ في ذلك، إنْ كنتُمْ مِنْ أهلِ اليَقينِ والإيمَان.

قالَ فِرعَونُ لمَنْ حَولَهُ مِنْ أشْرافِ قَومِه: ألا تَعجَبونَ ممّا تَسمَعون، مِنِ ادِّعاءِ موسَى أنَّ هُناكَ إلهًا غَيري؟

قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: هوَ اللهُ الذي خلَقَكمْ وخلقَ آباءَكمُ الأوَّلين.

قالَ فِرعَونُ مُنَفِّرًا قَومَهُ منه: إنَّ هذا الذي يَدَّعي أنَّهُ مَرسَـــلٌ إليكمْ لا عَقلَ له، فهوَ يتكلَّمُ بكلامٍ لا نَعقِلُهُ ولا نَعرِفُ صحَّتَه.

قالَ موسَى عَليهِ السَّلامُ مُكمِلاً حديثَه: هوَ اللهُ رَبُّ المشرِقِ الذي تُشرِقُ منهُ الشَّمس، ورَبُّ المغرِبِ الذي تَغرُبُ فيهِ الشَّمس، واللهُ هوَ الذي أنشَأهُما هكذا، في نِظامٍ كَونيّ رائع، ودِقَّةٍ في الحسَابِ مُتنَاهيَة، ولا أحدَ يَستَطيعُ أنْ يتصَرَّفَ فيهما ويُغَيّرَ منْ هَيئاتِهما، ومَنِ ادَّعَى أنَّهُ إله، فليَجعَلِ المشرِقَ مَغرِبًا، والمغرِبَ مَشرِقًا. هذا لمن تفكَّرَ وعَقَلَ ما يُقالُ له.

لم يَعُدْ يتحمَّلُ فِرعَونُ هذا الحِوارَ المدعومَ بالحُجَّةِ والدَّليل، فلجَأ إلى التَّهديدِ بالقُوَّةِ وقال: إذا جعَلتَ لنَفسِكَ إلهًا غَيري فسَوفَ أحبِسُك. ويُحكَى مِنْ سَجنِ فِرعَونَ ما لا يُوصَف!

فقالَ موسَـــى عَليهِ السَّـــلامُ وهوَ ما يَزالُ يُريدُ أنْ يُقنِعَهُ بالحِوارِ والدَّليل: فما تَقولُ إذا أتَيتُكَ ببُرهانٍ قاطِعٍ ومُعجِزَةٍ باهِرَةٍ تَدُلُّ على صِدْقِ نبوَّتي؟

قالَ لهُ فِرعَون: فهاتِ حُجَّتَكَ إنْ كُنتَ صادِقًا في دَعوَاك...

××× ××× ×××

قالَ نبيُّ اللهِ موسَـــى لفِرعَونَ المتكبِّر: إنَّني مُرسَـــلٌ إليكمْ منْ قِبلِ ربِّ العالمِينَ كلِّهم، ســـيِّدِهمْ ومالكِ أمرِهم.

جديرٌ بي، وواجبٌ عليّ، ألاّ أُخبِرَ عنِ اللهِ إلاّ الحقَّ والصِّـــدْق، وقدْ جئتُكمْ منْ عِندهِ بمُعجِزةٍ ظَاهرةٍ لتَكونَ دَليلاً على صِـدقي، فدَعْ بني إسْـرائيلَ يأتوا معي إلى بيتِ المقدس. وكانَ فِرعَونُ قدِ استَعبدَهمْ واستَعملَهمْ في الأعمالِ الشاقَّة.

قالَ فِرعَون: يا موسَى، إنْ كنتَ جئتَ بمُعجِزةٍ حقّاً، فأظهِرْها لنا، إنْ كنتَ صادقاً في دَعواك.

فألقَى موسَى عَصاهُ في الأرض، فإذا هيَ حيَّةٌ عَظيمة، ظاهِرةٌ للعِيان.

وأخرجَ يدَهُ منْ جيبهِ (وهوَ فَتحَةُ القَميصِ مِنْ أعلاه)، فإذا هي بيضـاءُ ناصعةٌ تَشِـعُّ نوراً، لمَنْ يَنظرُ إليها.

قالَ السَّادةُ الكُبَراءُ منْ قَومِ فِرعَون: إنَّ موسَى ساحرٌ متمكِّنٌ منْ علمِ السِّحر.

يريدُ أنْ يُخرِجَكمْ – يا شَعبَ مِصرَ – مِنْ دياركِم. فبماذا تُشيرونَ في أمرهِ أيُّها السَّادة؟

قالَ لهُ قادتهُ ومُسـتَشـاروه: أَجِّرْهُ وأنْظِرْهُ وأخَاه، وابعَثْ إلى أقاليمِ مِصْـرَ رجالاً منَ الشُّـرْطةِ جامعين،

يَجمعوا السَّحَرةَ المهَرةَ ويأتوكَ بهم.

وجاءَ السَّحَرةُ واجتَمعوا عندَ فِرعَون، وقالوا له: أيَكونُ لنا عَطاءٌ إذا غَلَبْنا موسَى بسِحْرِنا؟

قالَ لهمْ فِرعَون: نعم، لكمُ الأجر، وستَكونونَ في منْزِلَةٍ رَفيعةٍ عِندي، ومنَ الرِّجالِ المقرَّبين إليّ.

واجتَمعوا في السَّـاحةِ المقرَّرةِ للمناظَرةِ والتحدّي، وقال السَّـحَرةُ لموسَـى عليهِ السـلام: إمَّا أنْ تُلقيَ عَصاك أوَّلاً، وإمَّا أنْ نُلقيَ حِبالَنا وعِصيَّنا قبلَك.

قالَ لهمْ موسـى: بلْ أَلقُوا أنتُمْ أوَّلاً. ويكونُ هذا أوقعَ في نُفوسِ المشـاهِدين، حيثُ يرَونَ عملَ السَّـحَرةِ أوَّلاً، ثمَّ التحدّيَ والنتيجةَ مِنْ قِبَلِ موسَـى عليهِ السَّـلام. فلمّا ألقَوا ما عندَهم، خيَّلوا عملَهمْ إلى الأعْينِ على خِلافِ الحقِيقة، وأفزَعوهمْ فَزعاً شَديداً، وقدْ أبدَوا سِحراً رَهيباً، كانتْ عِصيُّهمْ وحِبالُهمْ تَبدو وكأنَّها حيَّاتٌ وأفاعيُّ كبيرةٌ تتحرَّك!

وعندَ ذلكَ أوحَينا إلى موسَى: أنْ ألقِ عَصـاك. فألقَاها في الأرض، فإذا هي تَتحوَّلُ إلى ثُعبانٍ كَبيرٍ ضَخمٍ، تَبتلِعُ جميعَ ما أبدَى السَّحَرة، ممّا موَّهوا بهِ وأوهَموا المشاهِدينَ أنَّها حيّاتٌ وأفاعيّ، التي ما كانتْ سِوَى سِحر، خُيِّلَ للناسِ أنَّها حَقيقة!

فظَهرَ الحقّ، وتبيَّنَ أنَّ ما كانَ مِنْ شأنِ موسَى مُعجِزةٌ لا يَقْدِرُ على أنْ يأتيَ بها إنسانٌ مِنْ عندِه، وظهرَ بُطلانُ ما كانَ عليهِ السَّحَرة، وقالوا: لو كانَ ما يَصنعُ موسَى سِحراً لبقيتْ حِبالنا وعِصيُّنا، فلمّا فُقِدَتْ عَلِمنا أنَّ ذلكَ منْ أمرِ الله.

فغُلِبَ فِرعَونُ وقومُهُ في ذلكَ الحَشدِ الكبيرِ وهُزِموا، ورَجَعوا إلى المدينةِ أذِلَّةً مَقهورين.

أمّا السَّحَرةُ فقدْ بَهَرَهمُ الحقُّ، ولمْ يَتمالَكوا إلاّ أنْ خرُّوا للهِ ساجِدين، وكانوا منْ سُرعةِ ما سَجدوا كأنَّ أحداً دَفعَهمْ وألقاهُمْ للسُّجود!

وقالوا: آمنّا بربِّ العَالمين، مالكِهمْ وسيِّدِهمْ والمتصرِّفِ في أمرِهم.

ربِّ موسَى وهارون، وليسَ هوَ فرعونَ مُدَّعي الربوبيَّة، فما هو إلاّ عَبد.

فقالَ لهمْ فِرعَون، وقدْ عَلِمَ أنْ لا مَجالَ لبقاءِ مُلكهِ بالحِوارِ والعَقلِ والمحاجَجة: أآمنتُمْ بربِّ موسَى وهارونَ قبلَ أنْ أسمحَ لكمْ بذلك؟! إنَّ هذا الصنيعَ الذي قمتُمْ به، ما هوَ إلاّ مُؤامرةٌ وحِيلةٌ كانتْ عنْ سابقِ تَشاورٍ بَينكمْ وبينَ موسَى في المدينةِ قبلَ أنْ تأتوا إلى هذا الميدان، لتُخرِجوا منها القِبْط، وتبقَى لكمْ ولبَني إسرائيل، فسوفَ ترونَ عاقبةَ ما أفعلُ بكم.

سأقطَعُ منْ كلِّ واحدٍ منكمْ يدَهُ اليُمنَى ورِجْلَهُ اليُسرَى، ثمَّ أصلُبُكمْ على جُذوعِ النَّخلِ جميعاً، لتَموتوا جُوعاً وعَطشاً، عُقوبةً لإيمانِكم.

قالَ السَّحرةُ – وقدْ آمَنوا –: نحنُ عائدونَ إلى رَحمةِ اللهِ وثَوابِه، ومَصيرُكَ ومَصيرُنا إلى اللهِ يومَ القيامَة، فيَحكمُ بينَنا، ولا نُبالي بوعيدِك، وعذابُهُ أشدُّ مِنْ عذابِك.

وما تُنكِرُ منّا سِوَى إيمانِنا بآياتِ ربِّنا ومُعجِزاتهِ لما أتَتنا. اللهمَّ صبِّرْنا على التمسُّكِ بدينِكَ والثَّباتِ عليه، وتوفَّنا على الإسلام، مُتَّبعينَ نبيَّكَ موسَى عليهِ السَّلام.

(تفسير الآيات ١٠٤ – ١٢٦ من سورة الأعراف).

من قولهِ تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}، إلى قولهِ تعالى: {وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}.

وخرجَ بَنو إسْرائيلَ معَ نبيِّهمْ موسَى مِنْ مصر، لكنَّ فِرعَونَ وحُشودًا حاشِدةً منْ جُنودِهِ مَضَوا إليهمْ ليُطارِدُوهمْ ويَقتلوهم.

وهيَّأَ اللهُ لبَني إسْـــرائيلَ عبورَ البحرَ، وأدركَهمْ فِرعَونُ وجُنودُهُ وهمْ يَعبُرونه، فلاحَقوهُمْ ليَقتُلوهمْ ظُلماً وعُدوانًا، لا لشَـــيءٍ إلاّ لإيمانِهم، فنجَّى اللهُ المؤمِنينَ إلى الطرَفِ الآخَرِ منَ البَحر، ومنَّ علَيهم بالنَّصر، وأغرقَ فِرعَونَ ومَنْ معَهُ فيه.

ولمّا غَمرَ الماءُ فرعَونَ وعاينَ الموت، وعَلِمَ أنْ لا نَجاةَ له، قالَ مُعلِناً إيمانَه، حيثُ لا يُقْبَلُ الإيمانُ منْ أحَدٍ وهوَ في تلكَ الحال: آمَنتُ أنَّهُ لا إلهَ بحَقٍّ إلاّ الإلهُ الذي آمَنَتْ بهِ بَنو إسْرائيل، وأنا مِنْ جُملَةِ المسلِمينَ الذينَ أسلَموا نُفوسَهمْ إلى الله!

آلآنَ تُؤمِنُ يا فِرعَونُ حيثُ لا مَجالَ لكَ للفِرارِ والاختِيار، بعدَ أنْ كنتَ عاصـــيًا مُســـتَكبِرًا، ضالاًّ مُفسِدًا، طاغيةً ظالِمًا؟

قالَ اللهُ تعالَى في ذلك: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْـــرَائِيلَ الْبَـْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٩٠ – ٩١]

*** *** ***

موسى والخضرُ عليهما السلام:

(قصَّتُهما في الآيات ٦٠ – ٨٢ من سورةِ الكهف)

أعلَمَ اللهُ تعالَى نبيَّهُ موسَى عليهِ السلامُ أنَّ هناكَ مَن هوَ أعلَمُ منهُ مِن عِباده، فطلبَ من ربِّهِ لقاءَه، فأجابه. وكانَ معهُ فتاهُ يوشع.

وذلكَ العبدُ هوَ الخَضِـــرُ عليهِ السَّـــلام، آتَاهُ اللهُ النبوَّة، كما هوَ عندَ جُمهورِ العُلَماء، وعَلَّمَهُ عِلمًا خاصًّا، لا يُعلَمُ إلاّ مِنْ جِهَتِهِ سُبحانه. ولعَلَّهُ عِلمُ الإخبارِ بالغُيوب.

فالتقاهُ موسَى عليهِ السَّلام، وقالَ لهُ بأدَبِ الأنبياءِ والعُلَماء: هَلْ تَسمَحُ لي أنْ أُرافِقَكَ على أنْ تُعَلِّمَني ممّا وهَبَكَ اللهُ مِنَ العِلمِ الرَّاشِد، الذي تُصيبُ بهِ خَيرًا؟

قالَ لهُ الخَضِرُ عَليهِ السَّلام: إنَّكَ لا تَقدِرُ على صُحبَتي، فستَرَى منّي ما تَكرَهُ في شَريعَتِك، وأنا على عِلمٍ لمْ يُعَلِّمْكَ اللهُ إيّاه.

وكيفَ تَصبِرُ على شَيءٍ لا يُحيطُ بهِ عِلمُك، وتَسكتُ على تَركِ الإنكارِ ممّا يُخالِفُ الشَّرع؟

قالَ لهُ موسَى عَليهِ السَّلام: ستَجِدُني صابِرًا معَكَ إنْ شاءَ الله، غَيرَ مُعتَرِضٍ عَليك، مُلتَزِمًا بما تَقول.

قالَ الخَضِر: فإذا تَبِعتَني فلا تَعتَرِضْ على أفعَالي، ولا تُناقِشني في شَيءٍ حتَّى أُفَسِّرَهُ لك.

فانطَلَقَ موسَى والخَضِرُ عَليهِما السَّلامُ يَمشيانِ على ساحِلِ البَحر، فمرَّتْ سَفينَة، فرَكِباها، فثقبَها الخَضِرُ، بأنْ قلعَ لوحًا منها، فقالَ لهُ موسَى: أخرَقْتَ السَّفينَةَ لتُغرِقَ مَنْ فيها؟ لقدْ فعَلتَ فِعلاً مُنكَرًا.

قالَ لهُ الخَضِرُ مُذَكِّرًا: ألمْ أقُلْ لكَ إنَكَ لا تَستَطيعُ الصَّبرَ معي؟

قالَ موسَى عليهِ السَّلام: لا تؤاخِذني بنِسياني ما اتَّفَقنا عَليهِ منْ عدَمِ الاعتِراضِ عَليك، ولا تُكَلِّفْني مشَقَّة، ولا تُشَدِّدْ عَليّ، وعامِلْني باليُسر.

فقَبِلَ الخَضِرُ عُذْرَه، فنزَلا مِنَ السَّفينَة، وانطَلَقا يَمشِيانِ على السَّاحِل، حتَّى إذا لَقِيا غُلامًا، كانَ يَلعَبُ معَ أمثالِه، لم يَكنْ فيهمْ أحسَنُ ولا أنظَفُ منه، فقتَلَهُ الخَضِر، فقالَ لهُ موسَى عليهِ السَّلام: أقَتَلْتَ نَفسًا صَغيرَةً طاهِرَةً مِنَ الذُّنوبِ لم تَقتُلْ نَفسًا يُوجِبُ قَتلَها؟ لقدْ قُمتَ بعَمَلٍ تُنكِرُهُ العُقول، وتَنفِرُ عَنهُ الطَّبائع.

قالَ لهُ الخَضِرُ مُذَكِّرًا: ألمْ أقُلْ لكَ مِنْ قَبلُ إنَّكَ لا تَصبِرُ على الاعتِراضِ عَمَّا أفعَلُه؟

قالَ موسَى عَليهِ السِّلام: إذا سألتُكَ عنْ شَيءٍ بعدَ هذا ممّا تَفعَلُهُ لِمَ فَعَلتَه، فلا تُصاحِبْني، فقدْ قَبِلتَ عُذري مِنْ قَبل، ولا عُذرَ لي بعدَه.

وانطَلَقا يَمشِيان، حتَّى إذا وصَلا إلى قَريَة، طَلَبا الضِّيافَةَ مِنْ أهلِها، فلمْ يُطْعِموهُما، وكانوا لِئامًا، بُخَلاء. فوجَدا فيها جِدارًا مَائلاً يكادُ أنْ يَسقُط، فرَدَّهُ الخَضِرُ فأقامَهُ بيَدِه.

فقالَ لهُ موسَى: قَومٌ أتَيناهُمْ لِيُضَيِّفونا فلمْ يُطعِمونا، لو أرَدْتَ لاتَّخَذْتَ على عمَلِكَ هذا أجرًا منهم.

قالَ لهُ الخَضِرُ عَليهِ السَّلام: هذا وَقتُ فِراقِ ما بيني وبَينِك، فإنَّكَ لم تَلتَزِمْ بشَرطِ الصُّحبَةِ مَعي، وسأُخبِرُكَ بمآلِ وعاقِبَةِ ما لم تَصبِرْ عَليهِ ممّا حدَثَ معَنا، لكَونِهِ مُنكَرًا عندَكَ مِنْ حيثُ الظَّاهِر.

قالَ في "إرشـاد السّـارِي": كانتْ أحكامُ موسَـى كغَيرِهِ منَ الأنبياءِ مَبنيَّةً على الظَّواهِر، ولذا أنكرَ خَرْقَ السَّـفينَة، وقَتْلَ الغُلام، إذِ التصَـرُّفُ في أموالِ النَّاسِ وأرواحِهِمْ بغَيرِ حَقٍّ حَرامٌ في الشَّـرعِ الذي شَرَعَهُ لأنبيائهِ عَليهِمُ السَّـلام، إذْ لم يُكَلِّفْنا بالكَشـفِ عنِ البِواطِن، لِما في ذلكَ مِنَ الحرَج. وأمَّا وقوعُ ذلكَ منَ الخَضِر، فالظَّاهِرُ أنَّهُ شُرِعَ لهُ أنْ يَعمَلَ بما كُشِفَ لهُ مِنْ بَواطنِ الأسرَار، واطَّلعَ عليهِ منْ حَقائقِ الأشياء...

أمَّا السَّـفينَةُ التي خرَقتُها، فكانتْ لمِسـاكينَ يَعمَلونَ ويَكتَسِـبونَ في البَحر، فأرَدتُ أنْ أجعلَها مَعِيبَة، وكانَ أمامَهمْ مَلِكٌ ظالِمٌ يأخذُ كُلَّ سَفينَةٍ جَيِّدَةٍ غَصْبًا.

وأمَّا الغُلامُ الذي قَتَلتُه، فلو أنَّهُ كَبِرَ لكانَ كافِرًا، وكانَ أبَواهُ مُؤمِنَينِ صـــالِحَين، وعَلِمنا أنَّهُ لو بلغَ لدَعاهُما إلى الكُفر، ولاسـتَجابا لهُ وتابعاهُ في دِينِه، لحُبِّهما الشَّـديدِ له، وحُبُّ الشَّـيءِ يُعْمِي ويُصِمّ. والطُّغيان: الزِّيادَةُ في الضَّلال.

فأرَدتُ بقَتلي لهُ أنْ يُبْدِلَ اللهُ والِدَيهِ مَنْ هوَ خَيرٌ منهُ دِينًا وخُلُقًا، ويَكونَ أبَرَّ منهُ بهما.

وأمَّا الجِدارُ الذي أصلَحتُه، فكانَ لغُلامَينِ يَتيمَينِ صَغيرَينِ في المِدينَة – وهيَ القَريَةُ المذكورَة – وتَحتَهُ مالٌ مَدفونٌ مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ يَخصُّهما، وكانَ أبوهُما صالِحًا تَقيًّا، ولو تُرِكَ الجِدارُ يَنقَضُّ لظهرَ الكَنزُ مِنْ تحتِه، ولَما اسـتطاعَ الصَّـغيرانِ أنْ يَدفعا عَنهُ مَكروهًا، فأرادَ رَبُّكَ أنْ يَكبَرا ويُدرِكا قوَّتَهما، ليَستَخرِجا حينَذاكَ كَنزَهما وهُما قادِرانِ على حِمايَتِه.

وهذا الذي فعَلتُهُ كانَ رَحمَةً منَ اللهِ بأصـحابِ السَّـفينَة، ووالِدَي الغُلام، وولدَي الرَّجُلِ الصَّالِح. وما فعَلتُ ذلكَ باختياري ورأيي، لكنِّي أُمِرتُ به، وفعَلتُهُ بأمرِ الله – وهذا دَليلٌ على نبوَّتِه –. وما فَعَلْتُهُ وأوقَفتُكَ على بيانِهِ ونَتيجَتِه، هوَ ما لم تَقدِرْ على الصَّبرِ عَليه.

وليسَ هُناكَ أيُّ دَليلٍ شَـرعيٍّ ثابتٍ على أنَّ الخَضِـرَ مازالَ حَيًّا، وما يَرِدُ في مثلِ هذا أقاويلُ وحِكاياتٌ لا تَنهَضُ حُجَّةً على ذلك.

داود عليه السلام

هلْ عرَفتَ خبرَ الخُصومِ عندَما عَلَوا سُورَ المِحرابِ الذي كانَ فيهِ داود؟

{إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ} (ص: ٢٢)

أي: دخَلوا عَليهِ فَجأة، فخافَ منهم، فقالوا له: لا تخَف، نحنُ خصمَانِ جارَ بَعضُنا على بَعض، فاقْضِ بينَنا بالحقِّ والعَدل، ولا تتَجاوَزْه، وأرشِدنا إلى طَريقِ العَدلِ والصَّواب.

قالَ أحَدُ المتخاصِمَين: إنَّ أخي هذا هوَ مُخاصِمي، لهُ تِسْعٌ وتِسعونَ نَعجَةً، وأنا لِيَ نَعجَةٌ واحِدَة، فقالَ لي: اجعَلْ نَعجتَكَ هذهِ مِنْ نَصيبي، وشدَّدَ عليَّ في القَول، وغَلبَني في الخُصومَة.

قالَ لهُ داودُ عَليهِ السَّلام: لقدْ جارَ عَليكَ عندَما طلبَ مِنكَ أنْ تَضُمَّ نَعجتَكَ إلى نِعاجِه، وإنَّ كثيرًا مِنَ الشُّرَكاءِ الذينَ تَختَلِطُ أموالُهُمْ يَظلِمُ بَعضُهمْ بَعضًا، وخاصَّةً الأقوياءَ منهمْ مِنْ أهلِ الدُّنيا، إلاّ المؤمِنينَ الصَّالِحين، فإنَّهمْ يَبتَعِدونَ عنِ الظُّلمِ والعُدوان، وأمثالُ هؤلاءِ قَليلون.

وعَلِمَ داودُ أنَّنا اختبَرناه، فقدِ اختفَى الخَصمانِ مِنْ عندِه، ولعلَّهما كانا مَلَكَين، فتَذكَّرَ داودُ مَجلِسَ الحُكم، وأنَّهُ لم يُوَجِّهْ إلى الطَّرَفِ الآخَرِ سُؤالاً ولم يَستَفسِرْ منهُ عنْ سببِ ضَمِّ نَعجَةِ خَصمِهِ إلى نِعاجِه، وكانَ عَليهِ أنْ يتَثبَّتَ ويُكمِلَ أُصولَ القَضاء، فأسرَعَ إلى السُّجودِ لرَبِّهِ مُستَغفِرًا، ورَجعَ وتَاب.

(في الآيات ٢٢ – ٢٤ من سورة ص).

سليمان عليه السلام

طلبَ سُليمانُ عليه السلامُ من ربِّهِ أن يعطيَهُ مُلكًا لا يَكونُ مِثلُهُ لأحَدٍ مِنَ البشَرِ مِنْ بَعده. فأجابَهُ الله تعالى. قال:

{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ} (ص: ٣٦)

فسَخَّرْنا لهُ الرِّيحَ وذَلَّلناها لطاعَتِه، فكانتْ تَسيرُ بأمرِهِ سَهلَةً لَيِّنَةً حيثُ أراد.

وتفسيرُ ما بقيَ من الآيات:

كما ذَلَّلنا لهُ الشَّياطينَ تُنَفِّذُ أوامِرَه، مِنْ بَنَّائينَ يَعمَلونَ لهُ ما شاءَ مِنَ المحاريبِ والتَّماثيل، وغَوَّاصِينَ يَستَخرِجونَ لهُ اللَّآلِئَ مِنَ البَحر، وغَيرَ ذلكَ ممَّا يَشُقُّ على البشَرِ عمَلُه.

وشَياطينَ آخَرينَ مَشدُودينَ في الأغلالِ والقُيود، ممَّنْ تمرَّدُوا وامتنَعُوا مِنَ العمَل، أو أسَاؤوا فيهِ ولم يُتقِنُوه.

هذا عَطاؤنا لكَ ممَّا سَألتَهُ يا سُلَيمان، فأعطِ منهُ مَنْ شِئت، وامنَعْهُ مَنْ شِئت، لا حرَجَ عَليكَ في ذلكَ ولا حِساب.

(خبرهُ في الآيات ٣٦ – ٣٩ من سورة ص)

{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} (النمل : ١٧)

أي: جُمِعَ لسُلَيمانَ عَساكِرُهُ مِنَ الأماكنِ المختَلِفَةِ لمسيرِه، مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطَّير، فهمْ مُجتَمِعونَ مَصطَفُّونَ عندَه، لا يَتقَدَّمُ أحَدٌ على مَرتَبةِ الآخَرِ ولا في المسيرِ عَليه.

{حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}: حتَّى إذا مرَّ معَ جَيشِهِ بوادِي النَّمل، قالَتْ نَمَلَةٌ مُخاطِبَةً نَملاً منْ جِنسِها بلُغَتِها: ادخُلوا مَساكِنَكمْ حتَّى لا يَحطِمَكمْ سُلَيمانُ وجُنودُهُ وخيولُهُ دونَ أنْ يَشعُروا بذلك.

فسَمِعَ سُلَيمانُ ما قالَتِ النَّملَة، وتبَسَّمَ سُرورًا بما فَهَّمَهُ اللهُ مِنْ كلامِها، وقالَ في عُبوديَّةٍ وخُشوع: اللهمَّ ألهِمني أنْ أشكُرَ نعمتَكَ التي منَنْتَ بها عَليّ، مِنَ النبوَّةِ والمُلْكِ وتعَلُّمِ مَنطِقِ الحيَوان، ونِعمتَكَ على والدَيَّ بالإيمانِ والإسْلام، ووَفِّقني لأقومَ بالأعمالِ الحسَنَةِ التي تُحِبُّها وتَرضَى بها، وأدخِلني في جُملَةِ الصَّالِحينَ مِنْ عِبادِكَ إذا توفَّيتَني، واحشُرني في زُمرَتِهم.

وبحثَ سُليمانُ عنِ الطَّير، وطلبَ ما فُقِدَ منها، فلمْ يرَ مِنْ بينِها الهُدْهُد، فقال: ما لي لا أرَى الهُدْهُد، أمْ أنَّهُ غابَ مِنْ غَيرِ إذني؟

والهُدْهُدُ طائرٌ ذَكيٌّ حَذِر، سَريعُ الملاحظَة، قَويُّ الذَّاكِرَة، واسِعُ الحِيلَة، ويُكْنَى بأبي الأخبار. ولا يَجوزُ قَتلُه، كما جاءَ في حَديثٍ صَحيح.

قال: لأُؤَدِّبَنَّهُ بما يَستَحِقُّ لعَدَمِ طاعَتِه، كنَتْفِ ريشِه. أو لأَذبَحَنَّه، أو ليَأتيَنِّي بعُذرٍ واضِحٍ مَقبُول.

فأقامَ الهُدْهُدُ زَمانًا يَسيرًا، ثمَّ جاءَ إلى نبيِّ اللهِ سُلَيمانَ وقالَ له: لقدِ اطَّلَعتُ على ما لمْ تطَّلِعْ عَليه، وجِئتُ لكَ مِنْ مَملكَةِ سبَأَ بخبَرٍ صِدْقٍ وحَقّ.

لقدْ وجَدْتُ امرأةً – هيَ بَلْقِيسُ – تَحكُمْ قَومَها، وقدْ أُوتيَتْ كُلَّ ما يَحتاجُ إليهِ الملوك، ولها سَريرٌ كبيرٌ جِدًا تَجلِسُ عَليه، مُزَخرَفٌ بأنواعِ الجوَاهِرِ واللَّآلِئ.

وجَدتُها وقَومَها يَسجُدونَ للشَّمسِ في عِبادَتِهِمْ مِنْ دُونِ عِبادَةِ اللهِ وحدَه، وقدْ حسَّنَ الشَّيطانُ الأعمالَ الشِّركيَّةَ في قُلوبِهم، فمنعَهمْ بذلكَ مِنْ طَريقِ الحَقِّ والصَّواب، فهمْ لا يَهتَدونَ إليها.

منعَهمْ مِنْ ذلكَ لئلاّ يَسجُدوا للهِ تعالَى، الإلهِ الحَقِّ العالِمِ بالخَفِيَّات، الذي يُظهِرُ المخبوءَ المكنونَ ممّا في السَّماءِ والأرْض، وهوَ الذي يَعلَمُ ما تُسِرُّونَ ممَّا في قُلوبَكم، وما تُعلِنونَهُ مِنْ خِلالِ أقوالِكمْ وأعمالِكم، ويُجازي كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

هوَ اللهُ الذي لا مَعبودَ بحَقٍّ سِوَاه، فلا يُعبَدُ إلاّ هو، رَبُّ العَرشِ العَظيم، أعظَمِ المخلوقات.

قالَ سُليمانُ عَليهِ السَّلامُ للهُدْهُد: سنتَحرَّى ونتثَبَّتُ ممّا ذَكرتَه، أصدَقْتَ فيما أخبَرتَ به، أمْ أنَّكَ كاذِبٌ فيه؟

وهذا اختِبارٌ لكَ فيما زَعَمت، اذهَبْ برِسالَتي هذهِ إلى المَلِكَةِ وقَومِها وألْقِها إليهم، ثمَّ تنَحَّ عَنهُم، وكُنْ قَريبًا منهم، وانظُرْ بماذا يُجيبون؟

ووَقعَتِ الرِّسَالَةُ بينَ يَدَيها، فتعَجَّبَتْ ممَّا فيها، وقالَتْ لمنْ حَولَها مِنْ أصحابِ الرأي ووُجهاءِ القَوم: أيُّها السَّادَةُ والأُمَراء، لقدْ أُلقِيَتْ إليَّ رِسالَةٌ مَختومَة، عاليَةٌ وقَديرَةٌ في شَكلِها ومَضمونِها! إنَّها مِنَ النبيِّ المَلِكِ سُلَيمانَ بنِ داود، وإنَّ فيها: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} أي: أبدأُ بسمِ اللهِ ذي الرحمَةِ الواسِعَة، ورحمتُهُ بالمؤمنينَ خاصَّة.

وفيها: لا تَمتَنِعوا ولا تَتكَبَّروا عَليَّ كما يَفعَلُ جَبابِرَةُ الملوك، وَأْتُوني مُسلِمينَ موَحِّدين.

ثمَّ خاطَبَتْهُمْ بقَولِها: أيُّها السَّادَةُ والوجَهاء، أشيروا عَليَّ بما عِندَكمْ مِنَ الرأي والتَّدبيرِ فيما عُرِضَ عَليَّ مِنْ هذا الأمر، فما كنتُ قاضِيَةً وفاصِلَةً في شَأنٍ حتَّى تَحضرُوني وتُشيروا عَليّ.

قالوا لها: نحنُ أصحابُ قُوَّةٍ في الأجساد، وكَثرَةٍ في الأعدَاد، وأصحابُ نَجدَةٍ وشَجاعَةٍ وبَلاءٍ في القِتال، ونحنُ جاهِزونَ للحَربِ إذا أرَدتِ أيَّتُها المَلِكَة، والكلِمَةُ الأخيرَةُ لكِ، فَأْمُرينا بما تَرَيْنَ مِنَ الصُّلحِ أو الحَرب، فنحنُ مُطيعونَ لأمرِكِ.

قالتِ المَلِكَة: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا بلَدًا عُنوَةً أفسَدوهُ وخرَّبوه، وقصَدوا مَنْ فيهِ مِنَ الحُكَّامِ والأشرَافِ والجُنودِ فأهانوهُمْ غايَةِ الهَوان، إمَّا بالقَتلِ أو بالأسر، ليَستَقيمَ لهمُ الأمر. وكما قالَتِ المَلِكَة، فإنَّهمْ يَفعَلونَ ذلك.

فلجأتْ إلى المهادَنَةِ والمصانعَة، وقالَتْ لقَومِها: سأبعَثُ إليهمْ بهَديَّةٍ كبيرَةٍ تُناسِبُ الملوكَ الكِبار، فلعَلَّهُ يَقبَلُها ويَكفُّ عنَّا، وسأرَى ما الذي يَكونُ جوابُهُ عنْ طَريقِ رسُلي.

فلمَّا جاءَ رَسولُها سُلَيمان، وسلَّمَ الهَديَّةَ إليه، قالَ له: أتُصانِعونَني بالمالِ لأترُكَكمْ وشِرَكَكم؟ فإنَّ الذي وهَبَني اللهُ مِنَ النبوَّة، وأنعَمَ عليَّ بالمُلكِ والمالِ والجُنود، هوَ أعظَمُ وأفضَلُ ممّا أنتُمْ فيه، بلْ إنَّ هِمَّتَكمْ في الدُّنيا والفرَحِ بزينَتِها والتفاخُرِ بها، والانقِيادِ للهَدايا والتُّحَفِ فيها، ولستُ على ما تَظنُّونَ مِنْ ذلك، ولا أقبَلُ منكمْ إلاّ الإسْلامَ أو السَّيف.

ارجِعْ إليهمْ بالهَديَّةِ أيُّها الرَّسُول، فسَوفَ نأتيهمْ بجَيشٍ لا طاقَةَ لهمْ بمُقاوَمَتِه، وسنُخرِجُهمْ مِنْ سبأَ مُهانينَ بعدَ أنْ كانوا في عِزٍّ وتَمكين، أسرَى ومَستَعبَدين، إذا لم يأتُوني مُسلِمين.

فرجعَ الرَّسولُ إلى المَلِكَةِ بما قالَ سُلَيمانُ عليهِ السَّلام، فعَرَفَتْ أنَّهُ لا طاقةَ لها ولقَومِها به، فتوَجَّهتْ إليهِ في أتبَاعِها ووُجهاءِ قَومِها، وبعثَتْ إليهِ أنَّها قادِمَةٌ لتَنظُرَ في أمرِه، وما يَدعو إليهِ مِنْ دِين.

وقالَ سُليمانُ عَليهِ السَّلامُ لمَنْ تحتَ يَدِه: مَنْ يأتيني بعَرشِ بَلقِيسَ قبلَ أنْ يَصِلوا إليَّ مؤمِنينَ طائعِين؟ وهذا لاختِبارِ عَقلِها، وإراءَتِها بعضَ الخَوارِقِ الدالَّةِ على صِدْقِ نبوَّتِه.

قالَ مارِدٌ قَويٌّ مِنَ الجِنّ: أنا آتِيكَ بعَرشِها قبلَ أنْ تَقومَ مِنْ مَجلِسِك، ولي قوَّةٌ على حَمْلِ عَرشِها الكبير، ولنْ أُبَدِّلَ منهُ شَيئًا، ولا آخُذُ مِنْ جَواهِرِه.

قالَ سُلَيمانُ عَليهِ السَّلام: أُريدُ أعجَلَ مِنْ ذلك. فقالَ واحِدٌ مِنْ بَني إسْرائيلَ لهُ عِلمٌ مِنَ الكِتاب: أنا آتيكَ بسَريرِها قَبلَ أنْ يَنضَمَّ جَفْنُ عَينِكَ بعدَ فَتحِه!

فلمْ يَشعُرْ سُلَيمانُ إلاّ وسَريرُ مُلْكِها يُحمَلُ بينَ يَدَيه! فلمَّا رآهُ ماثِلاً عندَهُ على حالِه، قالَ في خَضوعٍ وخُشوع: إحضارُ السَّريرِ في هذهِ المُدَّةِ المتناهيَةِ في القِصَر، مِنْ فَضلِ اللهِ ونِعمَتِهِ عَليّ، وليَختَبِرَني: أأشكُرُ فضلَهُ على ذلكَ وأعتَرِفُ بأنَّهُ مِنْ مِنَّتِهِ وحُسنِ تَدبيرِهِ ولُطفِه، أمْ لا أشكرُهُ عَليه؟

ومَنْ شكَرَ اللهَ على نِعَمِهِ فإنَّما يَنفَعُ نفسَهُ بذلك، لأنَّهُ يُعَرِّفُها الحَقّ، ويَستَجلِبُ لها المزيدَ مِنَ الخَيرِ والنَّفع، ومَنْ لم يَشكُرْ، فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عنْ شُكرِه، وعنْ عبادَةِ النَّاسِ وشُكرِهِمْ أجمَعين. وهوَ سُبحانَهُ كَريم، فيُنعِمُ على مَنْ لم يَشكُرْهُ أيضًا، ولا يُعَجِّلُ في عُقوبَتِهم.

قالَ سُلَيمانُ للصُّنَّاعَةِ الماهِرينَ مِنْ حَولِه: غَيِّروا بعضَ صِفاتِ سَريرِ المَلِكَةِ لنَختَبِرها بذلك، ونَنظُرَ هلْ تَعرِفُ أنَّهُ عَرشُها، أمْ أنَّها لا تَهتَدي إلى ذلك؟

فلمَّا وصلَتْ عُرِضَ عَليها عَرشُها، وقدْ غُيِّرَ ما فيه، وقيلَ لها: أمِثْلَ هذا السَّريرِ كانَ سَريرُكِ الذي كُنتِ تَجلِسينَ عَليهِ في مَملكَتِك؟ قالَتْ وقدْ نظَرَتْ فيه، وكانتْ صاحِبَةَ عَقلٍ وذَكاء: إنَّهُ يُشبِهُهُ ويُقارِبُه، حتَّى كأنَّهُ هو! قالَ سُليمانُ عليهِ السَّلام، أو قالَ هوَ وقَومُه: وأُوتِينا نحنُ العِلمَ بِاللهِ وقُدرَتِهِ مِنْ قَبلِ هذهِ المرأة، أو قَبلَ عِلمِها، وكنَّا مُؤمِنينَ قَبلَها.

قالَ اللهُ تَعالَى ما مَعناه: ومنَعَها مِنَ الإيمَانِ ما كانتْ تَعبدُ مِنْ دونِ الله، لأنَّها كانتْ مِنْ قَومٍ راسِخينَ في الكُفر.

ثمَّ قيلَ لها: ادخُلي القَصر، وكانَ مِنْ زُجاج، يَجري مِنْ تَحتِهِ الماء، فلمَّا رأتْهُ كذلك، ظنَّتْهُ ماءً كثيرًا يَجرِي، فكشَفَتْ عنْ ساقَيها لئلاّ يَبتَلَّ ثَوبُها بالماء، فقالَ لها سُلَيمانُ عَليهِ السَّلامُ وقدْ لمحَ استِغرابَها ودَهشتَها: إنَّهُ قَصْرٌ مُمَلَّسٌ مُستَوٍ مِنْ زُجاج، وليسَ ماء.

فعرَفتْ أنَّ مُلكَ سُلَيمانَ أعَزُّ مِنْ مُلكِها، وسُلطانَهُ أعظَمُ مِنْ سُلطانِها. ولما عايَنَتْ هذا الأمرَ العَظيم، وجمعَتْ إليهِ المعجِزاتِ السَّابِقَة، قالَتْ في تبَتُّلٍ وخُشوع: اللهُمَّ إنِّي ظلَمتُ نَفسِي بعِبادَةِ غَيرِك، وتابَعتُ دِينَ سُلَيمان، وأخلَصْتُ معَهُ العُبوديَّةَ للهِ رَبِّ العالَمين، وحدَهُ لا شَريكَ له.

(تفسير الآيات ١٧ – ٤٤ من سورة النمل)

زكريا عليه السلام

عندَما رَأى زَكريّا عليهِ السَّـــلامُ في مريمَ الصـــلاحَ والولاية، والتعبُّدَ والقُنوت، والإخلاصَ في الخدمةِ، تحرَّكَ في قَلبِهِ حبُّ الذرّيةِ الصَّـــالحَة، لتَكونَ امتداداً لهُ ولعملِهِ في مركزِ العبادةِ ببيتِ المقدِس وكانَ شـــيخاً كبيراً قدْ وهنَ منهُ العَظم، وزوجُهُ كبيرةٌ عاقِرٌ لا تُنجِب، ومعَ ذلكَ لم يَيأس، فاللهُ قادرٌ على كلِّ شَيء. فدعا في استِكانةٍ وخُشوع، وقال بصوتٍ ضَعيف: اللهمَّ إني أسألُكَ أنْ تَرزُقَني ولداً صالحاً تَقَرُّ بهِ عَيني، وأنتَ تَسمَعُ مُناجاتي بينَ يديك، وتَضَرُّعي إليك، ورَغبتِي في الذريَّةِ الطيّبة.

قالَ الله تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران:٣٨]

وقد استجابَ اللهُ دعاءَه، ووهبَهُ يحيى..

عيسى عليه السلام

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً} (مريم : ١٦)

اذكُرْ في القُرآنِ أيُّها الرَّسُولُ قِصَّةَ مَريَمَ بنتِ عِمران، عندَما اعتزلَتْ أهلَها، وذَهبَتْ إلى شَرقِ دارِها، أو شَرقِ بيتِ المقدِس.

فتَوارَتْ عَنهمْ وجعَلَتْ بينَها وبينَهمْ سِترًا وحاجِزًا، فبعَثنا إليها جِبريل، فتصَوَّرَ لها على صُورَةِ إنسانٍ كاملِ الخِلقَة.

فلمَّا رأَتْهُ أمامَها وهيَ في مَكانٍ مَعزول، خافَتْ منهُ على نَفسِها وقالت: إنِّي ألتَجِئُ إلى اللهِ وأحتَمي بهِ مِنْ أنْ تَمَسَّني بسُوء، إنْ كُنتَ مؤمِنًا تَخافُ اللهَ وتَخشَى عِقابَه.

قالَ لها جِبريلُ عَليهِ السَّلام: لم أرِدْ ما يَسوؤكِ أيَّتُها الصِّدِّيقَة، ما أنا إلاّ رَسُولٌ مِنْ عندِ رَبِّكِ، بعَثَني إليكِ لأهَبَ لكِ بأمرِهِ ولَدًا طاهِرًا، نقيًّا منَ الذُّنوب.

قالتْ لهُ مَريَمُ عليها السَّلام: وكيفَ يُولَدُ لي ولَدٌ ولم يَقرَنْ بي زَوج، ولم أكنْ فاجِرَة؟

تَعني أنَّ الولَدَ يَكونُ منْ نِكاحٍ أو سِفاح، وهيَ ليسَتْ كذلك.

قالَ جِبريل: قالَ رَبُّكِ: كذلكَ هوَ سَهلٌ عَليَّ يَسير، وإنْ لم يَكنْ لكِ زَوج، ولم توجَدْ منكِ فاحِشَة، ولنَجعلَ هذا الغُلامَ عَلامةً للنّاس، ودَلالَةً على كمالِ قُدرَتِنا، ونِعمَةً عَظيمَةً مِنْ عندِنا، وليَكونَ نبيًّا مِنَ الأنبياء، ويَهتَدي النَّاسُ بهَدْيه. وكانَ هذا أمرًا مُقَدَّرًا ومُسَطَّرًا في اللَّوحِ المحفوظ، فلا بُدَّ منه.

فحمَلَتْ بعِيسَى، بعدَ أنْ نفَخَ اللهُ فيها بواسِطَةِ جِبريلَ عَليهِ السَّلام، فتنَحَّتْ بحَملِها مَكانًا بَعيدًا مِنْ أهلِها.

فألجَأها وَجَعُ الولادَةِ إلى جِذعِ نَخلَةٍ كانتْ هُناك، قالَتْ وهيَ تَعلَمُ أنَّها ستُبتَلى بمَولودِها ولا يُصَدِّقُ النَّاسُ كلامَها: يا لَيتَني مِتُّ قَبلَ هذا الوَقت، وكنتُ شَيئًا حَقيرًا لا يُذكَرُ ولا يُعتَدُّ به، مَتروكًا لا يُعرَفُ ولا يَخطُرُ ببالِ أحَد.

فنادَاها جَبريلُ منْ تَحتِها: لا تَحزَني، قدْ جعلَ رَبُّكِ أسفَلَ منكِ جَدولًا يَسري فيهِ الماء.

وحَرِّكي نَحوَكِ جِذْعَ النَّخلَةِ تُسْقِطْ عَليكِ رُطَبًا مَجنيًّا ناضِجًا جاهِزًا للأكل.

فكُلِي يا مَريَمُ مِنَ الرُّطَبِ واشرَبي مِنَ النَّهر، وطِيبي نَفسًا ولا تَحزَني، فإذا رَأيتِ أحَدًا مِنَ النَّاسِ وسألَكِ عنْ شَيء، فقولي له – لعَلَّهُ إشارَةً –: إنِّي نذَرتُ للهِ أنْ أصْمُت، فلنْ أُكَلِّمَ أحَدًا مِنَ النَّاسِ هذا اليَوم. رُبَّما كراهةَ مُجادَلَةِ السُّفَهاء، واكتِفاءً بكلامِ عيسَى عَليهِ السَّلام.

فأتَتْ مَريَمُ بوَليدِها عيسَى حامِلَةً إيّاه، فلَمّا دخَلَتْ على أهلِها – وكانوا صالِحِينَ – استَنكَروا منها ذلك، وقالوا: يا مَريمُ لقدِ اقتَرَفتِ أمرًا مُنكَرًا عَظيمًا.

يا شَبيهَةَ هارونَ في العِبادَة – وكانَ رَجُلاً مَشهورًا بالزُّهدِ والعِبادَةِ في وَقتِهم – ما كانَ أبوكِ عِمرانُ رَجُلَ سُوءٍ يَعمَلُ الفَواحِش، وما كانتْ أُمُّكِ زانيَة، فكيفَ حصلَ لكِ هذا؟!

فأشارَتْ إلى طِفلِها الرَّضيعِ عيسَى: أنْ كَلِّمُوه. قالوا مُنكِرينَ جوابَها: كيفَ نُكَلِّمُ صَبيًّا في المهد؟! وكيفَ يَتكلَّمُ هو؟!

فتَكلَّمَ عيسَى عَليهِ السَّلامُ وقال: إنِّي عَبدُ اللهِ – وسُبحانَ مَنْ جعَلَ هذا أوَّلَ كلامِهِ – قضَى رَبِّي أنْ يؤتِيَني الإنجيل، ويَجعَلَني نَبيًّا.

وجعَلني نَفّاعًا، مُعَلِّمًا للخَير، أينَما كُنت، وأمرَني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ مُدَّةَ حَياتي.

وأوصاني أنْ أكونَ مُحسِنًا إلى والِدَتي، ولم يَجعَلني مُستَكبِرًا، عاصِيًا.

والسَّلامُ والأمانُ عَليَّ يَومَ وُلِدتُ: فلمْ يَنَلني الشَّيطانُ بسُوء، ويَومَ أموتُ: أَسلَمُ مِنْ عَذابِ القَبر، ويَومَ أُبْعَثُ حَيًّا: أَسلَمُ مِنْ هَولِ القيامَةِ وعَذابِ جَهنَّم.

ذلكَ هوَ عَبدُ اللهِ ورَسُولُهُ عيسَى بنُ مَريَم، قَولَ الحَقِّ والصِّدْقِ الذي يَشُكُّ فيهِ النَّاسُ ويَختَلِفون، فمِنْ قائلٍ يَقول: إنَّهُ كاذِبٌ وساحِر، وآخَرَ يَقول: إنَّهُ إلهٌ أو ابنُ إله، وما هوَ إلاّ نَبيٌّ كسائرِ الأنبياء، عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام.

ما صَحَّ وما استَقامَ أنْ يَجعَلَ اللهُ لنَفسِهِ ولَدًا، وليسَ هذا مِنْ صِفَتِه، سُبحانَه، تقَدَّسَ وتنَزَّهَ عمَّا افتَراهُ النَّصارَى عَليه، إنَّما شَأنُهُ إذا أرادَ إحداثَ أمرٍ أنْ يَقولَ لهُ كُنْ، فيَكونُ كما يُريد.

ومِنْ تَمامِ قَولِ عيسَى عَليهِ السَّلامُ في المهد: إنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكم، فكُلُّنا مَخلوقُون، ولهُ عَبيد، فاعبُدوهُ وأطيعُوه، ووَحِّدوهُ ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا، وهذا التَّوحيدُ هوَ الطَّريقُ القَويمُ الذي يَجِبُ أنْ تتَّبِعوه.

فاختلَفَ اليَهودُ والنَّصارَى فيهِ وصاروا فِرَقًا وأحزابًا، وانحرَفَ مُعظَمُهمْ عنِ الحَقّ، وبدَّلوا تَعاليمَ المسيحِ عَليهِ السَّلام، فالوَيلُ والهلاكُ للكافِرينَ منْ يَومِ الهَولِ والعَذاب.، كما قالَ سبحانه:

{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (مريم : ٣٧)
(تفسير من سورة مريم، الآيات ١٦ – ٣٧)

ولما استَشعرَ نبيُّ اللهِ عيسَى من اليهودِ الإصرارَ على الكفرِ والمضيَّ في الضَّلال، وأرَادوا قَتلَه، قالَ للنَّاس: مَنْ يتَّبِعُني في دِينِ اللهِ ويُناصِرُني في الدعوةِ إليه؟
فقالَ الحواريُّون، وكانوا صَفوةَ بني إسرائيل: نحنُ أعوانُ دِينِ اللهِ ورَسولِه، نُؤازِرُكَ ونَنصُرُك، فقدْ آمنَّا باللهِ ربًّا، وبكَ رسولاً، فاشهدْ على أنَّنا استَسلَمنا لأمرِ الله، وأخلَصنا لهُ الدِّين.
قالَ اللهُ تعالَى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢].

محمد صلى الله عليه وسلم

أُشِيعَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قُتِلَ في غَزوةِ أُحُد، وقدِ ادَّعَى أحدُ المشركينَ أنَّهُ قَتلَه، وكانَ قدْ شُجَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، فوصَلتِ الشائعةُ إلى صفوفِ المسلِمين، فحَصلَ وهْنٌ وضَعْفٌ وتَأخُّرٌ عنِ القِتال، فأنزلَ اللهُ ما مَعناه: وما محمَّدٌ (صلى الله عليه وسلم) إلا رسولٌ مثلَ غيرِهِ مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ في جوازِ القَتلِ عليه، فإذا ماتَ أو قُتِلَ رَجعتُمْ إلى ما كنتُمْ عليهِ منْ شِركٍ وضَلال؟! إنَّ مَنْ يَفعلُ ذلكَ فلنْ يَضُرَّ اللهَ شَيئاً، وإنَّما يَضُرُّ نَفسَه، فاللهُ غنيٌّ عنكمْ وعنْ إيمانِكم، والدِّينُ سيَبقَى، والمجاهِدونَ سيَنتَصِرون، ويَجزي اللهُ الذينَ قاموا بطاعتِه، وعَرَفوا قَدْرَ نعمتِه، وقاتَلوا دِفاعاً عنْ دينِه، واتَّبعُوا رسولَهُ حَيّاً ومَيّتاً، ويُعطيهِمْ مِنْ رحمتِهِ وكرَمِهِ بحسَبِ شُكرِهِمْ وعَملِهم، ويَزيدُهمْ مِنْ فضلِه.
{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران:١٤٤]

في الآيةِ (١٥٩) من سورةِ آلِ عمران:

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَوَكِّلِينَ}

أي: برحمةِ اللهِ لكَ ألنْتَ لأصحابِكَ جانِبَك، وخَفَضْتَ لهمْ جَناحَك، وحسَّنتَ لهمْ خُلُقَك، فأحبُّوكَ وفدَوْكَ بأنفُسِهمْ وآبائهمْ وأمواهِم، ولو كنتَ جافيَ المعاشَرة، كريهَ الخُلُق، قاسيَ القلب، لنَفَروا مِنك، وتَفرَّقوا عنك. فاعْفُ عنهمْ ما صدرَ منهمْ مِنْ تَقصيرٍ في حقِّكَ كما عَفا اللهُ عنهم، واستَغفِرْ لهمْ فيما يَتعلَّقُ بتَقصيرِهمْ في حقِّ اللهِ إكمالاً للبِرِّ بهم، واستَشِرْهمْ في الأمور، لتُظهِرَ بها آراءَهم، وتُطَيِّبَ قُلوبَهم، وتُمَهِّدَ لسُنَّةِ المشَاورةِ للأمَّة، فإنَّ في الاستشارةِ فوائدَ ومصالحَ كثيرَة.

فإذا اطمأنَّتْ نفسُكَ عَقِيبَ المشاورةِ بأمر، فأمْضِهِ مُتَوَكِّلاً على الله، مُعتَمِداً عليهِ في تَحصيلِ ما رجَوتَ منه، فإنَّ اللهَ يَنْصُرُ المتوَكِّلينَ عليه، ويُرشِدُهمْ إلى ما فيهِ خَيرُهمْ وصَلاحُهم.

قالَ سبحانَهُ وتعالَى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣]

أي: لقدْ عَلِمنا بما يَعتريكَ مِنْ حُزنٍ وغَمٍّ بسببِ مخالفةِ قومِكَ لكَ وتَكذيبِهمْ إيّاك، وهمْ لا يتَّهمونَ شخصَكَ بالكذِب، فليستِ العداوةُ بَينكَ وبينَهمْ متعلِّقةً بأمورٍ شَخصيَّة، ولكنَّهمْ ظالمونَ مُعتَدون، يَكفُرونَ بآياتِ اللهِ التي توحَى إليك.

وقدْ نَزَلتْ في أبي جَهل، الذي قالَ لرسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم: إنّا لا نُكَذِّبُك، ولكنْ نُكَذِّبُ ما جئتَ به!

في سورةِ (عبس) من الجزءِ الثلاثين، ذكرَ اللهُ تعالَى أنَّ نبيَّهُ محمَّدًا عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَبسَ وأعرَضَ بوَجهِه، لما جاءَهُ الصَّحابيُّ الأعمَى ابنُ أُمِّ مَكتوم.

وقدْ أتَاهُ فجعَلَ يَقولُ له: يا رسُولَ اللهِ أرشِدْني، وعندَهُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رَجُلٌ مِنْ عُظَماءِ المشرِكين، فجعلَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُعرِضُ عنهُ ويُقبِلُ على الآخَر، وقدْ طَمِعَ في إسلامِه.

قالَ اللهُ تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}

أي: وما يُدريكَ أيُّها النبيّ، فلعلَّهُ يَتطَهَّرُ منَ الذُّنوبِ بما يَتعَلَّمُهُ منك،
أو يتَّعِظُ فتَنفَعَهُ الموعِظَةُ ويَبتَعِدَ عنِ المحرَّمات.
أمَّا مَنِ استَغنَى بالكُفرِ أو الغِنَى عمَّا عندكَ منَ العلمِ والإيمَان،
فأنتَ تَتعَرَّضُ لهُ وتُقبِلُ عليه؟
ولستَ مُطالَبًا بأنْ يؤمِنَ ويَهتَدي، فما عَليكَ إلاّ البَلاغ.
وأمَّا مَنْ جاءَكَ يَقصِدُك، يَبتَغي النُّصحَ والرُّشد،
وهوَ يَخافُ اللهَ ويَخشَى عَذابَه،
فأنتَ تَتشاغَلُ عنه؟
كلاّ، لا تَعُدْ إلى مِثلِ هذا، إنَّ هذا القُرآن، أو هذهِ السورةُ، مَوعِظَةٌ يَجِبُ أنْ يُعمَلَ بها.
(تفسير الآيات ١ – ١١ من سورةِ عبس)

الفصل الثاني

مواقف الملائكة

عندَما أرادَ اللهُ تعالَى أن يَخلقَ آدمَ عليهِ السلامُ ليكونَ خليفةً في الأرض، تساءلتِ الملائكةُ عن الحكمةِ في ذلك؟

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٣٠]

وقدْ فَهِمتِ الملائكةُ منَ الطبيعةِ البشريَّة، أو بإلهامٍ منَ الله، أنَّ منَ البشرِ مَنْ يُفسِدُ في الأرض، ويَستغلُّ طاقاتِها في غيرِ وجهتِها الصَّحيحة، فقالوا استِعلاماً واستكشافاً عنِ الحكمةِ في ذلك، لا اعتراضاً على اللهِ سُبحانَه: يا ربَّنا، أتجعلُ في هذهِ الأرضِ مَنْ يَعيثُ فساداً، ويُريقُ الدماءَ بغَيرِ حقّ، مُتجاوزينَ الحِكمَةَ والصَّواب؟ وإذا كانَ الهدفُ منِ استخلافِهمْ فيها عبادتَك، فها نحنُ نُنَزِّهُكَ ونَحمَدُكَ ونُمَجِّدك، ونعبدُكَ ونصلّي لك؟

فقالَ اللهُ لهم: إني أعلمُ منَ المصلحةِ في استخلافِهمْ فيها ما لا تَعلمون، فإذا كانَ فيهمْ مُفسِدون، فإنَّهُ يَكونُ منهمْ أنبياءُ وصِدّيقون، وأولياءُ للهِ مقرَّبون، وعُلماءُ عامِلون، وعُبّادٌ خاشِعون، وشُهداءُ أبرارٌ في عِلّيين.

*** *** ***

{وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}

قالَ الملائكةُ عَليهمُ السَّلام: وليسَ هُناكَ منَّا أحَدٌ إلاّ ولهُ مَقامٌ مَعروفٌ في الطَّاعَةِ والعِبادَة.

ونحنُ الذينَ نَقِفُ صُفوفًا مُستَقيمَةً للعِبادَةِ كما أمرَنا رَبُّنا.

ونحنُ الذينَ نُقَدِّسُ اللهَ ونُنَزِّهُهُ عمَّا لا يَليقُ بهِ مِنْ عَيبٍ وشِرك.

(سورة الصافّات، الآيات ١٦٤ – ١٦٦)

الفصل الثالث

مواقف إبليس

الاستعلاء والتكبر

عندمَا خلقَ الله آدم، طلبَ منَ الملائكةِ أن يَسجدُوا لهُ سجدةَ تكريم، وكانَ بينهم إبليس، وهوَ منَ الجنّ:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة:٣٤]

أي أنهم سجَدوا لهُ طاعةً لربِّهم، فكانتِ السجدةُ لآدم، والطاعةُ لله. إلاّ إبليس، فقد أبَى أنْ يَسجُدَ له، تكبرُّاً واستِعلاء، فكانَ بذلكَ مِنَ العاصينَ الضالّين.

{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [الأعراف: ١٢]

قالَ اللهُ تعالى لإبليسَ ما تفسيره: ما الذي منعكَ أنْ تَسجُدَ لآدمَ كما أمرتُك؟

قال: أنا أفضلُ وأحسَنُ مِنْ آدم، فقدْ خلقتَني مِنْ نار، وخلقتَهُ مِنْ طين، والنارُ أشرفُ مِنَ الطِّين، فلماذا أسجدُ له؟.

وكانَ قياسهُ فاسِداً، وعِصيانهُ ظاهراً، فالفَضلُ لمنْ جعلَ اللهُ لهُ الفَضل، والشَّريفُ مَنْ شرَّفَهُ الله، وقدْ شرَّفَ اللهُ آدمَ فنفخَ فيهِ مِنْ روحه، وأمرَ ملائكتَهُ أنْ يَسجُدوا لهُ تَشريفاً له، والطِّينُ أفضلُ منَ النَّار، ففيهِ الرَّزانة، والحِلمُ والصَّبر، وهوَ محلُّ النَّباتِ والنموّ، والزيادةِ والإصلاح، والنارُ مِنْ شأنِها الإحراقُ والطَّيش، والجُرأةُ والسُّرعة؛ ولهذا كانَ الشَّيطانُ طائشاً خائناً، شَقيّاً عاصِياً لخالقِه، ولذلكَ استَحقَّ ما يأتي.

{قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}

قالَ اللهُ تعالَى لإبليسَ اللَّعينِ ما مَعناه: اخرُجْ منَ الجنَّة، فلا يَصِـــحُّ لكَ أنْ تبقَى فيها وقدِ استَكبرتَ عنْ أمري بالسُّجودِ لآدم، فاخرُجْ منها ذَليلاً حَقيراً مُهاناً.

الإغواء

أمرَ اللهُ تعالَى آدمَ وزوجَهُ أن يَسـكنا الجنة، ويأكُلا منها في رَغدٍ وهَناء، وحذَّرهما الاقترابَ من شجرةٍ عيَّنها لهما، فإذا فَعلا فقد عَصيا وخالَفا، واستحقّا العقوبة.

لكنَّ الشيطان كان عدوًّا لهما، ويتربَّص بهما الشر!

لقد أغواهما ونحّاهما عنِ الجنَّةِ عندَما زيَّنَ لهما الأكلَ مِنَ تلك الشـــجرة، فأكلا منها! وأخرجَهما بذلكَ منَ الجنّاتِ الجميلةِ وما فيها مِنْ رزقٍ هنيءٍ وراحةٍ ومَنـــزلٍ رَحب، فقالَ اللهُ لهما عَقِبَ هذا العِصـيانِ ما تفسـيره: انزلا منَ الجنَّةِ إلى الأرض، لتتحكَّمَ العداوةُ بينكمْ وبينَ الشيطانِ، الذي غرَّكمْ فأخرجَكمْ منْ هذا النعيم.

وهو معنَى قولهِ تعالَى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّـيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة:٣٦]

*** *** ***

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} (الحجر : ٣٤)

قالَ اللهُ له ما معناه: فاخرُجْ منَ الجنَّة، فإنَّكَ مَطرودٌ مِنْ كُلِّ خَيرٍ وكَرامة.

{وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} (الحجر : ٣٥)

وإنَكَ مُبعَدٌ مِنْ رَحمَةِ الله، وتَلحَقُكَ لَعنَتُهُ ولَعنَةُ المؤمنينَ إلى يَومِ القِيامَة؛ جَزاءَ عِصيانِك.

{قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} (الحجر : ٣٦)

قالَ إبليس: ربِّي أمْهِلني ولا تُمِتني إلى اليَومِ الذي يُبعَثُ فيهِ آدَمُ وذُرِّيَتُهُ للحِسابِ والجَزاء.

وهذا منْ تمامِ حسَـــدِهِ وعَداوتِهِ للإنسَـــان، ليُغويَهم، فيُبعَدوا مِنْ رَحمَةِ الله، كما أبعَدَهُ اللهُ منْ رَحمَتِه، فيَكونُ أخذَ بثأرِه.

{قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ} (الحجر : ٣٧)
قالَ اللهُ له تفسيرًا: قدْ أمهَلتُك، فأنتَ منْ جُملَةِ المؤخَّرين،
{إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} (الحجر : ٣٨)
إلى يَومِ النَّفخَةِ الأولَى، آخِرِ أيَامِ التَّكليف، وهوَ يَومٌ مَعلوم، لا يَبقَى فيهِ على وجهِ الأرضِ حَيّ.
{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} (الحجر : ٣٩)
قالَ إبليس: رَبِّي، لأنَّكَ أضلَلتَني وطرَدتني منْ رحمَتِك – ولم يَذكُرْ عِصيانَه – فسَوفَ أُزَيِّنُ لبَني آدمَ القَبيحَ حتَّى يَغتَرُّوا بهِ ويَفعَلوه، وأُحَبِّبُ إليهمُ المعَاصـــي، وأُرَغِّبُهمْ فيها حتَّى يَعمَلوها، ولأُضِلَّنَّهمْ كُلَّهمْ بذلك،
{إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (الحجر : ٤٠)
إلاّ عِبادَكَ الذينَ أخلَصُوا لكَ بالطَّاعَةِ والتوحِيد، واتَّقَوا حُرُماتِك، فلا أَقدِرُ على تَضليلِهم.
{قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} (الحجر : ٤١)
قالَ اللهُ تعالَى ما معناه: هذا طَريقُ الحقِّ التي لا مَحيدَ عَنها، فالحقُّ يَرجِعُ إلى اللهِ تعالَى وعَليهِ طَريقُه، ولا يَعْوَجُّ عَليهِ شَيء،
{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} (الحجر : ٤٢)
فإنَّ عِباديَ المخلَصينَ المتَّقينَ لا قوَّةَ لكَ على قُلوبِهم، ولا مَدخَلَ لكَ إليها ولا سَبيل.
قالَ سُفيانُ بنُ عُيَينَة: مَعناه: ليسَ لكَ عَليهمْ سُلطانٌ تُلقِيهمْ في ذَنبٍ يَضيقُ عَنهُ عَفوي. اهـ.
إنَّما سُلطانُكَ على منِ اتَّبعَكَ ورَضيَ بطَريقَتِكَ منَ الزَّائغِينَ الشَّارِدين، الذينَ خُدِعوا بتَزيينِكَ الباطِلَ لهم، واستَسلَموا للشَّهواتِ وتَركوا المكرُمات.
{وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} (الحجر : ٤٣)
وإنَّ جَهنَّمَ تَنتَظِرُ إبليسَ وكُلَّ مَنِ اتَّبعَه، فقدْ ضَلُّوا وآثَروا الغِوايَةَ والشَّهوةَ، والخَديعَةَ والإفسَاد، على الإيمانِ والاستِقامَة، والجِدِّ والصَّلاح.

وفي موضعٍ آخرَ من القرآنِ الكريم:
{قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الأعراف: ١٤]

قالَ إبليسُ لرَبّه: أمهِلني ولا تُمِتني في الحياةِ الدُّنيا حتَّى يومِ البَعث.

{قَالَ إِنَّكَ مِنَ المنظَرِينَ}

قالَ اللهُ تعالى تفسيرًا: قدْ أمهلتُك وأخَّرتُكَ إلى ذلكَ اليوم، لحكمةٍ أمتَحِنُ بكَ عبادي.

{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}

قالَ إبليسُ لربّه في عِنادٍ وتبجُّح: فبما أضللتَني وأهلكتَني لأُضِلَّنَّ ولأَهلِكَنَّ أولادَ آدمَ هذا الذي فضَّلتَهُ عليّ، ولأَجْلِسَنَّ في طريقِكَ المستَقيمِ التي رسمتَها لهمْ لتوصِلَهمْ بها إلى الجنَّة؛ ترصُّداً للإيقاعِ بهم.

{ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}

ثمَّ لأُضِلنَّهم، فأشَكِّكَنَّهُمْ في الإيمانِ بيومِ الحِساب، ولأُرَغِّبَنَّهمْ في دُنياهمْ بما فيها منْ شَهواتٍ ومزيّنات، ولأشبِّهنَّ عليهمْ أمرَ دينِهمْ حتَّى يَكفُروا ويَفسُقوا، ولأَشَهِّيَنَّهمْ في المعاصي والمآثمِ ليقتَرِفوها، حتَّى لا تَجدَ أكثرَهمْ مؤمِنينَ بك، مُطيعينَ لك.

{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ}

قالَ اللهُ تعالَى لإبليسَ اللَّعينِ ما مَعناه: اخرُجْ منَ الجنَّةِ مَذموماً مُهاناً، مُبْعَداً مَطروداً، ومَنِ اتَّبعكَ مِنْ بني آدمَ يكونُ مصيرُهمْ مصيرَك، فلأملأنَّ جهنّمَ منكَ ومِنْ ذرّيتِك، ومنْ كفّارِ ذرّيةِ آدمَ أجمعين.

(الآيات ١٤ – ١٨ من سورة الأعراف)

{لَّعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً} [النساء: ١١٨]

أبعدَ الله إبليسَ مِنْ رَحمتِه.

وقالَ إبليسُ اللَّعين: سآخُذُ مِنَ الناسِ حظًّا مُقدَّرًا وعَدداً مَعلوماً ممَّنْ يُطيعُونَني، وهمْ كثيرونَ جِدًّا {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف: ١٠٣].

{وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً} [النساء: ١١٩]

ولأُغْوِيَنَّهمْ وأُبْعِدَنَّهُمْ عن الحقّ، ولأَعِدَنَّهُمْ بالأمانيّ الباطِلة، وأُزَيِّنَنَّ لهمْ طُولَ الأمَل، ولآمُرَنَّهُمْ فليُقَطِّعُنَّ أو يُشَقِّقُنَ آذانَ الأنعام، وهوَ ما كانتْ تَفعَلُهُ العَربُ وتَجعلُهُ عَلامةً للبَحِيرةِ والسائبةِ

مِنَ النُّوق، والأُولَى التي وَلَدَتْ خَمسةَ أبطُنٍ تُعفَى منَ الانتِفاعِ بها، ولا تُمنَعُ مِنْ مَرْعًى ولا مَاء، والأخرَى المهمَلةُ التي تُسَيَّبُ لنَذْرٍ ونَحوِه. وقدْ أبطلَهما الإسلام.

ولآمُرَنَّهُمْ فليُبَدِّلُنَّ خَلْقَ الله، صُـورةً وصِـفَة، بتَغييرِ فِطْرةِ اللهِ تعالَى، واسـتعمالِ الجوارحِ والقُوَى لغَيرِ وَظيفتِها، وتَغييرِ ما سَـــخَّرَهُ اللهُ للانتِفاعِ بهِ إلى غَيره، كعبادةِ الأحجارِ والحيَواناتِ وهيَ مسخَّرةٌ للإنسان، وكخَصي الحيَوانات، وكاللِّواط...

ومنْ يُوالي الشَّيطان، بإيثارِ ما يَدعو إليه على ما يَدعو إليه الله، فقدْ خَسِرَ خَسارةً بيّنةً، ونَدِمَ نَدامةً كبيرة، ولا خَسارةَ أعظمُ مِنِ استِبدالِ النَّارِ بالجنَّة.

الخذلان

{كَمَثَلِ الشَّـيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} (الحشر : ١٦)

مثَلُ اليَهودِ في اغترارِهِمْ بوعُودِ المنافِقينَ وخِذلانِهِمْ لهم، كمثَلِ الشَّيطان، إذْ أغرَى الإنسَانَ وزيَّنَ في نَفسِـهِ العِصـيان، وقالَ له: اكفُرْ فلنْ يَضُـرَّكَ هذا. فلمَّا كفَر، قالَ لهُ الشَّـيطان: إنِّي أتَبرَّأُ منك، حتَّى لا أُشارِكَكَ في العَذاب، إنِّي أخافُ عُقوبةَ الله، واللهُ شَديدُ العَذاب.

{فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ} (الحشر : ١٧)

فكانَ مَصيرَ الإنسَانِ الضَّالِّ والشَّيطانِ المضِلّ، أنَّهما في نارِ جهنَّم، خالدَينِ فيها أبدًا، وهذا جَزاءُ مَنْ ظلمَ نَفسَهُ وخرَجَ عنِ الحقّ.

الكذب وخلف الوعد

{وَقَالَ الشَّـيْطَانُ لَمَّا قُضِـيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْـرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْـرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (إبراهيم: ٢٢)

بعدَ أنْ قضَــى اللهُ بينَ عِبادِه، وعرَفَ كُلٌّ مَصــيرَه، ودخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، قالَ الشَّــيطانُ للأشــقِياء، وهوَ الذي أضــلَّ كِلا فَريقَي المسـتَكبِرينَ وأتْباعِهم: إنَّ اللهَ وعدَكمْ وَعدًا حقًّا على ألسِنَةِ رسُلِه، وهوَ البَعثُ والحِساب، ووَعدتُكمْ وَعدًا باطِلاً، وهوَ أنْ لا بَعثَ ولا حِساب، فأضلَلتُكمْ وأخلَفتُكم، ولم يَكنْ لي فيما دعَوتُكمْ إليهِ قوَّةٌ أُجبِرُكمْ عَليه، ولا دَليلٌ على صِــدقِهِ وصِــحَّتِه، سِــوَى كلامٍ بَثَثتُهُ بينَكمْ وزَيَّنتُهُ في قُلوبِكم، فأســرَعتُمْ إلى إجابتِي وأطَعتُموني، فلا تُعاتِبوني اليومَ فيما أضلَلتُكمْ بهِ سَابِقًا، بلْ عاتِبوا أنفُسَكمْ حيثُ اتَّبَعتُمْ هواكُمْ وأطعتُموني، وأغمَضــتُمْ عيونَكمْ وصــرَفتُم قُلوبَكمْ عنِ الحَقيقَةِ والأدِلَّةِ المؤدِّيَةِ إليها، فما أنا بنافعِكمُ اليومَ شَــيئاً، وما أنا بمُغيثِكمْ ومُخَلِّصِــكمْ مِنَ العَذاب، ولا أنتُمْ قادِرونَ على إغاثَتِي وتَخليصــي ممّا أنا فيهِ مِنْ كَربٍ وعَذاب، إنِّي تبرَّأتُ الآنَ ممّا جَعَلتُموني شَــريكًا للهِ في الدُّنيا، حيثُ أطَعتُموني فيما دَعوتُكمْ إليهِ منْ عِبادَةِ الأصْنامِ وغَيرِها، فَلا تَطمَعوا بنُصرَتِي لكمُ الآن، فلمْ تَبقَ بَيني وبينَكمْ صِلَةٌ ولا عَلاقَة.

وإنَّ الكافِرينَ الظَّالمينَ لهمْ عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ، لإعراضِــهمْ عنِ الحقّ، وإصــرارِهمْ على اتِّباعِ الباطِل.

الفصل الرابع

مواقف أهل الكتاب

أهل الكتاب

من مواقفِ أهلِ الكتابِ عندما دُعوا إلى التحاكُمِ إلى ما في التوراةِ والإنجيلِ منْ طاعةِ الله، ومنْ بينِها اتِّباعُ الرسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، أعرضَ قِسْمٌ منهمْ مخالفةً وعِناداً، وإصراراً على الباطِلِ، وكأنَّهمْ ليسوا أهلَ كتاب، فلا يَهُمُّهمُ العملُ بما فيه؟!

قالَ الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [آل عمران: ٢٣]

فإذا عُيِّرُوا بهذهِ المخالَفةِ وقيلَ لهمْ إنَّها جُرأةٌ ومَعصِيَةٌ مُنكَرة، ويَترتَّبُ عليها عِقابٌ عَظيمٌ منَ الله، هوَّنوا منْ إقدامِهمْ على هذا الفِعلِ المنكَر، وافترَوا على اللهِ الكذِب، بقولِهمْ إنَّهمْ سيُعَذَّبونَ أياماً قليلةً في النار، ثمَّ يَخرجونَ منها إلى الجنَّة. ومثلُ هذا الذي مَنَّوا بهِ أنفسَهمْ أبقاهُمْ على دينِهمُ الباطِل، وهوَ ما لم يُنْزِلِ اللهُ بهِ سُلطاناً، إنَّما هوَ كذبٌ وافتِراء.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [آل عمران: ٢٤]

فليَنتَظِروا ذلكَ اليومَ الحقَّ الذي نَجمَعُهمْ فيهِ للحِساب، ونُعطي كلَّ نفسٍ نَصيبَها منَ العِقاب، ولنْ يُظلَموا، وكفَى بالنارِ مَوئلاً وعَذاباً لمنْ عصَى وأبَى.

{فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}؟ [آل عمران: ٢٥].

*** *** ***

ويسألُكَ أهلُ الكتابِ – أيُّها الرسُول – أنْ تُنَزِّلَ عليهِمْ كتاباً مِنَ السَّماء، جُملةً واحِدةً وبخَطٍّ سماويّ، كشَأنِ التَّوراة، وقدْ سألوا ذلكَ على سَبيلِ التعنُّتِ والعِناد، والكُفرِ والإلحاد، كما سألَ كفّارُ قُرَيشٍ قبلَهم نظيرَ ذلك: {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ} [الإسراء: ٩٣]، فلا تَهتَمَّ بهِمْ وبمطالبِهمُ المغرِضةِ هذه، فقدْ سَألوا موسَى أكبرَ منْ هذا وأعظَم؛ عِناداً لا استِرشاداً، فقالوا: نُريدُ أنْ نرَى اللهَ جَهاراً أمامَنا! فعاقَبهمُ اللهُ بصَاعقةٍ مِنْ نارٍ أهلَكتْهُم؛ بطُغيانِهم وبَغْيهم، وعنادِهم وتعنُّتِهم.

وهو المقصودُ بقولهِ تعالَى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} [النساء:١٥٣]

*** *** ***

وإذا أذَّنْتُمْ للصَّلاةِ ودَعا بعضُكمْ بَعضاً لإقامةِ هذهِ الفَريضةِ العَظيمة، سَخِرَ أهلُ الكتابِ والمشرِكونَ منها واتَّخذوها لَعِباً وعَبَثاً، معَ أنَّها طاعةٌ للهِ وإفرادٌ لهُ سُبحانَهُ بالعِبادة، لكنَّهمْ سُفَهاءُ وحَمْقَى، لا يَعرِفونَ الحقَّ ولذلكَ يُعادُونه، أو همْ لا يُريدونَ أنْ يَعرِفوا ذلكَ فيَلعَبونَ ويَعبَثون، ولا يَستَعملونَ عقولَهُمْ ليكونوا جادِّينَ راشِدين.

{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ} [المائدة: ٥٨]

*** *** ***

ومِنْ كُفرِ أهلِ الكتابِ أنَّهمُ اتَّخَذوا عُلماءَهمْ ورؤساءَهمْ أرباباً يعبدونَهمْ مِنْ دونِ الله، بأنْ أطاعوهُمْ في تَحريمِ ما أحلَّ اللهُ وتَحليلِ ما حرَّمهُ.

وعندما قالَ عَدِيُّ بنُ حاتمٍ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ اليهودَ والنصارَى لم يَعبدوا أحبارَهمْ ورُهبانَهم، قالَ لهُ عليهِ الصلاةُ والسلام: "بلى، إنَّهمْ حرَّموا عليهمُ الحلال، وأحلُّوا لهمُ الحرام، فاتَّبعوهم، فذلكَ عبادتُهمْ إيَّاهم".

وهذا تَفسيرُ نبيِّ اللهِ لمعنَى العِبادة، ولبيانِ أحَدِ أنواعِ الكُفرِ والشِّرك، فليُقَسْ عليهِ ما هوَ مِنْ مثلِه، منْ أوامرَ وأحكامٍ مُخالِفةٍ للقُرآنِ والسنَّة. وهي كثيرةٌ في عَصرِنا.

وكذا جعلَ النصارَى نبيَّ اللهِ عيسى بنَ مريمَ ابناً لله، واتَّخذوهُ رباً يَعبدونَهُ معَه.

وقد أُمِرُوا على ألسنةِ الأنبياءِ، وفي الكتبِ المُنْزَلةِ منَ اللهِ عليهم، ألاّ يَعبدوا إلاّ إلهاً واحِداً، ولا يُطيعوا إلاّ أمرَه، فهوَ الذي يَشرَعُ فيُطاع، وإذا حلَّلَ شَيئاً فهوَ الحلال، وإذا حرَّمَ فهوَ الحرام، هوَ اللهُ الواحِدُ الأحَد، لا ربَّ سِواه، فلا يُعْبَدُ إلاّ هو، تَنزَّهَ وتَقدَّسَ عنِ الشُّرَكاءِ والأولاد.

قالَ اللهُ تعالَى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]

*** *** ***

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} (الرعد: ٣٦)

أي: ومُؤمِنو أهلِ الكتابِ منَ اليَهودِ والنَّصارَى يُسَرُّونَ بالوَحي المُنْزَلِ إليكَ منَ الله، لِما يَرَونَ منَ المطابقَةِ بينَ القُرآنِ وما بَشَّرَتْ بهِ التوراةُ والإنجيل، مِنْ أنَّهُ الكتابُ الحقّ. وأنكرَتْ طَوائفُ منهمْ بعضَ القُرآن، ومِنْ ذلكَ التَّشريعاتُ الجَديدَةُ التي لم تَكنْ عِندَهم. وكذلكَ المشرِكونَ المتَحَزِّبونَ على رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالعَداوة، كانوا يُنكِرونَ منهُ ما يُخالِفُ تَقاليدَهمْ وما وَرِثوهُ عنْ آبائهم.

قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إنَّما بُعِثتُ بالوَحدانيَّة، فأُمِرتُ بعِبادةِ اللهِ وحدَه، وعَدَمِ الإشراكِ به، كما أُرسِلَ بهِ الأنبياءُ السَّابِقون، لا كما أنتُمْ عَليه. وإلى نَهجِ التوحيدِ أدعو النَّاسَ كافَّة، وإلى اللهِ وحدَهُ مَرجِعي ومَصيري للجَزاء.

بنو إسرائيل

وبعدَ أنْ ذهبَ موسَى إلى مُناجاةِ ربِّهِ في الجَبل، صنعَ لهمْ رَجُلٌ منَ السَّامِرَةِ في غيابهِ مِنْ حُليٍّ وزِينةٍ صورةَ عِجْلٍ مُجَسَّداً، يَعني تِمثالاً على شَكلِه، وجَعلَهُ على هَيئةٍ بحيث يُخرِجُ صوتاً كصَوتِ البقَر، وقالَ لهم: هذا هوَ إلهكُم! فالتفَّ عليهِ القومُ وصَاروا يَعبدونَه!!

ألا يرَى هؤلاءِ الجهَلةُ الضـــالُّونَ أنَّ هذا التمثالَ لا يَقدِرُ على الكلام، ولا أنْ يُرشِـــدَهمْ إلى خَير!! لقدِ اتَّخذوا ما صَنعوهُ بأيديهمْ إلهاً يَعبدونَه، فكانوا كافِرين، وعلى مُنكَرٍ عَظيم.

ولما نَدِموا على ما فَعلوا أشدَّ الندم، وعَلِموا أنَّهُمْ كانوا على ضَلالٍ مُبينٍ في عِبادةِ العِجلَ، تابوا وأنابوا، وأدرَكوا أنَّهُمْ قدِ اقتَرفوا إثماً كبيراً وعَملاً شَـــنيعاً، وقالوا: إذا لم يُدرِكنا ربُّنا برحمتهِ وعَفوِه، ويَتجاوَزْ عنْ خَطئنا ويتُبْ علينا، لنكونَنَّ منَ الهالِكين.

ولما رجعَ موسَـى عليهِ السـلامُ مِنْ مناجاةِ ربِّه، وقدْ أخبرَهُ سـبحانَهُ بما صَـنعَ قومهُ مِنْ بعدِه، غَضِـــبَ غَضَـــباً شَـــديداً، وقالَ لهم: بئسَ الذي فَعلتُموهُ مِنْ عبادةِ العِجلِ في غيبَتي، فهلِ استعجلتُمْ بهذا عقوبةَ اللهِ ونِقمتَهُ بكم؟!

وألقَى ألواحَ التوراةِ التي جاءَ بها على الأرضِ مِنْ شدَّةِ غَضَبهِ على قَومِه، واتَّجهَ إلى أخيهِ هارونَ وكانَ نائبَهُ في القَومِ، وأخذَ بشَـعرِ رأسـهِ يَجُرَّهُ نحوَه، وهوَ يظنُّ أنَّهُ قَصَّـرَ في نَهيهم، فأجابَهُ عليهِ السَّلامُ بأنَّهُ غُلِبَ على أمرِه، وقال: يا أخي، لقدِ استذلَّني عبَدَةُ العِجلِ ولم يُبالوا بي، لِقلَّةِ مَنْ بقيَ معي وأيَّدَني عليهم، حتَّى هُمُّوا أنْ يَقتلوني لما بَذلتُ منْ نُصـــحٍ في نَهيهمْ عنْ ذلك، فلا تأخُذْ بشـعرِ رأسـي ولا تَغضَـبْ عليَّ حتَّى لا تُسِـرَّ الأعداءَ وتُفرِحَهمْ بذلك، ولا تَجعلني في عِدادِ الظَّالمينَ المجرِمين، ولا تَخلِطْني بهم.

قالَ موسَى عليهِ السَّلامُ داعياً ربَّهُ لما تبيَّنَ عُذْرُ أخيه: اللهمَّ اغفرْ لي ما صَنعتُ بأخي واتَّهمتُهُ به، وتجاوَزْ عنهُ إنْ كانَ قدْ قَصَّـرَ في الإنكار، وأدخِلنا في رَحمتِكَ الواسِـعَةِ في الدُّنيا والآخِرَة، فأنتَ أرحمُ مَنْ رَحِم.

إنَّ الذينَ اتَّخذوا العِجلَ إلهاً لهمْ يَعبُدونَهُ مِنْ دونِ الله، سـيَلحَقُهمْ غَضَـبُ اللهِ وعُقوبتُه، وذِلَّةٌ واسـتِكانةٌ إلى يَومِ القِيامة، كما أغضَـبوا ربَّهمْ واسـتهانوا بأمرِه، وهذا هوَ جزاءُ الكاذِبينَ على الله، المفتَرينَ على دينِه.

والذلُّ هوَ هزائمُهمْ وما تعرَّضــوا لهُ مِنْ قَتل، وضُــرِبَ عليهمْ مِنْ جِزية، وعاشــوا تحتَ حُكمِ الآخَرين.

وقالَ صـــاحبُ الظِّلال: علمَ اللهُ أنَّ الذينَ اتَّخذوا العِجلَ لنْ يَتوبوا توبةً مَوصـــولة، وأنَّهمْ سـيَرتكِبونَ ما يُخرِجُهمْ مِنْ تلكَ القاعِدة، وهكذا كان، فقدْ ظلَّ بَنو إسْـرائيلَ يَرتَكِبونَ الخطيئةَ بعدَ الخطيئة، ويُسامِحُهمُ اللهُ المرَّةَ بعدَ المرَّة، حتَّى انتَهَوا إلى الغضَبِ الدائم، واللَّعنةِ الأخيرةِ.

(تفسير الآيات ١٤٨ – ١٥٢ من سورةِ الأعراف)، من قولهِ تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَـداً لَّهُ خُوَارٌ}، إلى قولهِ تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَـيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

وقد عفَا اللهُ عنهم بعدَ توبتِهم.

ثمَّ قالوا لنبيِّهمْ موســـى: نرفضُ أنْ نُؤمنَ حتَّى نرَى اللهَ عِيَاناً! وهوَ ممّا لا يُســـتطاعُ لهمْ ولا لأمثالِهم.

فَنَزَلَتْ عليهمْ صَيْحةٌ قويَّةٌ منَ السماء؛ لِفَرْطِ عِنادِهمْ وتعنُّتِهمْ وطلبِهمُ المستحيل، فماتوا بينما يَنظرُ بعضُهم إلى بعض.

قالَ تعالَى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَـى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّـاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [البقرة: ٥٥].

*** *** ***

وطلبَ منهم موسَى عليه السَّلامُ أن يدخُلوا الأرضَ المقدَّسة – وهيَ أريحا أو القُدس – التي قدَّرها وقَسَمها لهمْ في ذلكَ الوَقت. وكانتْ بأيديهمْ في زَمانِ يعقوبَ عليهِ السَّلام، ثمَّ تملَّكها العَمالقةُ بقيَّةُ قومِ عاد، فقالوا: يا موسَـــى، إنَّ فيها قوماً شَـــديدِي البطش، لطولِهمْ وعِظَمِ خِلْقَتهمْ وقوَّةِ أجسادِهم، ولا يُمكنُ مقاومتُهم، ولنْ ندخلَ هذهِ الأرضَ المقدَّسةَ ما دامُوا فيها، فلا طاقةَ لنا بإخراجِهمْ منها، فإذا خَرجوا منها دَخلناها.

{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} [المائدة: ٢٢]

وقالوا أيضًا: يا موسَى، لنْ نَدخُلَ هذهِ الأرضَ أبداً ما دامَ الجبابِرَةُ ماكثينَ فيها.

وقالوا في استِهانةٍ وسُوءِ أدَبٍ معَ اللهِ ورسُوله: اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلاهمْ وأخرِجاهمْ حتَّى ندخُلَها، ونحنُ هنا قاعدونَ مُنتَظِرون!!

{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} [المائدة: ٢٢]

قال موسَى عليهِ السَّلامُ في استِكانةٍ وخُضوعٍ لربِّهِ عزَّ وجلَّ لما رأى عنادَ بَني إسْرائيلَ وقَسوةَ قلوبِهِمْ ونُكولَهُمْ عنِ القِتال: يا ربّ، إنهُ لا يُجيبُ أحدٌ إلى ما دعوتَ إليهِ إلاّ أنا وأخي هارون، فافصِلْ بينَنا وبينَ هؤلاءِ الخارجينَ عنْ طاعتِكَ بقَضائكَ العادِل.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٥]

قالَ اللهُ تعالَى ما مَعناه: فإنَّ هذهِ الأرضَ المقدَّسةَ مُحَرَّمةٌ عليهمْ أربعينَ سَنة، لا يَدخلونَها، ويَسيرونَ مُتَحيِّرينَ في الأرض، يَمشونَ كلَّ يومٍ ولا يَهتدونَ إلى الطَّريق، ولا تَحزَنْ لِما أصابَهم يا موسَى ولا تأسَفْ عليهم، فإنَّهمْ يَستَحِقُّونَ هذا العِقاب.

{قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٦]

لقد رماهمُ اللهُ في التِّيه، حتَّى يَنشأ جيلٌ جديدٌ على غيرِ ما هم عليه، الذي قادَهمْ يوشَعُ بنُ نون، ففتحَ المدينةَ ودخلَها، ليعيشوا في القدسِ في رغَدٍ وهَناء.

وطُلِبَ منهمْ أنْ يقولوا عندَ الدخول: "حِطَّةٌ": حُطَّ عنّا ذنوبَنَا واغفرْ لنا، معَ تواضُعٍ وخُشوع. فإذا قالوا ذلكَ غفَر الله ذنوبهم، وزاد المحسنينَ منهم إحساناً.

لكنَّ فريقاً ظالماً منهمْ خالَفوا وعصَوْا، فبدَّلوا ما أُمِروا بهِ من الخضوعِ بالقولِ والفعل، فَبَدَلَ أنْ يَدخلوا ساجدينَ مُستَغفِرين، دخلوا على هيئةٍ أُخرَى مُخالِفة، وقالوا قَولاً آخرَ غيرَ الذي أُمِروا به، مخالفةً ومعاندة!

فأنزلَ اللهُ على هؤلاءِ الظالمينَ غضبَهُ وعذابَه؛ لفِسقِهِمْ وعِصيانِهِم. قال الله تعالى في وصف ذلك:

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [البقرة: ٥٩].

*** *** ***

ومن مظاهرِ سلوكِهم، وقد رزقَهم الله طعامًا طيبًا، وهو المنُّ والسَّلوى، أنهم ضجروا منهُ ورَغِبوا في الأدنَى، وطلبوا مِنْ موسَى أنْ يدعوَ اللهَ ليُخْرِجَ لهمُ البُقُول، من قِثَّاءٍ وثُومٍ وعَدَسٍ وبَصَل، فاسْتَنْكَرَ نبيُّهمْ منهمْ هذا، وقال: أتريدونَ الطعامَ الأقلَّ قِيمةً وذَوقاً على العيشِ الرغيدِ والطعامِ الهَنيءِ الطيّبِ النافع؟

إنَّ هذا الذي سألتُموهُ ليسَ بعَزيز، وهوَ هيّنٌ زَهيد، بإمكانِكمْ أنْ تَذهبوا إلى أيِّ مكانٍ لتجدوهُ فيه.

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ} [البقرة: ٦١].

*** *** ***

وقدْ أنزَلَ اللهُ بَني إسْرائيلَ مَكانًا طيّبًا وإقامةً آمِنة – ذُكِرَ أنَّهُ بلادُ مِصرَ والشَّام، ممّا يلي بيتَ المقدِسِ ونَواحِيَه – ورَزقهمُ الحَلالَ الطيّب، واللَّذيذَ النافِعَ مِنَ الأطعِمة.

وما اختَلَفوا في أمورِ دينِهمْ أوَّلاً، بلْ كانوا مُتَّبِعينَ أمرَ رَسولِهم، ثمَّ اختَلَفوا بعدَ أنْ عَلِموا ما في التَّوراةَ ووقَفوا على أحكامِها بعدَ وفاتِه، وفسَّروها تَفسيراتٍ باطِلة، وأوَّلوها تأويلاتٍ بَعيدة، وتَخلَّوا عنِ العَقيدةِ الصَّحيحة، ولازَموا جانِبَ الخِلافِ والجَدَل، بَغْيًا وحَسَدًا بينَ بعضِهمُ

البعض، حتَّى صَارُوا فِرَقًا عَديدة. وإنَّ اللهَ سيَقضي بينَهمْ يومَ القيامةِ بحُكمهِ العَدل، في الذي كانوا يَختَلِفونَ فيه، ويُظهِرُ المحِقَّ مِنْ غَيرِه.

{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: ٩٣]

*** *** ***

وبسبَبِ ظُلمِ اليَهودِ وما ارتَكبوهُ مِنْ ذُنوبٍ عَظيمة، كالكُفرِ بآياتِ الله، وعِبادَةِ العِجل، وعَداوةِ الرُّسُل، وقَتلِ الأنبياء، وبُهتانِهِمْ على مَريم... حرَّمنا عليهمْ أطعمةً طيّبةً كانتْ حَلالاً لهم، وبسبَبِ صَرفِ أنفسِهمْ وآخَرينَ عنْ دِينِ اللهِ الحقِّ مرّاتٍ كثيرَة.

{فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا} [النساء:١٦٠]

وبسبَبِ تعامُلِهمْ بالرِّبا، وتَحايُلِهمْ في أخذِهِ بأنواعِ الحِيَل، وقدْ نُهوا عنْ ذلكَ في التَّوراة.

وبسبَبِ أكلِهمْ أموالَ الناسِ بغَيرِ الحقّ، كالرِّشا في الحُكم، والتَّحريفِ والتَّزويرِ بالهدايا، وما إليها منَ الوجوهِ المحرَّمة. وقدْ هيّأنا للمُصِرّينَ منهمْ على الكُفرِ – إلاّ مَنْ تابَ وآمَنَ – عَذاباً مُؤلماً مُوجعاً في الآخِرَة، إضافةً إلى معاقَبتِهمْ في الدُّنيا؛ لظُلمِهمْ وعِصيانِهم.

{وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء:١٦١]

*** *** ***

وطلبَ أهلُ قريةٍ يومَ راحةٍ مُقَدَّساً لا يعملونَ فيه، فجعلَ اللهُ ذلكَ يومَ السبت، وابْتَلاهمُ بوفرةِ الحيتانِ في ذلكَ اليوم، فما صَمَدُوا أمامَ أطماعِهِمْ وشَهَوَاتِهم، وخافُوا إنْ همْ نَقَضُوا العهد، فَتَحَايَلُوا، وما يَحْتَالُونَ إلا على أنفسِهم، نَصَبُوا الشِّبَاكَ والحبائلَ والبِرَكَ قبلَ يومِ السبت، فإذا

انقضَـــى أخذوا ما فيها يومَ الأحد. فلمّا فعلوا ذلكَ ونَكَلُوا عنْ عهدِهِمْ معَ الله، عاقَبَهُمْ بالمسخ، وجعلَهمْ في صورةِ القِرَدَة، أذلَّةً صاغِرين.
قالَ الله تعالَى في ذلك: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّـــبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة: ٦٥]

*** *** ***

وقُتِلَ واحدٌ من بني إسرائيلَ ولم يعرِفوا قاتِلَه، وسألوا نبيَّهمْ معرفتَه، فطلبَ منهمْ أنْ يذبَحوا بقرةً، ويضرِبوا القتيلَ بجُزءٍ منْ أجزائها، فيَحيا المقتُول، ويَذكُرُ قاتِلَهُ. وهذا مثالٌ لقدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتَى، وَصَيْرُورةِ الرميمِ إلى ما كان.
ولكنَّهم تنطَّعوا في معرفةِ تلكَ البقرة، فطلبوا وصـفَها، وبيانَ لونِها، وأشـياءَ أخرَى دَقيقة. ولو أَنهم ذَبحوا أيَّ بقرةٍ لكفَت، ولكنَّهُمْ شَدَّدُوا فشَدَّدَ اللهُ عليهم. {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}. في الآيات (٦٧ – ٧٣ من سورة البقرة).

*** *** ***

وقومٌ منْ بَني إسْرائيلَ كانوا منْ بعدِ موسَى عليهِ السلام، قالَ أشرافُهمْ ووجهاؤهمْ لنبيٍّ لهم: أقِمْ لنا مَلِكاً نَصْدُرْ عنْ رأيهِ في الحربِ ونُقاتِلْ في سبيلِ اللهِ أعداءَه.
فقالَ لهمْ نبيُّهم: أرأيتُمْ لو أُجِبتُمْ إلى ذلكَ وطُلِبَ منكمُ القِتالُ حقّاً ولم تَفُوا بما التزمتُمْ به؟
فقالوا: كيفَ لا نُقاتِلُ وقدْ أُخِذَتْ منّا ديارُنا، وسُبيَ أولادُنا، واغتَربنا منْ أهلينا، فإنَّ كلَّ هذا داعٍ قويٌّ إلى الطاعةِ والقِتال.
ولكنْ لما عُيِّنَ لهمْ مَلِكٌ يقودُهمْ إلى الحرب، وجاءَ وقتُ القِتال، وطُلِبَ منهمُ الخروجُ معه، لم يَفُوا بوعدِهم، إلاّ القليلُ منهم، فقدْ تَخلَّفَ أكثرُهم.
واللهُ عليمٌ بتركِهمُ الجِهادَ ونقضِهمْ عهدَهم، ولسوفَ يُجازيهمْ عليهِ بعُقوبةٍ كبيرة.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَـى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} (البقرة:٢٤٦)

ولما خرجَ طالوتُ مَلِكُ بني إسرائيلَ بجُنودهِ وبمَنْ خرجَ معَهُ منْ بني إسرائيل، قالَ لهم: سيَختبرُكمْ ربُّكمْ ليرَى طاعتَكم، حيثُ تَقطعونَ نهراً – وكانَ عذباً ماؤهُ – فمنْ شَرِبَ منهُ فلا يَصحبْني في الحَرب، إلاّ ما كانَ مقدارَ كفِّ اليد، فلا بأسَ به، ومنْ لم يَشْرَبْ فليَصحَبْني في هذا الوَجه.
فشرِبَ أكثرُهم، وذُكِرَ أنَّهمْ كانوا عِطاشاً، وبقيَ القَليلُ الذي لم يَشرب، طاعةً لله.
وكانتِ الحكمةُ منْ هذا الابتلاءِ فَرْزُ الضعفاءِ المتذبذبينَ منَ الثابتينَ الأقوياء، فالذين شَربوا ما كانوا ذوي إرادةٍ وطاعة، فما كانوا يَصلُحونَ للحَربِ والقِتال، بل إنَّ فعلَهُمْ هذا يُنْبِئُ عنْ ضَعفٍ وعِلَّة، وأنَّهمْ سيَكونونَ عالةً على بقيَّةِ الجُند، وأنَّهمْ لضَعفِ إرادتِهمْ قدْ يَبُثُّونَ الهلعَ وروحَ الهزيمةِ بينهم. ففَصلَهمْ مَلِكُهمْ ولم يسْمَحْ لهمْ بالمشاركةِ في الحربِ الكبيرةِ التي تَنتظرُهم.
{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} (البقرة:٢٤٩)

*** *** ***

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّيّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (الصف : ٥)
واذكُرْ لأصحابِكَ أيُّها الرسُول، ممَّنْ كَرِهَ الجِهاد، قَولَ نَبيِّ اللهِ موسَى لقَومِه، وقدْ دَعاهُمْ إلى قِتالِ الجبابِرَة: يا قَوم، لمَ تؤذُونَني بالمخالفَةِ والعِصيانِ وأنتُمْ تَعلَمونَ عِلمًا قَطعيًّا أنِّي مُرسَلٌ مِنَ اللهِ إليكم، والرسُولُ يُصَدَّقُ ويُطَاع. وكانوا قدْ قالوا لهُ عليهِ السَّلام: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}! [سورة المائدة: ٢٤]. فلمَّا عصَوا ومالُوا عنِ اتِّباعِ الحقِّ وهمْ يَعرِفونَه، وآذَوا نبيَّهمْ بذلك، صرَفَ اللهُ قُلوبَهمْ عنِ الهُدَى وخذلَهم، لاختيارِهمُ العَمَى والضَّلال،

واللهُ لا يوفِّقُ لإصابَةِ الحقِّ مَنْ خَرَجَ عنِ الطَّاعَة، وأصرَّ على الضَّلال، ولم يَسلُكْ مَسالِكَ الهُدَى.

*** *** ***

وعندما تحرَّكتِ الطَّائفةُ الكافِرةُ من بني إسرائيل، المعَادِيَةُ لعيسَى عليهِ السلام لتَقتُلَهُ غِيْلَة، بعدَ اتِّهامِهِ بالكذِبِ والشَّعوَذة، وقذفِ والدتهِ الطَّاهرةِ بالزِّنا، ووشَوا به إلى الملك...، أبطلَ اللهُ حِيَلهمْ في الوصولِ إليه، واللهُ أقواهُم مَكراً، وأنفذُهم كَيْداً، وأحكَمُهمْ تَدبيراً، وأقدرُهمْ على الانتِقام.

{وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ} [آل عمران:٥٤]

قالَ البغويّ: والمكرُ لدَى المخلوقين: الخُبْثُ والخَدِيعةُ والحِيلة، والمكرُ منَ الله: استدراجُ العبدِ وأخذُهُ بَغْتَةً مِنْ حيثُ لا يَعلم... وقال ما مَعناه: ومكرُ اللهِ تعالى بِهِمْ في هذهِ الآيةِ هوَ إلقاؤهُ الشِّبْهَ على صاحبِهمُ الذي أرادَ قتلَ عيسَى عليهِ السلامُ حتَّى قُتِل!

وقَالوا في فَخرٍ وتَبَجُّح، عليهمْ لَعائنُ الله: إنّا قَتَلنا هذا الذي يُدعَى المسيح، عيسى بنَ مريم. ولكنَّ الحقَّ أنَّهمْ لم يَقتُلوهُ ولم يَصلُبوه، كما يَدَّعون، ولكنْ ألقَى اللهُ الشِّبْهَ على رجلٍ منهم، فظَنُّوهُ عيسى، فقَتلوه، وهؤلاءِ الذينَ ظنُّوا أنَّهمْ قَتلوهُ في شكٍّ وحَيرةٍ منْ ذلك، فهمْ أنفسُهمْ غيرُ متأكِّدينَ منْ ذلك، بل همْ مُتردِّدون، ومتَّبِعونَ الظنّ، لا علمَ حَقيقيٌّ عندَهم بذلك. وما قَتلوا عيسَى يَقيناً.

{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [النساء:١٥٧]

{بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:١٥٨].

*** *** ***

ومن تصـرفاتِ اليهودِ في العهدِ النبوي، أنهم إذا لَقُوا أصـحابَ النبيّ صـلى الله عليه وسـلم قالوا: آمنَّا بأنَّ محمَّداً مُرْسَـل، يعني على ما بَشَّـرَتْ بهِ التوراة، فإذا كانوا وَحْدَهُمْ قالَ بعضُـهمْ لبَعض: كيفَ تُقِرُّونَ عندَهمْ بصـحَّةِ رسـالةِ محمَّدٍ (صـلى الله عليه وسـلم) مِنَ التوراةِ لِيَكُونَ ذلكَ حُجَّةً لهمْ عليكم، فَيُحَاجُّوكمْ بهِ عندَ ربِّكم، فَيَخْصِمُوكم، اعْقِلُوا إذًا، فَاكْتُمُوا وَاسْكُتُوا!

{وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُـــهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٧٦].

ثم بيَّنَ اللهُ أنه مُطَّلِعٌ عليهم، ويعلمُ ما يُبطِنُونَ وما يُظْهِرُون، ويعلمُ أنَّهم يُسِـرُّونَ بتكذيبِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} [الأعراف: ١٥٧].

قالَ عزَّ مِن قائل: {أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [البقرة: ٧٧].

*** *** ***

وكانوا يُزَوِّرُونَ ما في التوراة، فيَكتبونَ بأيديهِمْ ما ليسَ مِنْهَا ويقولونَ إنهُ مِنْ عندِ الله، مُقَـابِلَ هَدَفٍ حَقِيرٍ وَطَمَعٍ زَائِل، هوَ أن يُعْطَوْا مَبلغاً زهيداً منَ المال!

{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـــذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: ٧٩]

*** *** ***

وقد أخَذ الله إقرارَهمْ وعهدَهمْ في التوراةِ بأنْ لا يَقْتُلَ بعضُـهم بعضاً، ولا يُخْرِجَهُ منْ ديارِه، ولا يُظَاهِرَ عَلَيْه، فأَهلُ المِلَّةِ الواحدة بِمَنْزِلَةِ النفسِ الواحِدَة. وقدْ أَقْروا بِهَذا الميثاقِ وصِحَّتِه، وَشَهِدوا به.

ولكِنَّهمْ نَقَضـوا الميثاقَ في هذا كما نَقَضـوهُ في غَيْرِه، فصـارَ يَقتُلُ بعضُـهمْ بعضًـا، فَفَرِيقٌ مَعَ الأَوْسِ وَفَرِيقٌ مَعَ الخَزْرَج. كما يُخْرِجُونَ بعضَـــهمْ منْ بيوتِ بَعْض، وينْهَبُونَ ما فيها منَ المالِ

والمتاعِ وَيَأْخُذُونَ سَـبايَاهُمْ، وَيقَوُّونَ أَعْدَاءَهمْ على بعضِـهمُ البَعض، وإذا انتهتِ الحربُ فكوا الأُسَـارَى منَ الفريقِ المغْلُوبِ وفدوهم ولم يتلوهم عملاً بِحُكْمِ التوراة. ولكنْ لماذا تَعمَلونَ هنا بالتوراةِ بينما تُنَاقِضُونَ أَحْكَامَهَا فِيمَا مَضَى وَيَقتُلُ بعضُكم بعضاً فِي الحَرْبِ وهوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ؟ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ التوراةِ وَتَكْفُرُونَ بالبعضِ الآخَرِ فيه؟

إنَّ جَزاءَ مَنْ يَكونُ كذلكَ هوَ الخِزيُ والعارُ في الحياةِ الدنيا، كما كانَ عاقبتَكم، منَ القتلِ والسبي، والجلاءِ والنفْي، وهو بسببِ مُخالَفَتِكُمُ الشَّرعَ. أمَّا يومَ القيامَة، فالعَذابُ الشديد، جزاءَ كتمِكُمْ ما في كتابِ اللهِ وعصيانِكُمْ أَحْكَامَهُ.

قالَ اللهُ تعالَى في ذلك:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْـفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَـكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـارَى تُفَـادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَـابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَـا جَزَاء مَن يَفْعَـلُ ذَلِـكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَـا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ٨٤ - ٨٥].

*** *** ***

وعندما دَعاهُم الرسـولُ صـلَّى الله عليه وسـلَّم إلى الإسـلام، قالوا: قلوبُنَا مُغَلَّفَةٌ لا تَنْفُذُ إليها دعوةُ الإسلامِ ولا تَقبَلُها!

{وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ٨٨]

بلْ قلوبُهُمْ مَلْعُونةٌ مُبْعَدَةٌ منْ رحمةِ اللهِ وهُدَاه، فَطُبِعَ عليها بالكفرِ لرفضِـها وخِذْلانِها عنْ قبولِ الحقّ. فإيمانُهم قَليل، أو إنَّ القليلَ منهمْ يؤمن.

*** *** ***

ولما جاءَ اليهودَ القُرآنُ الكَريم، المنـزَلُ على محمَّدٍ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وهوَ مُصَدِّقٌ لما في التوراة، وكانوا قبلَ مَبعثهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يَستَنصِرونَ بهِ على أعدائهمُ المشركينَ إذا قاتَلوهم، يَقولون: إنَّ نبيًّا يُبْعَثُ نتَّبعُه، قدْ أظلَّ زمانُهُ، نقتلُكمْ معهُ قَتْلَ عادٍ وإرَم. فَلَمَّا بُعِثَ صلى الله عليه وسلم مِنْ قُرَيشٍ وهمْ يعرفونَ أَنَّهُ هو، بصفاته، كفَروا بهِ وجَحَدُوا ما كانوا يَقولونَ فيه؛ لأنَّهُ ليسَ منهم، فلعنةُ اللهِ عليهمْ بسببِ كفرِهم، وسُخْطُ اللهِ وعَذابُهُ على الجاحِدينَ بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

{وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٨٩].

*** *** ***

وإذا قيلَ لليهودِ أو أهلِ الكتابِ عامَّةً: آمِنوا بما أُنْزِلَ على النبيّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وصَدِّقُوهُ واتَّبِعُوه، قالوا: نَكتفي بما أُنْزِلَ عَلينا مِنَ التَّوراةِ والإنجيل، وفيهما الحقّ، ولا نُقِرُّ بغيرِهما، فيَكفرونَ بالقُرآن، وهمْ يَعلمونَ أَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا فِيهِمَا، وهمْ كاذبونَ مُعانِدون.

فقلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إذا كنتُمْ تَدَّعُونَ صِدْقَ الإيمانِ فيما أُنْزِلَ عَليكم، فَلِمَ قَتَلتُمُ الأنبياءَ الذينَ جاؤُوكمْ بتصديقِ التوراةِ والحُكْمِ بها وأنتمْ تَعلمونَ صِدْقَهُمْ؟ بَلْ هُوَ الْهَوَى والتشهِّي، والبغيُ والاستِكبار، وليسَ هذا مِنْ صفاتِ المؤمنين.

قالَ اللهُ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [البقرة: ٩١]

*** *** ***

ومن شيمَتِهم الغَدر، فقد خانُوا العَهدَ الذي أبرَموهُ معَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم عندَ مَقدَمهِ إلى المدينة .. بلْ أكثرهمْ لا يؤمنونَ بالرسولِ المبعوثِ إليهمْ وإلى الناسِ كافَّة، الذي يَجدونَ صفتَهُ في كتبِهم، وقد أُمِرُوا باتِّباعهِ ومناصَرتِه.

{أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ١٠٠]

*** *** ***

ومن مواقفِهم وسلوكياتِهم أنهم أَعْرَضُوا عنِ التوراةِ وخالَفوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، واتَّبعوا ما تَرويهِ الشياطينُ وتُخْبِرُ بهِ في مُلْكِ سُليمانَ، وتَكْذِبُ عليهِ وتقول: إِنَّهُ كانَ ساحراً، وإِنَّ ما سُخِّرَ لهُ كانَ بما يَستخدمهُ منْ سحر. وكانَ عليه السلامُ نبيًّا كريماً قانِتاً، وما كانَ كافراً كما قالتْ يَهودُ أوِ الشياطينُ لَعَنَهُمُ اللهُ.
{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ} [البقرة: ١٠٢]

*** *** ***

ومن سلوكِهم السيّئ قولُهم لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "رَاعِنَا"، الذي فيه تَوريةٌ بالرعُونة، وهوَ الهوَجُ والحُمْق. ونصحَ اللهُ عبادَهُ المؤمنين ألا يتشبَّهوا بهم في مثلِ هذا.
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٠٤]
و"انْظُرْنا" أي أَنْظِرْنا وَأَمْهِلْنا.

*** *** ***

ومن سلوكِهم السلبيّ كتمُ ما هو حقّ!
إِنَّ الذينَ يَكتمُونَ ما أنزلَ اللهُ في الكتُبِ مِنْ صِفَةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وخاصَّةً اليهود، حتَّى لا تَذهبَ وجاهتُهمْ ورئاستُهمْ أمامَ العرب، وكانوا يتلقَّونَ منهمُ التُّحَفَ والهَدايا تعظيماً لشأنِهِمْ وعلمِهم، كما يأكلونَ الرِّشا مُقابلَ تَحليلٍ أو تَحريم، فخَشُوا إِنْ همْ أظهَروا أوصافَهُ صلى

الله عليه وسلم أنْ يتَّبعَهُ الناسُ ويَتركوهم، فكتَموا ذلك، إبقاءً على ما كانَ يَحصلُ لهمْ مِنْ ثَمنٍ قليلٍ مُقابلَ أمرٍ عَظيم، فباعُوا دينَهم مُقابلَ نَزْرٍ يَسيرٍ منَ المال، فكانوا منَ الخاسرين.
وسوفَ يأكلونَ ناراً تتأجَّجُ في بُطونِهِمْ يومَ القيامة، جزاءَ ما كانوا يأكلونَهُ مقابلَ كِتْمانِ الحقّ.
ولا يكلِّمُهمُ اللهُ غَضباً عليهم. ولا يُثني عليهمْ خَيراً، بلْ يُعَذِّبُهُمْ عَذاباً مؤلماً شَديداً.
قالَ الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة: ١٧٤).

*** *** ***

لقدْ تَلبَّسوا بغَضَبِ اللهِ وأُلزِمُوا به، فلا يُغادرُهمْ ولا يَنفكُّ عنهم. وسببُ هذا الذلِّ المكتوبِ عليهمْ والغَضَبِ الذي يُلازمُهم، هوَ أنَّهمْ كانوا يَرفُضونَ اتِّباعَ الحقِّ مهما كانَ واضِحاً وقويّاً، ويَكفرونَ بالحُجَجِ والمعجِزاتِ وهمْ يَرونَها عِياناً، وزَادوا على ذلكَ جَريمةً لا يَرتكبُها إلاّ أكبرُ مُجرِمي البشرِ وأشقاهُم، وهوَ قتلُ الأنبياء، أصفَى البشَرِ وأنقاهُمْ سَريرة، وأحسنُهمْ خُلُقاً، وأعظمُهمْ قَدْراً، قَتلوهُمْ بدونِ أيِّ مُبَرِّر، وبدونِ أيِّ حَقّ، بلْ هَكذا سَوَّلتْ لهمْ نفوسُهمُ السيِّئةُ وقُلوبُهمُ السَّوداء؛ عِناداً وتكبُّراً وحَسَداً. فالذي دفَعهمْ إلى كلِّ هذهِ الجرائمِ هوَ عِصيانُهمُ المستَمِرُّ لأوامرِ الله، واعتدَاؤهم وظلمُهم.
وهو معنَى قولهِ عزَّ وجلّ: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المِسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران:١١٢]

*** *** ***

لقدْ سَمِعَ اللهُ قولَ اليَهودِ عندَما قالوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياء، وذلكَ لما طَلبَ سُبحانَهُ منْ عِبادهِ أنْ يُنفِقوا مِنْ أموالِهِمْ ليدَّخِرَها لهمْ ويَجزيَهمْ عليها خَيرَ الجزاءِ يومَ القيامة، فقالَ عزَّ مِنْ قائل: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة:٢٤٥]،

قالتْ يَهود: "يا محمَّد، افتَقرَ ربُّك، يســـألُ عبادَهُ القَرْضَ"! في كُفرٍ وسُـــوءِ أدَبٍ معَ ربِّ الكَون!

يقولُ سُبحانَهُ مُهَدِّداً بما يَنتظرُهم: سنَكتُبُ قولَهُمْ هذا ونُحاسِبُهم عليه، فلا هو مَنسِيٌّ ولا هوَ مُهْمَل، إلى جانبِ آثامٍ عَظيمةٍ أخرَى لهم، كقتلِهِمْ أنبياءَ الله. وهمْ يَتباهَوْنَ بهذهِ الجرائمِ المنكَرةِ التي تَقشَعِرُّ منها الأبدَان، وتَنبِذُها الفِطَرُ السَّليمة. وسنَجزِيهِمْ على ذلكَ شرَّ الجزاء، عَذاباً كبيراً مُخيفاً لا يَعرِفُ قدْرَهُ وكيفيَّتَهُ إلا الله!

{لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ} [آل عمران:١٨١]

وفي آيةٍ أخرى، قالتِ اليَهود: إنَّ يدَ اللهِ بَخيلة – تعالَى اللهُ عنْ ذلك–. بَخِلَتْ نفوسُـــهمْ وأمسَكتْ أيديهمْ عنْ فعلِ الخيرات، فهمُ المعرُوفونَ بالبُخلِ والحسَدِ والجُبْن، والذلَّةِ والصَّغار، ولعنَهمُ اللهُ وطردَهمْ مِنْ رحمتِهِ بما تَلفَّظوهُ مِنْ كلامٍ في جانبِ اللهِ خالقِهمُ العَظيم، ورازقِهمْ ورازقِ الأحياءِ في الكونِ كلِّه، فيَداهُ مَبسوطتانِ بالعَطاء، فهوَ ذو فَضلٍ عَميمٍ وعَطاءٍ جَزيل، لا تَنْفَدُ خزائنُه، يُنفِقُ كما يَشاء، مِنْ توسيعٍ على عبادٍ له، أو تَضييقٍ في الرزقِ على آخَرينَ منهم، وما قالوهُ هنا هوَ مِنْ كفرِياتِهم، وسوفَ يَزيدونَ عليها ويَتمادَونَ فيها، فيَكفرونَ بآياتٍ أخرَى تَنزِلُ عليك، فيزدادونَ بذلكَ تَكذيباً وكُفراً على كفرِهم.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُـــوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً} [المائدة: ٦٤]

××× ××× ×××

وبسببِ نقضِهمُ العهدَ المؤَكَّدَ الذي أُخِذَ عليهم، أبعدناهمْ عنْ رَحمتِنا، وطَردناهمْ منَ الهُدى؛ عقوبةً لهم، وجَعلنا قلوبَهمْ غَليظةً لا تَلين، تَنبو عنْ قبولِ الحقّ، ولا تَتَّعظُ بموعِظة. وكانوا يُحَرِّفونَ كلامَ اللهِ ويَفتَرونَ عليه، ويؤوِّلونَه، ويَحمِلونَهُ على غيرِ مُرادِه، وتَركوا قِســـماً وافياً منَ التَّوراة فلمْ يَعمَلوا به.

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة:١٣]

*** *** ***

لقدْ أخَذنا العهودَ والمواثيقَ على بَني إسْرائيل، وبَعَثنا فيهمْ أنبياءَ وأرسلنا إليهمْ رُسلاً، يُذَكِّروهُمْ بها ويُخَوِّفوهُمْ نقضَها، ليسمَعوا ويُطيعوا ويأتمِروا بما أُنـــزِلَ إليهم، ومِنْ ذلكَ العهدُ الذي أخذَهُ أنبياؤهمْ عليهم، منَ الإيمانِ بالنبيِّ محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم، ولكنْ كلَّما جاءَهمْ رسـولٌ بما لا يوافِقُ أهواءَهمُ الزائغَة، وآراءَهمُ الفاسِـدة، صـارَ فريقٌ منهمْ يُكذِّبونَهمْ ويُخالفونَهم، وآخَرونَ منهمْ يَقتلونَهم!

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ} [المائدة: ٧٠].

*** *** ***

قالَ الله تعالَى:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّـذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَـا نُهُوا عَنْـهُ وَيَتَنَـاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُـولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِـهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (المجادلة : ٨)

أي: ألَمْ ترَ إلى اليَهودِ الذينَ مُنِعوا مِنَ التَّناجي دونَ المؤمِنينَ فيما يَســـوؤهم، ثمَّ يَرجِعونَ إلى المناجاةِ التي نُهوا عَنها، ويَتحدَّثونَ فيما بينَهمْ بما يَكونُ وَبالاً عَليهم، وفيهِ تعَدٍّ على المؤمِنين، ومُخالفَةٌ لأمرِ الرسُولِ عَليهِ الصَّلاةِ والسَّلام؟

وإذا جاؤوكَ أساؤوا الأدبَ في إلقاءِ تَحيَّتِهمْ إليك، وحيَّوا بنَقيضِ ما أمرَ اللهُ به، وقالوا: "السَّامُ عَليك"، ويُسِـرُّ بَعضُـهمْ لبَعضٍ قائلين: هلاَّ يُعَذِّبُنا اللهُ بسـبَبِ ذلك، فلو كانَ محمَّدٌ نبيًّا حقًّا

لأوحَى ربُّهُ بذلكَ وعذَّبَنا به؟ يَكفيهمْ نارُ جهنَّمَ عَذابًا ونَكالاً، التي يَصْـــلَونَها ويُعَذَّبونَ فيها، وبئسَ المرجِعُ والمآلُ الذي يَصَيرونَ إليه، وقدْ جُمِعَ لهمْ فيهِ كلُّ عَذابٍ وشَقاء.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} (المجادلة : ٩)

أيُّها المؤمِنون، إذا تَناجَيتُمْ في مَجالسِـــكمْ وأنديَتِكم، فلا تَتناجَوا بما فيهِ إثمٌ وتعَدٍّ على حُقوقِ الآخَرين، ومُخالفَةٌ لسُـنَّةِ الرسُـولِ الكريمِ صـلى الله عليه وسـلم، كما يَفعَلُهُ اليَهودُ والمنافِقون، ولكنْ تَناجَوا وتَباحَثوا بما فيهِ خَيرٌ ومَنفَعَةٌ وإحسَان، واخشَوا اللهَ وانتَهُوا عمَّا نَهاكمْ عَنه، فإليهِ تُحشَرون، ليُحاسِبَكمْ على ما تَعمَلون.

*** *** ***

ولمّا قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ هادَنَ بَني النَّضيرِ مِنَ اليَهود، وأعطاهُمْ عَهدًا وذِمَّةً أنْ لا يُقاتِلَهمْ ولا يُقاتِلوه، ولكنَّهمْ نقَضوا العَهد، وناصَروا قُرَيشًا ضدَّ المسلِمين، فأحلَّ اللهُ بهمْ بأسَه، وأخرجَهمْ مِنْ حُصونِهمُ الحَصينَة...

اللهُ الذي أخرَجَ الذينَ كفَروا مِنْ يَهودِ بَني النَّضـــيرِ مِنْ ديارِهمْ بالمدِينَة، في أوَّلِ حَشـــرِهمْ وإخراجِهمْ إلى الشَّـــام. فكانَ هذا أوَّلَ إجلاءٍ لهمْ مِنْ جَزيرَةِ العَرب، ثمَّ أجلَى آخِرَهمْ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضـيَ اللهُ عنه. ما ظنَنتُمْ أيُّها المسـلِمونَ عندَ حِصـارِكمْ لهمْ أنْ يَخرُجوا مِنْ حُصـونِهمُ المنِيعَةِ بسُـهولَة، لشـدَّةِ بأسِـهمْ وكثرَةِ عدَدِهمْ وعُدَّتِهم، وظَنُّوا همْ أنَّ حُصـونَهمُ القويَّةَ تَمنَعُهمْ مِنْ بأسِ الله، فجاءَهمْ أمرُهُ بما لم يَخطُرْ لهمْ ببَال، وقذفَ في قُلوبِهمُ الهلعَ والخَوفَ الشَّـديد، وصَـاروا يُخرِبونَ ما في بُيوتِهمْ لئلاَّ يَســـتَفيدَ منها المســـلِمون، ولِيَنقُلوا ما يَقدِرونَ عليهِ معَهم، ويُخرِبُها المؤمِنونَ مِنَ الخارِج، ليُوهِنوهُمْ ويَدخُلوا عَليهم. فاتَّعِظوا يا أهلَ العُقولِ والبَصـــائر، وتَفكَّروا في عاقِبَةِ مَنْ خالفَ أمرَ اللهِ ورسُـــولِهِ كيفَ يَحِلُّ بهمْ بأسُـــه، وما أُعِدَّ لهمْ مِنَ العَذابِ في الآخِرَةِ أكبرُ وأفظَع.

وهذا معنَى قولهِ ســبحانَهُ وتعالَى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ

يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} (الحشر : ٢)

النصارى

أتبَعَ اللهُ رَسُولاً بعدَ رَسُول، وأتْبَعَهمْ بعيسَى عَليهِ السَّلام، وأنزَلَ عَليهِ الإنجيلَ – وليسَ هوَ الذي بينَ يدَي النَّصارَى اليَوم، فقدْ بدَّلوهُ وحرَّفوهُ – وجعَلَ في قُلوبِ الذينَ اتَّبَعوهُ مِنَ الحَواريّينَ رِقَّةً وخَشيَة، ورَحمَةً بالخَلق، ورَهبانيَّةً اخترَعوها مِنْ عندِ أنفُسِهم، وهيَ المبالغَةُ في العِبادَةِ والانقِطاعُ عنِ النَّاسِ والزُّهدُ في الدُّنيا، ما فرَضَها اللهُ عَليهم، ولكنَّهمْ أَلزَموا بها أنفُسَهمْ يَبتَغونَ بذلكَ رِضوانَ الله، فما حافَظوا عَليها، ولا قاموا بحقِّها، بلْ ضيَّعُوها، وضَلُّوا وأشرَكوا، ومنهمْ مَنْ أقامَ على الدِّينِ الحقّ، حتَّى جاءَ الإسلامُ فآمَنوا به، فآتَى اللهُ الذينَ آمَنوا منهمْ إيمانًا صَحيحًا وثبّتوا عَليهِ ثَوابَ إيمانِهم، وكثيرٌ منهمْ خارِجونَ عنِ الدِّينِ الحقّ، ممَّنْ ضَلُّوا سابِقًا وأشرَكوا، ومَنْ لم يؤمِنْ بنبوَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

قالَ ربُّنا تباركَ وتعالَى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} (الحديد : ٢٧)

*** *** ***

جاءَ وفدٌ مِنْ نصارَى نَجرانَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يُجادِلونَهُ في شأنِ عيسَى عليهِ السلام، وأنَّهُ اللهُ، أو ابنُه، أو ثالثُ ثلاثةٍ مِنَ الآلهة، فلم يُسلِموا، ولم يَقتنِعوا بما أوردَ لهمُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منْ حُجَجٍ وأدلَّةٍ على أنَّهُ نبيٌّ مِنْ عبادِ الله، فدَعاهُمْ إلى المباهَلة، كما في تَفسيرِ الآيةِ الكريمة.

فإذا جادلَكَ علماؤهمْ أيُّها الرسُول، وخاصَموكَ في شأنِ عيسَى وأمِّهِ، بعدَما عَلِمتَ مِنْ أمرِهِ وسَمِعوا منكَ ذلك، ولم يَرجِعوا عمّا هم فيهِ مِنْ ضَلال، فقلْ لهم: هَلُمَّ بنا فليَدْعُ كلٌّ منّا نفسَهُ

وأبناءَهُ ونِساءَه، ثمَّ نَبتهلْ جميعاً ونَتضرَّعْ إلى اللهِ ليَجعلَ لعنتَهُ على الكاذِبينَ منّا ومنكمْ في أمرِ عيسَى.

فقالوا: حتَّى نَرجِعَ ونَنظرَ في أمرِنا ثمَّ نأتيكَ غَداً.

وفي الغدِ أخذَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدِ عليٍّ وفاطِمةَ والحَسنِ والحُسين، رضيَ اللهُ عنهم جميعاً، ونادَى كبيرَي وفدِ النصارى "السيِّدَ" و"العاقِبَ" ليَحضُروا المباهَلة، يَعني الملاعَنة، فلم يَستَجيبا، ورَضُوا بإعطاءِ الجزية. وخَبرُ المباهَلةِ في صَحيحِ البُخاريّ.

{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ} [آل عمران:٦١].

*** *** ***

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} [المائدة : ٨٢]

أي: ستَجِدُ أشدَّ النَّاسَ عداءً للمؤمِنينَ اليهودَ والمشرِكين.

أمّا اليهود: فلعِنادهمْ وجُحودهم، وتضاعُفِ كُفرِهمْ، واتّباعِهمُ الهوَى، وكذبِهمْ وافتِرائهم، وتمرُّدِهمْ على الحقّ، حتَّى قَتلوا أنبياء، وهمُّوا بقتلِ رسولِنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم غيرَ مرَّةٍ وسَحَروه، ووَضعوا في دينِهمْ توجيهاتٍ بإيذاءِ مَنْ يُخالِفُهم!

والمشرِكونَ يُماثلونَهمْ في صِفاتٍ عدَّة، وقدْ غلبَ عليهمُ التقليدُ فسَدُّوا منافذَ الفِكرِ والفِطرةِ في نفوسِهم، فلازَموا الكفر، وفتَنوا المؤمنينَ عنْ دينِهم، وحارَبوا الدِّينَ الحقَّ بكلِّ ما أُوتوا منْ قوَّة..

وستَجِدُ أقربَ الناسِ مَودَّةً للمؤمِنين – منْ بينِ مِلَلِ الكُفرِ – الذينَ زَعَموا أنَّهمْ نصارَى مِنْ أتباعِ المسيح، وذلكَ لرأفةٍ في قلوبِهمْ ورِقَّة، وفيهمْ علماءُ ورُهبانٌ وعُبّادٌ يتَّصفونَ بالعلمِ والعِبادةِ والتواضُع، وهؤلاءِ لا يَستكبرونَ عنِ الانقيادِ للحقِّ إذا عَرَفوهُ وفَهِموه. ولعلَّ التعبيرَ للكثيرِ مِنْ هؤلاء، أو أكثرِهم.

قالَ القاضي البيضاويّ: فيهِ دليلٌ على أنَّ التواضُعَ والإقبالَ على العِلمِ والعمَل، والإعراضَ عنِ الشَّهوات، مَحمودٌ وإنْ كانَ مِنْ كافِر.

والآيَةُ مُرتَبِطَةٌ بما بَعدَها.

{وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُـولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}

وإذا سَمِعَ هؤلاءِ وأمثالُهُمْ ما نزلَ على الرسُـولِ محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلمَ مِنْ آياتِ القُرآن، ترَى الدموعَ تَسيلُ مِنْ عُيونِهم، وذلكَ لما عَرَفوا مِنَ الحقِّ الذي عندَهم، منَ البِشارةِ ببعثةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، مثلَما حدثَ للنجاشيِّ وقسِّيسينَ مِنْ حَولِه، ولم يَكونوا مثلَ اليهودِ بُهْتاً مُعانِدينَ ومُكَذِّبينَ مُحَرِّفين، بلْ قالوا في تواضُعٍ وخُشوع، وأوبَةٍ وإيمان: اللهمَّ إنّا آمنّا بما أنزلت، فاكتُبنا معَ مَنْ يَشـهدُ بصـحَّةِ هذا، واجعَلنا عندَكَ معَ أمَّةِ محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم، وممَّنْ يَشهَدونَ معهمْ بالحقّ.

{وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ}

قالوا: ولماذا لا نؤمِنُ باللهِ ولا نُنَـــزِّهُ عن الشِّـركِ كما هوَ في دينِ الإسْـلام، ونؤمِنُ جَميعاً بما جاءَنا منَ الحقِّ والتوحيدِ الذي لا شـــائبةَ فيه، ونحنُ نَتمنَّى ونَرغَبُ أنْ يُدْخِلَنا ربُّنا جنَّته، ويَشمَلَنا برحمتهِ معَ عبادهِ المؤمِنينَ الصَّالحين؟

{فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ}

فجازاهمُ اللهُ بسـبَبِ قولِهِمْ هذا، وعلى تَصـدِيقِهمْ واعتِرافِهمْ بالحقّ، جنّاتٍ عاليات، تَجري مِنْ تحتِ أشجَارِها ومسَاكِنِها أنهارُ الماءِ والعَسلِ والخمرِ واللبن، معَ خلودٍ دائمٍ وسعادةٍ تامَّة، فهذا جزاءُ مَنِ اتَّبعَ الحقَّ وأذعنَ له، دونَ معاندةٍ ولا استِكبار.

(الآيات ٨٢ – ٨٥ من سورة المائدة)

الفصل الخامس

مواقف المؤمنين

الإيمان

قالَ اللهُ تعالَى:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ}

أي: العُلماءُ الأولياءُ الذينَ آتَيناهمُ الكِتابَ مِنْ قَبل، همُ الذينَ يؤمِنونَ بالقُرآن.

{وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ}

إنَّهُمْ مؤمِنو أهلِ الكِتاب، الذينَ إذا سَمِعوا آياتِ القُرآنِ تُتلَى عَليهِمْ قالوا: آمَنَّا بأنَّهُ كلامُ اللهِ تعالَى، إنَّهُ الحَقُّ الذي كُنَّا نَعرِفُهُ في كتُبِنا، فقدْ كُنَّا مُسلِمينَ مُوَحِّدينَ قَبلَ نُزولِ القُرآن، وكنَّا مُصَدِّقينَ بالرَّسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فإنَّ ذكرَ صِفَتِهِ والحَديثَ عنِ القُرآنِ مَوجودٌ في التَّوراةِ والإنجيل.

{أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}

أولئكَ المؤمِنونَ منْ أهلِ الكِتابِ يُعطَونَ ثَوابَهُمْ مرَّتين، لإيمانِهِمْ بكتابِهِمْ أوَّلاً، ثمَّ لإيمانِهِمْ بالقُرآنِ الكريم؛ وذلكَ لصَبرِهِمْ وثَباتِهِمْ على الحقّ. وهمْ يَدفَعونَ الأذَى بالعَفوِ والمغفِرَة، ويُنفِقونَ ممَّا رزَقناهُمْ مِنَ الحَلالِ في طاعَةِ الله.

{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}

وإذا سَمِعوا القَبيحَ مِنَ القَول، والأذَى والسبَّ مِنَ المشرِكين، أعرَضوا عَنهم، وقالوا في حِلْمٍ وأناة: لَنا حِلْمُنا ولكمْ سفَهُكم، أو لَنا دِينُنا ولكمْ دِينُكم، لا نَشتُمُكمْ كما تَشتُمونَنا، لا نُريدُ مَسلَكَ الجاهِلين، ولا نُحِبُّ صُحبتَهمْ ولا مُجاورَتَهم.

(سورة القصص: ٥٢ – ٥٥)

الخشية

وصفَ الله تعالَى جانبًا من سلوكِ المؤمنينَ وثوابَ عملِهم في الآخرةِ فقال:

{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}

أي: إنَّما يُصَدِّقُ بآياتِنا الذينَ إذا وُعِظوا بها استَمَعوا إليها وعَمِلوا بما فيها، مِنْ غَيرِ تَرَدُّدٍ ولا تَكبُّر، وبادَروا إلى السُّجودِ لرَبِّهِمْ على وُجوهِهم؛ تَواضُعًا لهُ وخَوفًا مِنْ عَذابِه، ونزَّهوهُ عنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بذاتِهِ وأسمائِهِ وصِفاتِه، وأثنَوا عليهِ الخَيرَ كُلَّه، لِما هَداهُمْ إلى دِينِه، وأسبَغَ عَليهِمْ مِنْ نِعَمِه، وهمْ لا يَستَكبِرونَ عنِ الإيمانِ بهِ وطاعَتِهِ والسُّجودِ له.

{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}

تَتباعَدُ أطرافُهمْ عنِ الفُرُشِ وتَنبو عنْ مَواضِعِ النَّوم، فيَقومونَ اللَّيلَ يتهَجَّدون، يَعبدُونَ اللهَ ويَدعُونَهُ خَوفًا مِنْ عَذابِه، وطَمعًا في كرَمِهِ وجنَّتِه، ويُنفِقونَ ممَّا رزَقناهُمْ في وُجوهِ البِرِّ والإحسَان، مِنَ الزَّكواتِ والصَّدَقات.

وفي الحَديثِ الصَّحيحِ قَولهُ صلى الله عليه وسلم: "عَليكمْ بقِيامِ اللَّيلِ فإنَّهُ دأَبُ الصَّالِحِينَ مِنْ قَبلِكم، وقُربَةٌ إلى اللهِ تَعالَى، ومَنهَاةٌ عنِ الإثمِ، وتَكفِيرٌ للسَّيِّئات، ومَطرَدَةٌ للدَّاءِ عنِ الجسَد".

وقالَ أنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنه: فينا نزلَتْ مَعاشِرَ الأنصار، كُنَّا نُصَلِّي المغرِب، فلا نَرجِعُ إلى رِحالِنا حتَّى نُصَلِّيَ العِشاءَ الآخِرَةَ معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

فلا تَعلَمُ نَفسٌ مِنَ النُّفوسِ ما أُعِدَّ لهمْ مِنَ الثَّوابِ الجَليل، والنَّعيمِ الكَثير، واللَّذَّةِ والسُّرور، ممَّا تَقَرُّ بهِ أعينُهم، جزاءَ ما كانوا يَعمَلونَهُ منَ الأعمالِ الصَّالِحَة.

{أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ}

فهلِ الذي عُمِّرَ قَلبُهُ بالإيمَان، وانقادَتْ جَوارِحُهُ لطاعَةِ الله، كمَنْ كفرَ به، وجحَدَ رِسالاتِه، وخرَجَ عنْ طاعَتِه؟ إنَّهمْ لا يَستَوونَ في الثَّوابِ يومَ القيامَةِ أبدًا.

(سورة السجدة: ١٥ - ١٨)

صفات

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً}

ومِنْ صِفاتِ عِبادِ اللهِ المؤمِنينَ المتَّقين، أنَّهُمْ يَمشُونَ على الأرضِ بتُؤدَةٍ وسَكينَة، فهمْ متَواضِعونَ هَيِّنون، غَيرُ مُستَكبِرينَ ولا مُتجَبِّرين، وإذا قالَ لهمُ السُّفهاءُ كلامًا لا يَليق، لم يُقابِلوهمْ بمِثلِه، فعفَوا وصَفَحوا، وحَلُمُوا ولم يَجهَلوا، ولم يَقولوا إلاّ خَيرًا.

وبقيَّةُ الصفاتِ التي تُنبِئُ عن سلوكياتٍ ومواقف، تفسيرها:

وهمُ الأخيارُ المعتَدِلون، الذينَ إذا أنفَقوا لم يَزيدوا فَوقَ الحاجَة، ولمْ يتَجاوَزوا حدَّ الكرَم، وكذلكَ لم يَبخَلوا ولم يُمسِكوا أيديهمْ عنِ الإنفاق، بلْ كانوا وسَطًا وعَدْلاً.

وهمُ المؤمِنونَ الموَحِّدونَ المخلِصون، الذينَ لا يُشرِكونَ في عِبادَتِهِمْ معَ اللهِ أحَدًا.

ولا يَقتُلونَ النَّفسَ التي حرَّمَ اللهُ قَتْلَها، إلاّ بسَبَبٍ مِنَ الأسبابِ التي تُزيلُ هذهِ الحُرمَة، كالردَّة، والزِّنا بعدَ الإحصَان، وقَتلِ النَّفسِ عَمدًا.

ولا يَقرَبونَ الزِّنا، {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [سورة الإسراء: ٣٢].

ومَنْ يَفعَلْ ما ذُكِرَ مِنَ المحَرَّمات، فسيُلاقي عُقوبَةً ونَكالاً يُناسِبُ عملَهُ السيِّءَ.

ومِنْ صِفاتِ عِبادِ الرحمنِ المتَّقين، أنَّهُمْ لا يُدْلُونَ بشَهاداتٍ كاذِبَة، ولا يُساعِدونَ أهلَ الباطِلِ على باطلِهِمْ بالكَذِبِ المتعَمَّد، فهذا مِنْ أكبرِ الكبائر، وقدْ قُورِنَ بالشِّـــركِ وعُقوقِ الوالِدَين، كما في الحديثِ الذي أخرَجَهُ الشَّيخانِ وغَيرُهما، مِنْ حَديثِ أبي بَكرَةَ المرفوع، واللفظُ لمسلِم: "ألَا أُنَبِّئكمْ بأكبَرِ الكبائرِ (ثلاثًا)؟: الإشـراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَين، وشَـهادَةُ الزُّور، أو قَولُ الزُّور. وكانَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُتَّكِئًا، فجلَسَ، فما زالَ يُكَرِّرُها، حتَّى قُلنا: لَيتَهُ سَكت".

وإذا حدَثَ أنْ مَرُّوا بالكَلامِ الذي لا خَيرَ فيه، أعرَضوا عَنه، وأكرَموا أنفُسَهمْ عنِ الخَوضِ فيه.

وإذا تُلِيَتْ على هؤلاءِ المؤمِنينَ آياتٌ مِنَ القُرآنِ الكريم، وما فيها مِنَ المواعِظِ والأحكَام، والوَعدِ والوَعيد، لم يُصِـــمُّوا آذانَهُمْ عنْ سَماعِ الحَقّ، ولم يُعْمُوا عُيونَهُمْ عنْ دلائلِهِ وحقائقِه، بلْ أكَبُّوا عَليها مُتدَبِّرينَ بآذانٍ واعِية، وعُيونٍ مُبصِرَة.

(تفسير الآيات ٦٣، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٧٣، من سورة الفرقان)

وقالَ اللهُ تعالَى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُــولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِــدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُـجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْـلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْـوَاناً سِـيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّـجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّــالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} (الفتح : ٢٩)

محمَّدٌ رَسُولُ اللهِ حقًّا، والذينَ معَهُ مِنْ صَحابَتِهِ رِضوانُ اللهِ عَليهم، أشِدَّاءُ عَنيفُونَ على الكُفَّارِ أعداءِ الدِّين، رُحَماءُ مُتوادُّونَ معَ إخوانِهِمُ المؤمِنين، تَراهمْ راكِعينَ ســاجِدينَ لكثرَةِ صَــلاتِهِمْ ومُداوَمَتِهِمْ عَليها، يَطلُبونَ الثَّوابَ والرِّضــا مِنَ الله، عَلامَةُ الخُشــوعِ والتَّواضُــعِ ظاهِرَةٌ على وجوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجود، فالشَّيءُ الكامِنُ في النَّفسِ يَظهَرُ أثَرُهُ على صَفَحاتِ الوَجه. كانَ ذلكَ وَصفُهمْ في التَّوراة.

وصِفَتُهمْ في الإنجيل: كزَرعٍ تفَرَّعَ منهُ ورَقُهُ على جانِبَيه، فشَدَّهُ بذلكَ وقَوَّاه، فغَلَظَ وطَال، فتَمَّ واستَقامَ على أُصولِه، يُعجِبُ الزَّارِعينَ بوَصفِهِ المذكورِ وجَمالِ مَنظَرِه.

وهذا مَثَلُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه، فقدْ قامَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بالدَّعوَةِ وَحدَه، ثمَّ قَوَّاهُ أصحابُه، فآزَروهُ ونصَروه.

ليَغيظَ اللهُ بهمُ الكافِرين، بجِهادِهمْ وشِدَّتِهِمْ عَليهم، وإخلاصِهِمْ لهذا الدِّين.

وعدَ اللهُ الذينَ أخلَصــوا منهمْ في إيمانِهم، وعَمِلوا حسَــنًا، أنْ يَغفِرَ لهمْ ذُنوبَهم، ويُؤتيَهمْ ثَوابًا كبيرًا ورِزقًا كريمًا، واللهُ لا يُخلِفُ الميعاد.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: وكُلُّ مَنِ اقتَفَى أثرَ الصَّحابَةِ فهوَ في حُكمِهم، ولهمُ الفَضلُ والسَّبْقُ والكمالُ الذي لا يَلحَقُهمْ فيهِ أحَدٌ مِنْ هذهِ الأمَّة.

الخير

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَــنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَــنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} (النحل: ٣٠)

وقيلَ للمُؤمِنينَ السُّعَداء: ماذا أنزلَ ربُّكمْ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: أنزَلَ خَيرًا ورَحمةَ وبَرَكة. ولِمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالِحًا في هذهِ الحياةِ الدنيا مَثوبَةٌ حسَنةٌ وحَياةٌ طَيِّبَة، وفي يَومِ القِيامَةِ جَزاءٌ أفضَلُ وحَياةٌ أنعَمُ وأهنأُ ممّا أُوتوا في الدُّنيا، ونِعمَ الدارُ الآخِرةُ لِمنِ اتَّقَى ربَّهُ وصبَرَ على طاعتِه.

الحب والإيثار

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ:

{وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أي أنَّ الأنصارَ الذينَ اتَّخَذوا دارَ الهجرَةِ مَنزِلاً وسَكنًا قَبلَ المهاجِرين، وآمَنوا قَبلَ كثيرٍ منهم، يُحبُّونَ إخوانَهُمُ الذينَ هاجَروا إليهم، ويُواسُونَهم، ولا يَتبرَّمونَ مِنْ حَوائجِهم، ولا يَجدونَ في نفُوسِهمْ حَسدًا لهمْ ممَّا أُعطُوا مِنْ فَيءٍ وغَيرِه، ويُفَضِّلونَهُمْ على أنفُسِهمْ في كُلِّ شَيء، ولو كانَ بهمْ حاجَة، ومَنْ مَنعَ نَفسَهُ مِنَ البُخلِ والحِرصِ على المالِ، فقدْ أفلحَ وفاز.

وفي حديثِ جابرٍ المرفوعِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "واتَّقوا الشُّحّ، فإنَّ الشُّحَّ أَهلَكَ مَنْ كانَ قَبلَكم، حملَهمْ على أنْ سفَكوا دِماءَهم، واستَحلُّوا مَحارِمَهم". رَواهُ مُسلم.

والشُّحُّ أشَدُّ البُخل، وأبلَغُ في المنعِ مِنَ البُخل. وفيهِ أقوالٌ أخرى ذكرَها النَّوَويُّ في شَرحِهِ على صَحيحِ مُسلم.

{وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}

والذينَ جاؤوا بعدَ المهاجرينَ والأنصَار، واتَّبَعوا آثارَهمُ الحسَنة، يَقولونَ في دُعائهمُ الطيِّبِ ما تَفسيرُه: ربَّنا اغفِرْ لنا ذُنوبَنا، ولإخوانِنا في الدِّين، الذينَ سبَقونا بفَضيلَةِ الإيمَانِ بكَ وبرَسُولِك، ولا تَجعَلْ في قُلوبِنا حسَدًا وبُغضًا للَّذينَ آمَنوا، ربَّنا إنَّكَ كثيرُ الرَّحمَةِ بالنَّاس، قدْ وَسِعَتْ رَحمَتُكَ كُلَّ شَيء.

(سورة الحشر: ٩ - ١٠)

الأسوة

قالَ اللهُ تعالَى:

{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَـــاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْـتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَـيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (الممتحنة: ٤)

لقدْ كانَ لكمْ قُدوَةٌ حسنَةٌ في نَبيِّ اللهِ إبراهيمَ وأتباعِهِ المؤمِنين، إذْ قالوا لقَومِهمُ المشرِكين: تَبرَّأنا منكمْ ومِنَ الأصْـــنامِ والكَواكبِ التي تَعبُدونَها مِنْ دونِ الله، كفَرنا بدينِكمْ وأنكَرنا طَريقتَكم، وقدْ وجبَتِ العَداوَةُ والبَغضـــاءُ بينَنا وبينَكمْ ما دُمتُمْ على كُفرِكم، حتَّى تُوَحِّدوا اللهَ وتَعبُدوهُ وَحدَهُ لا شَريكَ له، إلاَّ ما جاءَ مِنْ قَولِ إبراهيمَ لأبيهِ الكَافِر: سأستَغفِرُ لك، ولا أملِكُ سِوَى الدُّعاءِ لك، ولا أقدِرُ على رَدِّ عَذابِ اللهِ عنكَ إنْ عصَيتَهُ وأشرَكتَ به.

وقالَ هوَ والمؤمِنونَ معَهُ مُتبَرِّئينَ مِنْ قَومِهمُ الكافِرين، مُفَوِّضـــينَ أمرَهمْ إلى رَبِّهم: اللهمَّ إنَّنا اعتمَدنا عَليك، وإليكَ رجَعنا في أُمورِنا كُلِّها، ومَرجِعُنا إليكَ في يَومِ القِيامَة.

وقَصـــدُ إبراهيمَ مِنَ الاســـتِغفارِ لأبيهِ هوَ طلبُ الهِدايَةِ له، ويَجوزُ هذا مادامَ الأبُ على قَيدِ الحياة، ولا يَجوزُ الاســـتِغفارُ لهُ بعدَ مَوتِهِ إذا ماتَ على الكُفر، وقدْ تبرَّأَ إبراهيمُ مِنْ أبيهِ بعدَ مَوتِهِ كافِراً ولم يَســـتَغفِرْ له، قالَ اللهُ تَعالَى: {وَمَا كَانَ اسْـــتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [سورة التوبة:١١٤].

الفداء

منَ المؤمنينَ مَنْ يَهَبُ ما ملكَ ليَنفُذَ بإيمانِه؛ طلباً لرضَى الله، كما فعلَ صُهَيبٌ الروميّ، عندما أســـلمَ بمكَّةَ وأرادَ الهِجرةَ إلى المدينة، فمُنِع، فتجرَّدَ منْ مالِهِ وتخلَّصَ منهمْ بذلك. فمثلُ هذا يرحمهُ الله.

والآيةُ التاليةُ في كلِّ مجاهدٍ في سبيلِ الله، يَهَبُ روحَهُ ليَرضَى عنهُ الله، تاركاً الدُّنيا وما فيها، لينتصرَ لدينِ الله، فتَنتَشِرُ المبادئُ العَظيمة، والأحكامُ العادِلة. فشتّانَ بين المنافِقِ وما طَلب، وبينَ المؤمنِ المجاهدِ وما وَهَب.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ} (البقرة:٢٠٧)

وبيَّنَ الله تعالَى في آيةٍ أخرى، أن الذين آمَنوا وسلَكوا منهجَ الحقّ، وهاجَروا فتركوا أموالَهُمْ ومنازِلَهُمْ وأهلِيهم، وجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ وصَبَروا على ذلكَ طاعةً لله، فإمّا نَصرٌ أو شَهادة، فإنَّهُمْ يَنتظرونَ بُشرَى ثمرةِ إيمانِهِمْ وصَبرِهم: الفوزَ والرحمة، واللهُ يَغْفِرُ لهُمْ ما سَلف، ويرحمُهمْ برَحمتهِ الواسِعة.

قالَ اللهُ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة:٢١٨)

وكانَ المؤمنونَ معَ جهادِهِمْ وطلبِهِمْ رِضاءَ اللهِ يَقولون: ربَّنا اغفِرْ لنا ما اقتَرَفنا مِنْ ذنوب، وما تجاوَزنا فيهِ الحدّ، وفرِّطنا منْ أمر، وأيِّدْنا بتأييدٍ مِنْ عندِكَ في مَواطنِ الحَرب، وثبِّتنا على دينِكَ الحقّ، وانصُرنا على أعدائكَ وأعداءِ دينِكَ منَ القَومِ الكافِرين.

{وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ} [آل عمران:١٤٧]

فكانَ جزاءَ هؤلاءِ المؤمنينَ الصابرينَ وجوابَ دُعائهم، أنْ آتاهُمْ ثوابَ الدنيا بالنصرِ والعِزِّ والعاقِبَةِ الحسَنة، وفي الآخرةِ النعيمُ الدَّائم، واللهُ يُحِبُّ مَنْ آمنَ وأحسَن، وأتْبعَ إيمانَهُ بالعملِ الصَّالح.

{فَآَتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآَخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ المحْسِنِينَ} [آل عمران:١٤٨].

الحذر

أيُّها المؤمنون، لا تَتشـــبَّهوا بالكافِرين في أقوالِهِمْ وأفعالِهِم، فلا تَقولوا كما قالوا للَّذينَ ماتوا منْ أصحابِهِمْ عندما سافَروا للتِّجارةِ أو غيرِها، أو مضَوا إلى الغَزو: لو أنَّهُمْ بَقُوا عندَنا لم يَموتوا ولم يُقْتَلوا. وقدْ جعلَ اللهُ فيهِمْ هذا الاعتقادَ ليَزدادوا حُزناً وكَمَداً، فهمْ ليسُـــوا مثلَ المؤمِنينَ الذينَ يَتلقَّونَ الابتلاءَ بالصَّبرِ والاحتِساب، ويَرضَونَ بقضاءِ اللهِ وقَدَره، فالأمرُ كلُّهُ بيدهِ سبحانَه، فهو المحيي والمميت، إنْ قدَّرَ لهمُ الموتَ ماتُوا، وإنْ لم يُقَدِّرْ لهمْ ذلكَ لم يَموتوا، سواءٌ أكانوا في تِجارةٍ، أمْ حَرب، أمْ غَيرِها. واللهُ عالمٌ بخَلْقِه، بصيرٌ بشُؤونِهم، لا يخفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أمرِهم.

قالَ اللهُ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَـــرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْـرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [آل عمران: ١٥٦].

الحرب

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّـــلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء: ٧٧].

ألا تَنظرُ أيُّها النبيُّ إلى بعضِ المسلِمينَ الذينَ طُلِبَ منهمْ أنْ يَكُفُّوا عنْ قِتالِ المشرِكينَ ويَعفوا عنهمْ عندَما كانوا ضُـــعفاءَ بمكَّة، وقيلَ لهمْ وقتَها: قُومُوا بواجبِكمْ في الطَّاعةِ وجِهادِ النَّفس، فأقِيموا الصَّلاةَ بخُشوع، وأعطُوا الزكاةَ لتواسُوا بها الفُقَراءَ والمساكينَ، لكنَّهمْ كانوا يَطلبونَ منكَ أنْ تأذنَ لهمْ بقِتالِ المشركين؛ لِما يَلقَونَ منهمْ منَ الأذَى.

ولما قَوُوا وفُرِضَ عليهمُ الجِهاد، وطُلِبَ منهمْ مُقاتَلةُ الكفّار، إذا فريقٌ منهمْ يَخشَـــونَهُمْ كما يَخشَونَ اللهَ أنْ يُنْـــزِلَ بهمْ بأسه، أو أكثَر، وذلكَ لِما أصابَهُمْ مِنْ خَوفٍ وجَزَع – والمسلمونَ مُتفاوِتونَ في قوَّةِ الإيمان، وفي لقاءِ الأعداء – وقالَ أولئكَ الخائفون: ربَّنا لِمَ فَرضـــتَ علينا

القِتالَ الآن، فلَو أخَّرتَ فَرْضَهُ إلى وقتٍ آخَرَ لكانَ أفضَل، ففيهِ سَفكٌ للدِّماء، ويُتْمٌ للأبناء، وتأيُّمٌ للنِّساء...

قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: إنَّ جميعَ ما يُستَمتَعُ بهِ في الدُّنيا هوَ قليلٌ جدّاً نسبةً إلى الثَّوابِ المترَتِّبِ على الأعمالِ الطيّبةِ في الآخِرة، ومنها الجِهادُ في سَبيلِ الله، فالآخِرةُ لمنْ جاهدَ واتَّقَى خيرٌ منَ الدُّنيا ومَتاعِها القَليل.

ولنْ تُظلَموا فيما تُؤدُّونَهُ مِنْ أعمال، ولا تُنقَصونَ مِن ثوابِها أدنَى شيء، ولو مِقدارَ الخيطِ الذي في شِقِّ النَّواة، وكلَّما كثُرَتْ وعَظُمَتْ زادَ ذلكَ مِنَ الأجر، فلا تَرغَبُوا عنِ القِتال، ودَعُوا الدُّنيا وغُرورَها، وأقبِلوا على ما يُهَنِّئكمْ في الآخِرَة، فهيَ خيرٌ لكم.

*** *** ***

وفي مقدِّماتِ غزوةِ بدر:

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [الأنفال: ٥]

كانَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قدْ خرجَ معَ ثلاثِمِئةٍ وبِضعَةَ عشرَ رجلاً مِنْ أصحابهِ يَطلبونَ قافلةً كبيرةً لأبي سُفيان، مُحَمَّلةً بأطعمةٍ وأموالٍ جَزيلةٍ لقُرَيش، قادمةً منَ الشَّام، فسَمِعَ أبو سفيانَ بخروجِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فبعثَ إلى مكَّةَ يَستَنجِدُ بمشرِكي قُرَيش، فخَرجَ منهمْ نحوُ ألفِ مُحارِب. وقدْ نَجَتِ القافِلَة، ثمَّ شاورَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابَهُ في الحرب، فوافَقوه، وكَرِهَ بعضُهمْ ذلك.

ويجادلُكَ هؤلاءِ الكارِهونَ في القِتالِ بعدَما تبيَّنَ لهمْ أنَّكَ ستُنَفِّذُ أمرَ اللهِ وتُقاتِل، ويَقولون: ما كانَ خروجُنا إلاّ للقافِلَة، ولم نَستَعِدَّ للحَرب. ولشدَّةِ كراهيَتِهمْ لذلك، كانتْ حالُهُمْ كأنَّما يُساقُونَ إلى الموتِ وهمْ يُشاهِدونَ علاماتِه!

واذكُروا معَ ما بكمْ منَ الجزَعِ وقلَّةِ العَدد، أنْ وعدَكمُ اللهُ الفَوزَ بإحدَى الغَنيمَتَين: إمّا قافِلةَ أبي سفيان، وإمّا النصرَ على جَيشِ المشرِكين. وأنتمْ تحبُّونَ التي لا قوَّةَ فيها ولا قِتال، وهي القافِلة. بينَما يريدُ اللهُ أنْ يُظهِرَ دينَه، ويَرفعَ رايةَ الحقّ، ويُهلِكَ الكافِرين، حتىَّ لا يُبقي منهمْ أحداً. ولذلكَ أمرَكمْ بقتالِهم.

ليُثبِتَ الإسلامَ بذلكَ ويجعلَهُ غالِباً على الأديانِ، ويَمحَقَ الكُفر، ولو كَرِهَ المشرِكون.
(تفسير الآيات ٥ – ٨ من سورة الأنفال)

وقالَ اللهُ تعالَى: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [الأنفال: ٤٧]
أي: لا تكونوا – مَعشرَ المؤمِنينَ – مثلَ المشرِكين، الذينَ خَرَجوا مِنْ مكَّةَ مُفاخَرةً وتكبُّراً، ليُثنيَ عليهمُ الناسُ بالشَّجاعة والكرَم، وهمْ يَمنَعونَ الناسَ منَ الجَهرِ بالحقِّ واعتِناقِ الإسْلام. وكانوا قدْ أبَوا الرُّجوعَ إلى مكَّةَ بعدَ أنْ نَجَتِ القافِلةُ إلاّ أنْ يَشرَبوا الخمرَ على ماءِ بَدر، وتَعْزِفَ عليهمُ القِيان، ويَنحَروا الإبلَ ويُطعِموا مَنْ حَضرَهمْ منَ العَرب، فأبدلَهُمُ اللهُ بذلكَ كأسَ المنايا، وناحَتْ عليهمُ النوائحُ بدلَ أنْ تغنِّيَ لهمُ المغنِّيات، ورجَعوا بالخِزي والهزيمةِ ومَقتَلِ الأهلِ والأصحاب، فلا تَتشبَّهوا بهم، وليَكُنْ خروجُكمْ لإعلاءِ كلمةِ الله، ودفعِ الباطِل، وصدِّ العُدوان، واللهُ خبيرٌ بأعمالِ المشرِكينَ وإفسادِهم، مُطَّلِعٌ على ما تُخفيهِ صدورُهمْ منْ كراهيةٍ وعداوةٍ تجاهَ المسلِمين.

وبعدَ النصر: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٧]
ما صحَّ وما استَقامَ لنبيٍّ منَ الأنبياءِ – والمقصودُ هنا نبيُّنا محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم – أنْ يَستَبقيَ أسرَى مِنَ المشرِكين، حتَّى تَضْعُفَ شَوكتُهم، وتَشتدَّ شَوكةُ المسلِمين، فيكونوا همُ الأقوَى الذينَ يُرهِبونَ أعداءَهم.
أتُريدونَ أيُّها المسلِمونَ بقَبولِ الفِداءِ منهمْ بدلَ قَتلِهمْ حُطامَ الدُّنيا، واللهُ يريدُ لكمْ ثوابَ الآخِرَة، وإعزازَ دينِه، وقمعَ أعدائه؟ وهوَ العَزيزُ الذي يَنصرُ أولياءَهُ على أعدائه، حكيمٌ في سَنِّ شرائعِ الحَرب.
والآيةُ في أسرَى بَدر، وقدِ استشارَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَهُ فيهم، فمالَ إلى مَنْ يرَى قَبولَ الفِديةِ منهم، دونَ قتلِهم.
{لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٦٨].

ولولا حُكمٌ منَ اللهِ في اللَّوحِ المحفوظ، بأنْ لا يعذِّبَ قَوماً قبلَ تَقديمِ ما يبيّنُ لهمْ أمراً أو نَهياً، لأصابَكمْ فيما أخذتُموهُ منَ الفِداءِ منَ الأسرَى عَذابٌ كَبير.

ذُكِرَ أنَّ أصحابَ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم كفُّوا أيديَهُمْ عمّا أخَذوا منَ الفِداء، فنزلتِ الآيةُ التالية، فأخَذوه.

واستقرَّ رأيُ عامَّةِ الفُقهاءِ – مِنْ بعدُ – على أنَّ الإمامَ مخيَّرٌ في الأسرَى، إنْ شاءَ قَتَل، وإنْ شاءَ فادَى، حسَبَ ما تَتطلَّبهُ مصلحةُ المسلِمين، وكانَ مِنْ مَصلَحَةِ المسلِمينَ إذْ ذاكَ أنْ يُقتَلوا، ولكنَّ اللهَ سلَّمَ وعَفا.

*** *** ***

قالَ الله تعالَى:

{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٥٢]

صَدقَ اللهُ وعدَهُ معَكمْ بالنَّصرِ في غزوةِ أُحُدٍ أيها المؤمنون، كما كانَ في أوَّلِ النَّهار، عندَما سلَّطكمُ اللهُ عليهِم، فصِرتُمْ تَقتلونَهم، وكِدتُمْ أنْ تَستأصِلوا شأفتَهم، حتَّى إذا جَبُنَ بعضُكمْ في القِتال، نتيجةَ النزاعِ والخِصامِ الذي دارَ بينَكم، وعصَى بعضُكمُ الآخَرُ – وهمْ الرُّماةُ – قائدَهُمْ محمَّداً صلى الله عليه وسلم، وكانَ قدْ أمرَهمْ ألاّ يَبرَحُوا مكانَهم، فنَزلوا يَنهَبونَ في العَسكر، فبقيَ ظهرُ المسلِمينَ مَكشوفاً للعدوّ، أراكمُ اللهُ الفشَلَ بعدَ النصر، فقدْ شابَ إخلاصَكمْ مَطامِعُ، فمنكمْ مَنْ رَغِبَ في الغَنائمِ عندما رَأى هَزيمةَ العدوّ، ومنكمْ مَنْ أرادَ وجهَ اللهِ في جِهادهِ فثَبتَ في مَكانهِ حتَّى يَتلقَّى أوامرَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، فكانَ نتيجةَ ذلكَ أنْ صَرَفَ قوَّتكمْ واجتماعَكمْ عنِ العدوّ، ففَشِلتُم، ليَختَبِرَ إيمانَكم، ويَمتحِنَ قوَّةَ صُمودِكمْ وعَزيمتِكمْ وتَمسُّكِكمْ بدينِكم، ولتَعتَبروا ممّا أصابَكم، ولا تُكرِّروه، وغفرَ لكمْ ضَعْفَكمْ وتنازُعَكمْ وعصيانَكم، وهذا مِنْ فضلِ اللهِ عليكمْ ورحمتهِ بكم.

{إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

وتَذكَّروا شُـؤمَ عِصـيانِكم، عندما بدأتُمْ تَصْـعَدونَ إلى الجبلِ هروباً منْ عَدوِّكم، ولا تَنظرونَ وراءَكمْ مِنَ الخَوف، ولا تَسمعونَ كلامَ أحد، لِما أصابَكمْ منْ رُعْبٍ وهَلَع! والرسولُ يُناديكمْ – وقد خَلَّفتُموهُ وراءَكمْ – ليَجمعَكمْ ويُطَمْئنَكمْ بأنَّهُ ما زالَ حيّاً، لا كما أشـاعَ العدوُّ بأنَّهُ قُتل! لتَكِرُّوا عليهمْ مِنْ جديد، فجازاكمْ قلقًا وحزنًا موصولًا بحزن، يملأُ نفوسَكمْ كمدُ الهزيمة، وكرْبُ سماعِكمْ مقتلَ النبيّ صـلى الله عليه وسـلم، حتَّى لا تَحزَنوا على ما فاتَكمْ منَ الغَنيمةِ والنصرِ على عدوِّكم، وعلى ما أصابَكمْ منَ القَتلِ والجِراح. واللهُ مطَّلِعٌ على خَفايا صُدورِكم، لا يَخفَى عليهِ حقيقةُ أعمالِكمْ ودوافِعُ حركاتِكم.

{ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًـا يَغْشَـى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُـهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَـيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِـهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَـيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلَى مَضَـاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُـدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١٥٤]

ثمَّ مَنَّ اللهُ عليكمْ بعدَ هذا الحزنِ بنُعاسٍ يَغشَـى جَماعةً منكمْ وهمْ في لِباسِ الحَرب، ليكونَ سَـكَناً لهمْ وأمناً. وطائفةٌ أخرَى لا يَغشـاهمُ النعاسُ منَ القلقِ والخَوفِ والجَزَعِ (وهمُ المنافِقون) تُهِمُّهمْ نَجاةُ أنفسِـهمْ فَقط، فذَهبتْ بهمْ نفوسُـهمْ إلى ظُنونٍ سـيِّئةٍ لا تُوافِقُ الحقّ، بلْ هيَ مِنْ ظُنونِ الجاهليَّة، وقالوا إنَّهُ قُصِمَ ظهرُ الإسـلامِ بهذا، فلا قيامَ لهُ مِنْ بعدُ، ولا نصرَ لأهلهِ بعدَ اليوم!

وكانوا يَقولون: لقدْ دُفِعنا إلى المعركةِ دَفْعاً دونَ إرادةٍ لنا فيها.

فقلْ لهمْ أيُّها النبيّ: إنَّ الأمرَ كلَّهُ لله، فهوَ الآمِرُ الحاكِم، والكلُّ يؤدّي واجبَهُ تُجاهَ دينهِ وربِّه، وهـذا الـذي قُمتُمْ بـهِ هوَ أداءٌ للواجـبِ المفرُوضِ عليكمْ نحوَ دينِكم. إنَّ نفوسَـهمْ مَلأى بالهواجسِ والوسَـاوس، لم تَكتمِلْ بحقيقةِ الإيمان، فهيَ ما زالتْ تَشـكو منِ اعتِراضـاتٍ واحتِجاجات، فيُخفُونَ حقيقةَ ما يريدونَ قولَهُ لك، وهو: لو كانَ الأمرُ بيدِنا لمِا استَجبنا نداءَ الرسُول، ولمِا حَضَرْنا المعركة، ولَما أصابَنا القتلُ والجِراحات.

فقالْ لهم: لو أنَّكمْ بَقِيتُمْ في بُيوتِكمْ ولم تَخرجوا إلى القِتال، وكان قَدَرُ المقتولِ منكمْ أنْ يكونَ مصرَعُهُ في مكانِ المعركة، لجاءَ إلى هناكَ وقُتِلَ فيه! فهوَ الأجَلُ الذي لا يَتقدَّمُ في حربٍ، ولا يتأخَّرُ في سِلم.

إنَّهُ الجهادُ الذي يَحتاجُ إلى عَزيمةٍ وصَبر، فيَكشِفُ ما في الصُّدور، ويُخرِجُ ما في القُلوب، وتَتبيَّنُ حقيقةُ كلِّ شخصٍ على ما كانَ يُخفيه، ويَتميَّزُ الخبيثُ منَ الطيِّب، ويَظهَرُ المؤمِنُ والمنافق، فهوَ الابتلاءُ والاختِبار، واللهُ عليمٌ بالأسرارِ الخفيَّةِ التي تَختلجُ في الصُّدور، ولا تَنكَشِفُ في النُّور.

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}

إنَّ الذينَ فَرُّوا منَ الحَربِ عندَما تَقابلَ الجيشان، إنَّما كانَ فِرارُهمْ بسببِ ذُنوبٍ سَالفةٍ ارتَكبوها، فضَعُفَ ارتباطُهمْ باللهِ، وفَقدوا ثِقتَهمْ في قوَّتِهم، واختلَّ تَوازنُهُمْ وتَماسُكهم، فوجدَ الشَّيطانُ مَدْخلاً إلى نُفوسِهم، ليَهْجِسَ فيها ويوَسوِس، ويُسَوِّلَ لهمْ حُسنَ الهزيمة! ثمَّ عفا اللهُ عمّا كانَ منهمْ مِنْ فِرار، وهوَ سُبحانَهُ واسِعُ المغفِرَة، حَليمٌ، لا يُعَجِّلُ العُقُوبَةَ لمنْ عَصَاه.

[سورة آل عمران: ١٥٢ - ١٥٥]

وذكَّرهمُ الله تعالَى في موضعٍ آخرَ من السورةِ فقال:

{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:١٦٥]

أي: إذا أصابَكمْ ما جَزِعتُمْ منهُ في يومِ أُحُد، وقدْ أَصَبتُمُ المشرِكينَ يومَ بَدر ضِعْفَ ما أصابُوكمْ بهِ، قلتُم: منْ أينَ أصابَنا هذا وكيفَ جرَى؟ قُل: هوَ بسببِ عِصيانِكمْ أوامرَ رسولِكمْ حينَ أمرَكمْ ألاّ تُغادِروا مكانَكم، فأبَيتُمْ ونزلتُمْ تَجمَعونَ الغَنائم. واللهُ يَحكمُ ما يُريد، فإذا أطَعتُمْ انتَصرتُم، وإذا خالفتُمْ أُصِبتُم.

{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ المؤْمِنِينَ}

أي: وما أصابَكمْ يومَ أُحُدٍ منْ فِرارٍ وقَتلٍ وجِراحَاتٍ هوَ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، ولحِكمَة، ليَظهَرَ ويَتميَّزَ مِنْ بينِكمُ المؤمنونَ الذينَ صَبَروا وثَبتوا ولم يَتزَعزَعوا.

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}

أي: ليَظهرَ كذلكَ أهلُ النِّفاقِ المرجِفون، الذينَ قيلَ لهم: تعالَوا جاهِدوا في سَبيلِ اللهِ وقاتِلوا المشرِكين، أو كثِّرُوا سوادَ المسلِمينَ ورابِطوا: قالوا: لو نَعلمُ أنَّكمْ ستَخوضُونَ حَرباً لجئنا مَعكم، ولكنْ لا حَرب. فرجَع كبيرُ المنافقينَ عبدُاللهِ بنُ أبي سَلُولٍ بثُلُثِ الجَيش! فهؤلاءِ صارُوا أقربَ إلى الكفرِ منهمْ إلى الإيمان، حيثُ كانوا سابِقاً يَتظاهَرونَ بالإيمان، فلمّا خَذلوا عسكرَ المسلِمينَ تَباعَدوا عنِ الإيمانِ واقتَربوا منَ الكفر. إنَّهمْ يَقولونَ بألسنتِهم غيرَ ما يُضمِرونَهُ في قُلوبِهم، فقدْ كانوا عازِمينَ على الارتدادِ والانخِذال. واللهُ أعلمُ بما يُخفونَهُ منْ كُفرٍ ونِفاق، وما يَغْمِرُ قلوبَهم مِنْ شرٍّ وفَساد.

[سورة آل عمران: ١٦٥ – ١٦٧]

وقدِ استَجابَ المؤمنونَ لنِداءِ الله، وأطاعُوا رسولَهُ عندَما دَعاهُمْ لتَتَبُّعِ المشرِكينَ ليُرعِبوهمْ ويُرُوهُمْ أنَّ بهمْ قوَّةً وجَلَداً، ولو أنَّهمْ كانوا مُرْهَقين مُثخَنينَ بالجِراح، ولم يَنْدُبْ أحداً لملاحقتِهم حتَّى "حمراءِ الأسدِ" إلاّ مَنْ ثَبتَ معَهُ يومَ أُحُد. وكانَ أبو سفيانَ قدْ عَتبَ على المشرِكينَ لأنَّهمْ لم يَغزوا المدِينَة.

وقدْ تَحقَّق الغَرضُ منْ تَتبُّعِهم، فرجَع أصحابُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عندَما لم يَروا أحداً. فهؤلاءِ الذينَ استَجابوا وثَبتوا على مواقفِهمْ واتَّقَوا ربَّهم، لهمْ ثَوابٌ كَبير.

إنَّهمُ المجاهِدونَ المؤمِنون، الصَّابرونَ المتوكِّلون، الذينَ توعَّدهمُ الناسُ بالجُموعِ الكبيرةِ وخوَّفوهُمْ كثرةَ الأعدَاء، فما اكتَرثوا لذلكَ وما جَبُنوا، بلْ زادَهمْ ذلكَ إيماناً وثَباتاً وعَزيمة؛ لحُسنِ تَوكُّلِهمْ على الله، ويَقينِهمْ بما وَعَدَهُمُ اللهُ به، فاستَعانوا بهِ وقالوا: حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكيل، فهوَ حَسْبُنا وكافِينا، ونرضَى بهِ وحدَهُ وكيلاً وحافِظاً.

فرجَعوا إلى بلدِهمْ وقدْ ردَّ اللهُ عنهمْ بأسَ مَنْ أرادَ كيدَهمْ وأذيَّتَهم، وكفاهُمْ لحُسنِ توكُّلهمْ عليه، فسَلِموا ونجَوا، ونالوا رِضوانَ اللهِ باستجابةِ نِداءِ رسولِه، وفَضلُ اللهِ عَظيمٌ على عِبادهِ المؤمنين.

تفسير للآيات (١٧٢ – ١٧٤) من سورة آل عمران:

{الَّذِينَ اسْـتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُـولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَـابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}.

*** *** ***

وفي غزوةِ الأحزاب:

{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً} (الأحزاب : ٢٢)

والمؤمِنونَ الصَّادِقونَ الراسِخونَ في إيمانِهِمْ لما رَأوا أحزابَ الكفرِ قدِ اجتَمَعوا عَليهم، وتذَكَّروا ما وعدَهمُ اللهُ بهِ مِنَ الابتِلاءِ والشـدَّة، ثمَّ النَّصـرِ على الكافِرين، قالوا في إيمانٍ ويَقين: هذا ما وعدَنا اللهُ ورَسولُهُ مِنَ الابتِلاءِ والاختِبار، وصدَقَ اللهُ ورَسُولُه، في الابتِلاء، وفي الانتِصار، وما زادَهمْ ذلكَ إلاّ إيمانًا باللهِ وتَصديقًا بوَعدِه، وتَسليمًا لأمرِهِ وقَدَرِه، وطاعَةً لرَسُولِه.

*** *** ***

قالَ اللهُ عزَّ وجلّ: {لَقَدْ نَصَـرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥]

وقدْ نَصـرَكمُ اللهُ أيُّها المؤمِنونَ في مَواضـعَ كثيرةٍ منَ الحروب. وفي غَزوةِ حُنَينٍ –وهي وادٍ بينَ مكَّةَ والطائفِ – بعدَ فتحِ مكَّة، تجمَّعتْ ثقيفٌ وهَوازِنُ وغيرُها لمحاربتِكم، وكنتُمْ في عَددٍ كثير، أضعافَ عَددِ المشرِكين، فأعجبَكمْ ما أنتُمْ عليهِ مِنْ كثرة، حتَّى قالَ بعضُكمْ: لنْ نُغْلَبَ اليومَ عنْ قِلَّة، فشَقَّ ذلكَ على رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ووكَّلكمُ اللهُ إلى أنفسِكم، لتَعلَموا أنَّ ما كانَ منْ نَصرٍ فهوَ بتأييدِهِ وتَقديرِه. وبينما حَملتُمْ على المشرِكين في أوَّلِ الأمر، إلاّ أنَّكمْ لم تَثبُتوا مِنْ بعد، فهَربتُم، إلاّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ومَنْ بقيَ معَه، فلمْ تَنفعْكُمْ تلكَ

الكَثرةُ شَيئاً، وضاقتْ عليكمُ الأرضُ بسَعَتها، لا تَدرونَ أينَ تهرُبون، منَ الخوفِ والرُّعب، ثمَّ ولَّيتُمُ الكفّارَ ظُهورَكمْ مُنهزِمين.

{ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ} [التوبة: ٢٦]

ثم أنزلَ اللهُ بعدَ الهزيمةِ أمنَهُ ورحمتَهُ على رَسولِهِ وعلى المجاهِدين، وأنزلَ ملائكتَهُ الذينَ لم تَرَوهم، لتَشجيعِ المسلِمينَ وتَقويتِهم، ولإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِ المشرِكين، وعذَّبَ الذينَ كفَروا بالقَتلِ والأسرِ وسَبي العِيالِ والأموال، وهذا جزاءُ مَنْ آثرَ الكفرَ على الضَّلال، وحاربَ اللهَ ورسولَه.

*** *** ***

أيُّها المؤمِنون، ما لكمْ إذا قيلَ لكمُ اخرُجُوا إلى الجِهادِ في سَبيلِ الله، في غَزوةِ تَبوك، تباطأتُمْ وتكاسَلتُم، وكَرِهتُمْ مَشاقَّ الجِهادِ ومَتاعبَهُ في الحرّ، ومِلتُمْ إلى الإقامةِ والرَّاحة، والتمتُّعِ بالشَّهواتِ الدُّنيا والثِّمارِ الناضِجَة! (وكانتِ الغَزوةُ في وقتِ نُضوجِها). أرضِيتُمْ بالحياةِ الدُّنيا الفانيةِ منَ الآخِرَةِ ونَعيمِها الدائم؟ فإنَّ الاستِمتاعَ بالحياةِ الدُّنيا ولذائذِها بالنسبةِ إلى الحياةِ الأخرَى قليلٌ لا يُذكَر، وحقيرٌ لا يُعبَأ به.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ} [التوبة: ٣٨]

*** *** ***

{هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (محمد : ٣٨)

ها أنتُمْ تُدْعَونَ للإنفَاقِ في طاعَةِ الله، مِنَ الجِهادِ وغَيرِه، فمِنكمْ مَنْ يَبخَلُ بمالِهِ فلا يُجيب، ومَنْ يَبخَلْ بما عندَهُ فإنَّما يَضرُّ نَفسَه، ويَنقُصُ مِنْ أجرِه، واللهُ غَنيٌّ عنْ طاعَتِكم، غَيرُ مُحتاجٍ

إلى أموالِكم، وأنتمُ الفُقَراءُ إليه، المحتاجُونَ إلى رِزقِه، فإنفاقُكمْ أو عدَمُهُ مَحسُـــوبٌ لكمْ أو عَليكم. وإذا أعرَضتُمْ عنْ طاعَةِ اللهِ يَستَبدِلْ بكمْ قَومًا آخَرينَ، ولا يَكونوا مثلَكمْ مُعرِضينَ عنْ أمرِ الله، بلْ يَسمَعونَ ويُطيعون.

*** *** ***

وتابَ اللهُ على الثلاثةِ منَ الصَّـحابةِ الذينَ تَخلَّفوا عنْ غَزوةِ تبوكَ تكاسُـلاً لا نِفاقًا، وقدْ تابُوا إليه. وتأخَّرَ نزولُ توبَتِهمْ عنْ آخَرِينَ ممَّنْ ربَطوا أنفسَـــهمْ بســـواريِّ المســـجِدِ حتَّى يَتوبَ اللهُ عليهم، فتابَ عليهم، وبقيَ أمرُ الثلاثةِ مُعَلَّقًا، حيثُ لم يَفعلوا مثلَما فَعَلوا. وأمرَ رَســـولُ اللهِ صـــلى اللهُ عليه وســـلم بالإعراضِ عنهم، وعَدمِ مُجالَسَـــتِهمْ ومُحادثَتِهم. وتأخَّرَ أمرُهمْ إلى أنْ ضـاقَتْ عليهمُ الأرضُ على رَحْبِها وسَـعَتِها، وضـاقَتْ قُلوبُهم، وامتلأتْ نُفوسُـهمْ حُزناً وغَمًّا، وتَحيَّروا، فلا يَدرونَ ما يَصـنَعون، وعَلِموا أنَّهُ لا مَلجأ منْ سَـخطِ اللهِ إلاّ بالإنابةِ إليه، والصَّـبرِ على قَضـائه، والاستِكانةِ إليه، وانتِظارِ الفرَجِ منْ عندِه، ثمَّ وفَّقَهمُ اللهُ للتَّوبةِ والثبَاتِ عليها إلى أنْ أنزلَ قَبولَ توبَتِهم؛ لصِـــدْقِ مَقالِهم، وإخلاصِـــهم، واللهُ كثيرُ قَبولِ التوبةِ مِنْ عباده، رَحيمٌ بهم، فلا يُعَذِّبُهمْ بذنوبِهمْ بعدَ قَبولِ تَوبتِهم، ولو كانتْ كثيرَة.
قالَ اللهُ تعالَى: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُـــهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١١٨]

*** *** ***

لما عزَمَ رسُـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسـلم على فَتحِ مكَّة، عَمَدَ الصَّـحابيُّ حاطِبُ بنُ أبي بَلتَعةَ فكتبَ كتابًا إلى بَعضِ المشرِكينَ يُخبِرُهمْ ببَعضِ أمرِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وأرسلَهُ معَ امرأة، فأُخْبِرَ عليهِ الصَّـلاةُ والسَّـلامُ بذلكَ وَحيًا، فبَعثَ عليًّا والزُّبَيرَ والمِقدادَ رَضـيَ اللهُ عَنهمْ

ليَأخُذوهُ منها، ثمَّ بعثَ إلى حاطِبٍ يَسـألُهُ عنْ سـبَبِ ما فَعلَه، فذكرَ أنَّهُ كانَ لخَوفٍ على قَراباتِهِ بمكَّة، ليتَّخِذَ عندَ المشرِكينَ يَدًا بذلك، فلا يُؤذُونَهم، وليسَ رِضًى بالكُفر. فنزَلَتِ الآيَة.

أيُّها المؤمِنون، لا تتَّخِذوا عَدوّي وعدوَّكمْ مِنَ الكافِرينَ أصـدِقاءَ تُوالُونَهم، تَمُدُّونَ إليهمْ يدَ المحبَّةِ والتَّقارُب، وقدْ كفَروا بالقُرآنِ الموحَى بهِ مِنْ عندِ الله، يُخرِجونَ الرسُولَ وإيَّاكمْ مِنْ بينِ أظهُرِهم، لا لشَـيءٍ إلاّ لإيمانِكمْ بربِّكمْ وإخلاصِـكمُ العِبادَةَ لهُ وَحدَه، فلا تتَّخِذوهمْ أصـدِقاءَ إنْ كنتُمْ خرَجتُمْ مُجاهِدينَ في سَـبيلي تَبتَغونَ مَرضـاتي، تُشـعِرونَهمْ بالمودَّةِ سِـرًّا وأنا أعلَمُ بما أخفَيتُموهُ في صُـدورِكمْ وما أظهَرتُموهُ بألسِـنَتِكم، ومَنْ يَفعَلْ ذلكَ منكمْ فقدْ أخطأَ طَريقَ الهُدَى وانحرَفَ عنِ الصَّواب.

وهو معنى قولهِ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُـولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} (الممتحنة : ١)

التجارة

{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّـوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (الجمعة : ١١)

قالَ جابِرٌ رَضـيَ اللهُ عنه: أقبَلَتْ عِيرٌ – أي قافِلَةٌ مُحمَّلَةٌ بالمتاعِ – يَومَ الجُمُعَة، ونحنُ معَ النبيِّ صـلى الله عليه وسـلم، فثارَ النَّاسُ إلاّ اثنَي عشـرَ رَجُلاً، فأنزلَ الله: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا...}. رَواهُ البُخاريُّ في صَحيحِه.

وتفسـيرُ الآية: إذا رَأَوا تِجارَةً قادِمَة، أو تَصـفيقًا وطَبلاً، أو دُفًّا يُضـرَبُ بهِ لاسـتِقبالِ القافِلَة، تَفرَّقوا مِنْ عندِكَ وقامُوا إلى التِّجارَة، وتركوكَ قائمًا تَخطُبُ على المِنبَر، قُلْ لهمْ أيُّها الرسُـول: إنَّ ما أعدَّهُ اللهُ مِنَ الأجرِ والثَّوابِ في الدَّارِ الآخِرَة، خَيرٌ مِنَ القِيامِ إلى اللَّهوِ وطلَبِ البَيعِ والشِّراءِ في هذا الوَقت، فإنَّ نَفعَ ما عندَ اللهِ مُحقَّق، ونَفعَ اللَّهوِ في الدُّنيا ليسَ بمُحَقَّق، بلْ مُتوهَّم، ونَفعَ التِّجارَةِ ليسَ بمُخَلَّد. وتَقديمُ اللَّهوِ على التِّجارَةِ هُنا لأنَّهُ أقوَى مَذَمَّة.

واللهُ خَيرُ مَنْ رزَقَ وأثَاب، وهوَ مُوجِدُ الأموَالِ والأرزَاق، فاســـعَوا إليه، واطلُبوا منهُ الرِّزقَ في وَقتِهِ كما أمرَكم.

الفصل السادس

مواقف نسائية

{ضَـــرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـــالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} (التحريم : ١٠)

ضـرَبَ اللهُ مثَلاً للكافِرين، حالَ امرأةِ النبيّ نُوح، وامرأةِ النبيّ لُوط، عَليهما السَّـلام، فقدْ كانَتا زَوجَتَينِ لعَبدَينِ صالحَينِ مِنْ عِبادِنا، فخانَتاهُما في دِينِهما، ولم تَتَّبِعاهُما. وكانتِ امرأةُ نُوحٍ تَقولُ عنهُ مَجنون، وامرَأةُ لُوطٍ تَدلُّ قَومَها على ضُـيوفِهِ ليَعمَلوا الفاحِشـة. فلمْ يَنفَعْهُما كَونُ زَوجَيهِما رَسُولَينِ يَومَ القِيامَة، وقيلَ لهما: ادخُلا النَّارَ معَ سائرِ الكفرَةِ المجرِمين.

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (التحريم : ١١)

وضـــرَبَ اللهُ مثَلاً للمُؤمِنين، امرأةَ فِرعَونَ المؤمِنَة، وزَوجُها كافِرٌ مُســـتَكبِر، فقالتْ داعيَةً رَبَّها: اللهمَّ ابنِ لي بَيتًا في جنَّتِك، وخَلِّصْـــني مِنْ فِرعَونَ المتكَبِّرِ وعمَلِهِ الســـيِّء، فإنِّي أبرَأُ إليكَ منهُ ومِنْ شِـــركِه، وخَلِّصْـــني مِنْ قَومِهِ الكافِرينَ المجرِمين. فهذهِ مؤمِنةٌ لم يَضُـــرَّها كفرُ زَوجِها، ولو كانتْ مُخالِطَةً له.

{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} (التحريم : ١٢)

والصِّدِّيقَةَ الطَّاهِرَةَ مَريمَ بِنتَ عِمْران، التي صانَتْ عِرضَها، وحَفِظَتْ فَرجَها مِنْ دنَسِ المعصِيَة، فنفَخنا فيهِ بواسِطَةِ جِبريل، فحمَلَتْ بعيسَى عَليهِ السَّلام، وآمنَتْ بوَحي الله، وشَرائعِهِ لعِبادِه، وكُتُبِهِ المنزَلَة، وكانتْ مِنَ القَومِ المؤمِنينَ المواظبينَ على الطَّاعَةِ والعِبادَة، فأكرمَها اللهُ في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة.

(سورة التحريم، الآيات ١٠ – ١٢)

*** *** ***

عندما بشَّرتِ الملائكةُ العَفيفَةَ الطاهرةَ مَريم بعيسى عليه السلام، قالت: يا ربّ، وكيفَ يكونُ لي وَلدٌ ولم يَقْرَبْني رَجُل؟

فقالتْ لها الملائكةُ عنِ اللهِ تعالَى: هكذا أمْرُ الله، لا يُعْجِزُهُ شَيء، فهوَ يَخلقُ ما يَشاءُ كيفَما شَاء، وفي أيّ وقتٍ شَاء، وإذا أرادَ شَيئاً فإنَّما يُخْلَقُ بقولهِ "كُنْ"، ولا يَتأخَّر.

وتتأكَّدُ مَريمُ مِنْ قُدرَةِ الله، وتَزولُ حَيرتُها، ويَطمَئنُّ قلبُها.

{قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران:٤٧].

*** *** ***

في حَديثٍ صَحيحٍ رواهُ الترمذيُّ والحاكمُ وأحمدُ، أنَّ أمَّ سَلَمةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: يَغزو الرِّجالُ ولا تَغزو النِّساء، وإنَّما لنا نِصفُ الميراث: فأنزلَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى: {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}.

أي: ولا تَتمنَّوا ما أعطاهُ اللهُ تَعالَى بَعضَكمْ وميَّزَهُ بهِ عَليكم، فلِكلٍّ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ نَصيبُهُ الذي قَسَمَهُ اللهُ له، فهيَ قِسْمَةٌ صَادِرَةٌ مِنْ حَكيمٍ خَبير، وعلى الكلِّ أنْ يَرضَى بما قُسِمَ له، ولا يَتمنَّى حَظَّ الآخَرِ ولا يَحْسُدُهُ على ذلك، واسألوا اللهَ مِنْ إحسانهِ وإنعامِه، فإنَّ ما عندَهُ كثيرٌ لا يَنْفَدُ أبَداً، كريمٌ وَهّاب، عَليمٌ بمَنْ يَستَحِقُّ فَضلَهُ فيُعطيه، ممَّنْ لا يَستَحِقُّهُ فيَمنَعُه، ولذلكَ جَعلهمْ مَراتبَ بِحكمَتِه، بحَسَبِ استعدادِهمْ وتَفاوتِ قابليَّتِهم.

{وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} [النساء: ٣٢]

الفصل السابع

مواقف الجن

قالَ اللهُ تعالى:

{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) (سبأ : ١٤)

فلمَّا حكَمنا على سُلَيمانَ بالموت، ما دَلَّ الجِنَّ على مَوتِهِ إلاّ حشَرَةُ الأَرَضَة، وهيَ سُوسَةُ الخشَب، فكانَتْ تأكُلُ عصَاهُ التي كانَ مَتوَكِّئًا عَليها، فلمَّا ضَعُفَتْ سقطَ على الأَرْض، فعَلِمَتِ الجِنُّ أَنَّهُمْ لو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ كما يَدَّعون، لشعَروا بمَوتِه، ولما بَقُوا في الشَّقاءِ والعَمَلِ الصَّعبِ الذي كانَ يُكَلِّفُهمْ بهِ سُلَيمانُ عَليهِ السَّلام.

*** *** ***

{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً}

قُلْ أيُّها الرسُولُ الكَريم: أوحَى اللهُ إليَّ أنَّ مَجموعَةً مِنَ الجِنِّ استمَعوا إلى القُرآنِ وأنا أتلُوه، فآمَنوا به، ورجَعوا إلى قَومِهِمْ وقالوا لهم: لقدْ سَمِعنا قِراءَةَ كتابٍ سَماويٍّ مُعجِز بَديع، يُعجَبُ منهُ لبَلاغَتِه وحُسنِ مَواعظِهِ ومَعانيه.

يَدعو إلى الحقِّ والسَّداد، فآمنَّا به، والتزَمْنا تَوحيدَ اللهِ في العِبادَة، ولنْ نُشرِكَ بهِ أحدًا.

وأنَّهُ علَتْ عَظمَةُ رَبِّنا، وجَلَّ جَلالُه، لم يتَّخِذْ زَوجَةً ولا أولادًا.

وأنَّ إبليسَ اللَّعينَ كانَ يَقولُ على اللهِ قَولاً كذِبًا بَعيدًا عنِ الحقّ، ويَصِفُهُ بالشَّريكِ والولَد.

وأنَّا ما حَسِبنا أنْ يَقولَ الإنسُ والجِنُّ قَولاً كَذِبًا على اللهِ ربِّ العالَمين، ويَنسِبوا إليهِ الزّوجةَ والولَد.

وأنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإنسِ إذا نزَلوا وَاديًا أو مَكانًا مُوحِشًا، يَعوذونَ بعَظيمِ ذلكَ المكانِ مِنَ الجِنِّ أنْ يُصيبَهمْ بشَيءٍ يَسُوؤهم، فَزادُوهمْ طُغيانًا بذلك، وتجرَّأتِ الجِنُّ عَليهمْ وآذَوهم.

وأنَّ الإنسَ ظَنُّوا كما ظنَنتُمْ أيُّها الجِنُّ أنْ لنْ يَبعَثَ اللهُ بعدَ هذهِ المدَّةِ رَسولاً، وقدْ أخطَؤوا وأخطَأتُم.

وأنَّا طلَبنا بُلوغَ السَّماءِ لاستِماعِ كَلامِ أهلِها – حينَ بُعِثَ الرسُولُ صلى الله عليه وسلم – فوَجَدناها مُلِئتْ حُرَّاسًا أقوِياءَ مِنَ الملائكة، وشُهُبًا مِنَ النُّجوم، تَطردُهمْ وتَمنَعُهمْ مِنَ الاستِماع.

وأنَّا كنَّا نَقعُدُ مِنَ السَّماءِ قَبلَ ذلكَ مَقاعِدَ نَستَمِعُ فيها، فمَنْ يَستَرِقِ السَّمعَ اليَومَ يَجِدْ شِهابًا راصِدًا له، يُرمَى بهِ فيُهلِكُه.

وكانَ رَميُ الشَّياطينِ بالشُّهُبِ مَوجودًا قَبلَ مَبعَثِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، ولكنْ أحيَانًا بعدَ أحيَان، وبعدَهُ كانتْ كثرَةُ الشُّهب، والحرَسُ الشَّديد.

وأنَّا لا نَدري هذا الأمرَ الذي حدَثَ في السَّماءِ مِنَ الحرَسِ والرَّمي بالشُّهُب، أهوَ شَرٌّ أُريدَ بأهلِ الأرْض، أمْ أرادَ بهِمْ رَبُّهُمْ خَيرًا وصَلاحًا؟

وأنَّا منَّا – مَعشَرَ الجِنّ – الموصوفونَ بالصَّلاحِ والمعامَلَةِ الطيّبة، ومنَّا قَومٌ دونَ ذلك، وكنَّا جَماعاتٍ مُتفَرّقينَ ذَوي آرَاءٍ مُختَلِفَة.

وأنَّا عَلِمنا أنَّنا لا نَقدِرُ على الإفلاتِ مِنْ أمرِ اللهِ أينَما كُنَّا في أرجَاءِ الأرْض، ولا يُعجِزُ اللهَ أحَدٌ منَّا إذا طلبَه، ولو أمعنَ في الهرَبِ وجاهدَ في الاختِفاء.

وأنَّا لما سَمِعنا القُرآنَ يُتلَى آمَنَّا بهِ مِنْ غَيرِ تَرَدُّد، فمَنْ يؤمِنْ بربِّهِ وما أنزلَهُ على رسُلِه، فلا يَخافُ نَقصًا في الثَّواب، ولا ظُلمًا أو مَكروهًا يَغشَاه.

وأنَّا منَّا المسلِمونَ القائمونَ على أمرِ الإيمَانِ والطَّاعَة، ومنَّا الجائرونَ النَّاكِبونَ عنْ طَريقِ الحقّ، فمَنْ أسلمَ فأولئكَ الذينَ قصَدوا الهِدايَةَ والسَّداد، وطلَبوا الفَوزَ والنَّجَاة.

وأمَّا المشرِكونَ النَّاكِبونَ عنْ طَريقِ الحقّ، فكانوا وَقودًا تُسعَرُ بهمُ النَّارُ في جهنَّم.

(تفسير الآيات ١ – ١٥ من سورة الجن)

*** *** ***

{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ}

وإذْ وَجَّهنا لكَ عَددًا مِنَ الجِنّ – وكانوا تِسعَةً – يَستَمِعونَ إلى القُرآن، فلمَّا حضَروهُ عندَ تِلاوَتِكَ له، قالَ بَعضُهمْ لبَعض: اسكتُوا لنَسمعَه. فلمَّا فُرِغَ مِنَ التِّلاوَةِ انصرَفوا إلى قَومِهِمْ في البِلاد، ودعَوهمْ وأنذَروهمْ ممَّا سَمِعوهُ مِنَ القُرآن.

قالوا لهم: يا قَومَنا، إنَّنا سَمِعنا كتابًا جَليلَ القَدْرِ أُنزِلَ مِنْ بَعدِ موسَى، الذي أُوتِيَ التَّوراةَ –وكانتْ عُمدَةَ عيسَى أيضًا عليهِ السَّلامُ– مُصَدِّقًا لِما أُنزِلَ مِنَ الكتُبِ الإلهيَّةِ السَّابقَة، يَهدي إلى الحقِّ في الاعتِقاد، وإلى نَهجٍ صادِقٍ مُستَقيمٍ في الدِّينِ كلِّه.

يا قَومَنا أَجيبُوا داعيَ اللهِ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم – فهوَ مَبعوثٌ إلى الثَّقَلَين –، وآمِنوا بنبوَّتِهِ ورسَالَتِه، يَغفِرِ اللهُ ما تَقدَّمَ مِنْ ذُنوبِكم، ويُنَجِّكمْ مِنْ عَذابٍ شَديد.

ومَنْ لم يَستَجِبْ لدَعوَةِ الرسُول، ولم يَلتَزِمْ بالدِّينِ الحقّ، فلنْ يَقدِرَ على الهرَبِ مِنَ الله، ولو تحصَّنَ في أيَّةِ بُقعَةٍ مِنَ الأرض، وليسَ لهُ أنصَارٌ يَمنَعونَهُ مِنَ الله، فأولئكَ الذينَ أبَوا اتِّباعَ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم في ضَلالٍ بَيِّن، وبُعدٍ عنِ الحقِّ ظاهِر.

(تفسير الآيات ٢٩ – ٣٢ من سورة الأحقاف)

الفصل الثامن

مواقف الكافرين

الكفر

قالَ اللهُ تعالى:

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} (إبراهيم: ٩)

ألمْ تَسمَعوا خَبَرَ الذينَ مِنْ قَبلِكمْ وما جرَى لهمْ معَ أنبيائهم، مِنْ قَومِ نُوح، وعَاد، وثَمود، وكثيرينَ مِنْ بعدِهم، لا يَعلَمُ عدَدَهمْ وما حصلَ لهمْ إلاّ الله، جاءَتهمْ رسُلُهمْ بالأدلَّةِ القاطِعات، والمعجِزاتِ الواضِحات، فرَدُّوا تَبليغَهمْ ومَواعِظَهمْ في أفواهِهم، فكذَّبوها ولم يَقبَلوها منهم، وقالوا غَيرَ مُبالِين: لقدْ كفَرنا بما جِئتُمْ به، ونَشُكُّ شَكًّا قَويّاً في هذا الذي تَدعوننا إليهِ مِنَ الإيمان، ولا سَبيلَ إلى التَّصديقِ به.

قالتْ لهمْ رسُلهمْ مُنكِرينَ عليهمْ كُفرَهمُ ورَدَّهمُ السيِّء: أتَشُكُّونَ في وُجودِ اللهِ ووَحدانيَّته، وهوَ الذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ وما فيها مِنْ أحياءٍ ونَباتٍ وجَماد، والفِطَرُ السليمةُ تَنطِقُ بذلك، والدَّليلُ يَشهَدُ عَليه؟ وهوَ سُبحانَهُ يَدعوكُمْ إلى دِينهِ ليَغفِرَ لكمْ ذُنوبَكم، ويَلطُفَ بكمْ فلا يأخُذَكمْ بالعَذابِ فَورَ تَكذيبِكمْ وعِصيانِكم، بلْ يؤَخِّرُكمْ إلى أجَلٍ حدَّدَهُ لكم، لتُراجِعوا أنفُسَكم، وتُعيدوا التَّفكيرَ في مَوقِفِكم، وتَتوبوا.

وعادَ هؤلاءِ الكافِرونَ يَقولونَ لرسُلِهمْ غَيرَ مُبالِين: ما أنتُمْ سِوَى بشَرٍ مثلِنا، كأيِّ واحِدٍ مِنْ بَني آدَم، ولا فَضلَ لكمْ عَلينا بشَيء، وإنَّما تُريدونَ بدَعوَتِكمْ إلى التَّوحيدِ أنْ تَصرِفونا وتَمنَعونا مِنِ اتِّباعِ الدِّينِ الذي كانَ عَليهِ آباؤنا مِنْ غَيرِ دَاعٍ لتَركِه، فأتُونا بمُعجِزَةٍ ودَليلٍ خارقٍ على صحَّةِ دَعواكمْ.

قالتْ لهمْ رسُلهم: حقًّا إنَّنا بشَرٌ مِثلُكمْ في الصِّفاتِ الآدَميَّة، ولكنَّ اللهَ يَتفضَّلُ على عِبادٍ لهُ ويميِّزُهمْ بنِعَمٍ غَيرِ مَوجودَةٍ عندَ آخَرِين، وقدْ فضَّلنا عَليكمْ بأنْ أوحَى إلينَا بالنبوَّةِ وأمرَنا بتَبليغِ رسالتِهِ إليكم، ولا مَقدِرةَ لنا على الإتيانِ بالمعجِزاتِ والخَوارقِ التي تَطلبونَها إلاّ بأمرِ اللهِ ومَشيئَتِه، فهوَ وحدَهُ الذي يَخلقُها ويُقدِّرُها. وعلى اللهِ وحدَهُ فليَعتَمِدِ المؤمِنونَ إذا أرَادوا التوكُّلَ عَليه، فهوَ الذي يَحفظُهمْ مِنْ كَيدِ الأعداء، وشَرِّ الأشْرار.

قالتِ الرسُلُ عليهمُ السَّلام: وكيفَ لا نَتوكَّلُ على اللهِ رَبّنا وقدْ هَدانا لدينِه، وبيَّنَهُ لنا بالحُجَّةِ والدَّليل، ويسَّرَ لنا الطَّريقَ إليه، فنحنُ على هُدًى ونُورٍ منه، وسَوفَ نَصبِرُ على أذِيَّتِكمْ وعِنادِكمْ وتَكذيبِكم، ولا نَضعُفُ ولا نَتراجَعُ عنِ الحقِّ الذي نحنُ عَليه، وعلى اللهِ وحدَهُ فليَعتَمِدِ المتوكِّلون، منَ المرسَلينَ والمؤمِنين، وعلى ذلكَ فليَثبتُوا.

وقالَ الكافِرونَ لرسُلِهمْ تَهديدًا وتَرْهيبًا: سنُخرِجُكمْ مِنْ ديارِنا، ومِنْ بينِ أظهُرِنا، أنتُمْ ومَنْ تَبِعَكم، أو لتَصيرُنَّ في مِلَّةِ الكُفرِ التي نَدينُ بها. فأوحَى اللهُ تعالَى إلى رسُلِه، ردًّا عَليهمْ وتَخييبًا لآمالِهم، وقَطعًا لمجادلَتِهم: سنُهلِكُ الكفرَةَ الظَّالمين، لتَماديهمْ في البَغي والظُّلم، وإصرارِهمْ على الكفرِ والتَّكذيب.

ولَنُسكِنَنَّكمْ أرضَهمْ ودِيارَهمْ بعدَ إهلاكِهم. وهذا النصرُ لمنْ آمنَ وخافَ مَقامَ ربِّهِ والوُقوفَ بينَ يَديهِ يومَ الحِساب، وخَشِيَ وعِيدَهُ بالعَذاب.

(تفسير للآيات ٩ – ١٤ من سورة إبراهيم،) حتى قولهِ تعالى: {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} (إبراهيم: ١٤)

*** *** ***

وقالَ إبراهيمُ عَليهِ السَّلامُ في وَعظِهِ وإنذارِهِ لقَومِه: إنّما عَبدتُمْ هذهِ الأصْنامَ لتتَوادَدوا بينَ بَعضِكمُ البَعض، وتَتآلَفوا وتَتواصَلوا عندَ اجتِماعِكمْ على عِبادَتِها في الحيَاةِ الدُّنيا، أمَّا في يَومِ القِيامَةِ فيَتحَوَّلُ هذا التَّحابُبُ بينَكمْ إلى كُفرٍ وبُغض، فتَجحَدونَ ما كانَ بينَكمْ مِنْ ذلك، ويَلعَنُ الأتباعُ منكمُ المتبُوعين، والعَبَدَةُ مَعبوديهم، ومَنزِلُكمُ الذي تأوونَ إليهِ جَميعًا هوَ النَّار، ولا مُعينَ لكمْ يَومَئذٍ ولا مُنقِذَ ليُخَلِّصَكمْ منها.

تفسيرٌ لقولِ اللهِ عزَّ وجلّ: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} (العنكبوت : ٢٥)

*** *** ***

وقالَ أصحابُ الكهفِ عن قومهم، وقد فرُّوا بإيمانهم:

{هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً} (الكهف : ١٥)

أي: هؤلاءِ قَومُنا المشرِكون، قدْ جعَلوا معَ اللهِ آلِهةً يَعبدونَها، مِنْ حجَرٍ وخشَبٍ وغَيرِه، فهلاّ أتَوا بدَليلٍ وبُرهانٍ واضِحٍ على أنَّها حقًّا آلِهة، ولها صِفاتُ الخَلقِ والإماتَةِ والرِّزقِ وما إليه؟ فليسَ هُناكَ أكثَرُ تَجاوزًا للحَقِّ ممَّنْ كذَبَ على اللهِ وقالَ إنَّ هذهِ الآلِهةَ شُرَكاءُ معَهُ في الأُلوهيَّة؟

*** *** ***

وقبيلةُ سبأ:

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} (سبأ : ١٥)

لقدْ كانَ لقَبيلَةِ سبَإٍ في مَسكَنِهِمْ مأرَبَ باليَمَنِ عَلامَةٌ بارِزَةٌ وعِبرَةٌ واضِحَة، فكانَ لهُمْ بُستَانانِ عَظيمانِ عنْ يَمينِ بلَدِهم، وشِمالِه، فكُلوا مِنْ ثِمارِ هاتَينِ الجنَّتَينِ اللَّتينِ أنعمَ اللهُ بهما عَليكم، واهنَؤوا بهما، واشكُروا لهُ على هذا الرِّزقِ الكريم، ولا تُسرِفوا ولا تَبطَروا، ولا تَنسوا الفُقَراءَ ممَّا أنعَمَ اللهُ بهِ عَليكم. إنَّها بَلدَةٌ طَيِّبَةٌ مُبارَكَة، تُنبِتُ لكمْ ما تَشتَهونَ مِنَ الزَّرعِ والثَّمَر، ورَبٌّ كَريمٌ يَرزُقُكم، ويَغفِرُ لكمْ ما فرَطَ منكم، ما دُمتُمْ مُوَحِّدينَ شاكِرين.

فأعرَضوا عنِ التَّوحيدِ والطَّاعَة، ولم يَشكرُوا رَبَّهُمْ على نِعَمِهِ عَليهم، بلْ ضَلُّوا وعبَدوا الشَّمس، فأرسَلنا عَليهمُ السَّيلَ الشَّديدَ الذي لا يُطاق، وبَدَّلناهُمْ ببُستانَيهمُ الكَبيرَينِ المليئَينِ بأنوَاعِ

النِّمارِ، بُستانَينِ ذَواتَي ثَمَرٍ مُرٍّ، ونبَاتِ الأثْلِ ذي الأغصَانِ المعَقَّدَةِ والأوراَقِ الدَّقيقَة، وشجَرِ السِّدْرِ ذي الشَّوكِ الكثيرِ والثَّمَرِ القَليل.

وقدْ جزَيناهُمْ بذلكَ لكُفرِهمُ النِّعمَةَ وضَلالِهِمْ عنِ الحقّ، ولا نُجازِي بمِثلِ هذا الجَزاءِ الشَّديدِ إلاّ الكافِرين.

وممَّا أنعَمنا عَليهِمْ أنْ جعَلنا قُرَاهُمْ مُتَواصِلَة، مِنْ بِلادِهِمْ حتَّى يَصِلوا إلى قُرَى الشَّام، فلا يَقيلُونَ بقَريَةٍ حتَّى يَجِدوا أمامَهمْ قُرَى أخرَى واضِحَة، وجعَلنا بينَ كُلِّ قَريَةٍ وأخرَى مسافَةً مُعيَّنةً يَعرِفُها المسافِرون، فامشُوا فيها باللَّيالي والأيَّامِ وَقتَما شِئتُم، آمِنينَ مُطمَئِنّين، لا تَخافُونَ عَدوًّا، ولا جُوعًا، ولا عطَشًا.

وطالَتْ بهمُ النِّعمَة، فبَطَروا وطغَوا، وآثَروا الأدنَى على الذي هوَ خَير، وقالوا: اللهمَّ باعِدْ بينَنا وبينَ مَواطِنِ تِجارَتِنا وتنَقُّلِنا، واجعَلها قِفارًا وصَحاري، حتَّى نركبَ الرَّواحِلَ ونتزَوَّد. فأضَرُّوا بأنفُسِهِمْ عندَما كفَروا وطغَوا، فجَعلناهُمْ أُحدوثَةً وعِبرَةً لمنْ بعدَهم، وفرَّقناهُمْ كُلَّ تَفريق، في كُلِّ وَجهٍ وصَوبٍ مِنَ البِلاد. وفيما ذُكِرَ مِنْ قِصَّتِهِمْ عِبَرٌ ودَلالاتٌ لكُلِّ صابِرٍ عنِ المعاصي والشَّهوات، شاكِرٍ لنِعَمِ الله.

(تفسير للآيات ١٥ – ١٩ من سورةِ سبأ).

*** *** ***

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} (غافر : ٢٦)

قالَ فِرعَونَ لأصحَابِ الرَّأي والمشورَةِ عندَه: دَعوني أقتُلْ موسَى، ولْيَستَنصِرْ ربَّهُ عليَّ بما شَاء، فلا أُبالي بذلك، إنِّي أخشَى إنْ لم أَقتُلْهُ أنْ يَبَدِّلَ ما أنتُمْ عَليهِ مِنْ عِبادَتي وعِبادَةِ الأصْنام، أو أنْ يُفسِدَ عَليكمْ أمرَ دُنياكم، فيَقتُلَ النَّاسَ ويُضَيّعَ الحُقوق!

وقالَ موسَى عَليهِ السَّلامُ لما سَمِعَ حَديثَ قَتلِه: إنِّي التَجأتُ إلى الله، واستَجَرْتُ بهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ مُستَكبِرٍ لا يُذعِنُ للحقّ، ولا يُؤمِنُ بيَومِ الحِسابِ والجَزاء.

وقالَ لهمْ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِنْ قَومِ فِرعَون، قدْ كتمَ إيمانَه: كيفَ تَقتُلونَ رَجُلاً لا ذَنْبَ لهُ إلاّ أنَّهُ يَقولُ رَبِّيَ اللهُ، ولم يَقصِـــدْكمْ بإيذَاء، وقدْ أيَّدَ قَولَهُ بالدَّليلِ والبُرهان، فإذا كانَ كاذِبًا في قَولِهِ فإنَّ وَبالَ ذلكَ يَعودُ عَليه، ولنْ يَضُـرَّكمْ بشَـيء، وإذا كانَ صـادِقًا فإنَّ أقلَّ ما في صِـدقِهِ أنْ يُصيبَكمْ بَعضُ ما توَعَّدَكمْ به، ولو كانَ مُسرِفًا في القَتلِ والفَساد، وكاذِبًا في ادِّعاءِ النبوَّة، لَما هَداهُ اللهُ إلى البَيِّنات، ولَما أيَّدَهُ بالمعجِزات؟ وفي ذلكَ تَعريضٌ بفِرعَونَ وفَسادِه.

وقالَ وهوَ يَنصَـحُهمْ بحِكمَة: يا قَوم، إنَّ لكمُ الحُكمَ والملكَ اليَومَ على بَني إسْـرائيلَ في أرْضٍ مِصـر، فمَنْ يُنقِذُنا مِنْ عَذابِ اللهِ إنْ حَلَّ بنا؟ فلا تُفسِـدوا أمرَكم، ولا تَتعَرَّضـوا لسـخَطِ الله، واحذَروا نِقمَتَه، فإنَّهُ لنْ تُغنيَ عنكمْ قُوَّتُكمْ أمامَ قُوَّةِ الله.

قالَ فِرعَونُ لمِلَئِهِ بَعدَما سَمِعَ كلامَ المؤمِن: لا أُشـيرُ عَليكمْ إلاّ بقَتلِه، وما أدعُوكُمْ بهذا الرَّأي إلاّ إلى طَريقِ الصَّلاحِ والصَّواب.

وقالَ لهمْ ذلكَ الرَّجُلُ المؤمِن: يا قَوم، إنِّي أخافُ عَليكمُ العُقوبَةَ كما حَلَّتْ بالأقوَامِ الذينَ تحَزَّبوا على تَكذيبِ رسُلِهم.

مِثلَ عَادَةِ قَومِ نُوح، وعادٍ قومِ هود، وثَمودَ قومِ صـالح، والذينَ مِنْ بَعدِهِمْ مِنَ الكافِرين، كقَومِ لُوط، الذينَ اعتادُوا على إيذاءِ رسُـلِهم. وقدْ أصـابَهُمُ العَذابُ بسـبَبِ ذُنوبِهِمْ ومَعاصـيهم، ولمْ يَظلِمْهمُ الله، بلِ استَوجَبوا ذلك بأعمالِهم.

ويا قَوم، إنِّي أخافُ عَليكمْ يَومَ الحِســابِ والجَزاء، الذي يَتنادَى فيهِ النَّاسُ ويَتَصــايَحون، ويَستَغيثونَ فيهِ ويَفزَعون.

في ذلكَ اليَومِ الرَّهيب، الذي تَنصَـرِفونَ فيهِ – أيُّها الكافِرونَ – مِنْ مَوقِفِ الحَشـرِ إلى حَيثُ جَهنَّم، لا يَقدِرُ على مَنعِكمْ مِنْ عَذابِ اللهِ أحَد، ومَنْ أضَلَّهُ اللهُ فلا هاديَ له. واللهُ أعلَمُ بمَنْ يَستَحِقُّ الهُدَى ومَنْ يَستَحِقُّ الضَّلال.

(تفسير للآيات ٢٦ – ٣٣ من سورة غافر).

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} (القصص : ٣٨)

وقالَ فِرعَونُ الطَّاغيَة: أيُّها السَّادَةُ والوجَهاء، إنِّي لا أعرِفُ لكمْ إلهًا غَيري.

ثمَّ توَجَّهَ إلى وزيرِهِ قائلاً له: يا هامان، اصـــنَعْ لي آجُرًّا، وابْنِ لي منهُ بِناءً عاليًا، لأنظُرَ إلى إلهِ موسَى، الذي ذكرَ أنَّهُ إلهُهُ وإلهُ العالَمين، وأنا أظُنُّهُ كاذِبًا في ادِّعائهِ هذا.

{وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ} (القصص: ٣٩)

وطغَى فِرعَونُ وتجبَّرَ هوَ وجنودُهُ في أرضِ مِصـــرَ وأكثَروا فيها الفَســـاد، بغَيرِ أمرِ حَقٍّ ولا نظَرِ إصْلاح، فضَلُّوا وكفَروا، وظَنُّوا أنَّهُمْ لنْ يُبعَثوا بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاء.

وقدْ ابتَلينا قومَ فِرعونَ بالقَحطِ والجوعِ، ونقَصـــنا مِنْ مَحصـــولِ زِراعاتِهِمْ وثَمراتِ أشـــجارِهم، بالآفاتِ وقلَّةِ الإنتاج؛ ليتذكَّروا بذلكَ ويتَّعِظوا ويتضرَّعوا إلى الله، ويَترُكوا ما همْ عليهِ منْ شِرك. فإذا كانتْ سنةَ خِصْبٍ ورَخاء، وصارُوا في سَعةٍ وعَافية، قالوا: هذا مِنْ حقِّنا، أصَبناهُ بتَعبِنا، ولم يَرَوْهُ تَفضُّـــلاً منَ الله، وإذا كانتْ سَـــنةَ قَحطٍ وبلاءٍ تشـــاءَموا وقالوا: أصـــابَنا هذا النَّقصُ والبلاءُ بسبَبِ ما جاءَ بهِ موسَى وما يَدعو إليهِ هوَ وقومُه.

لكنَّ ما قُسِمَ لهمْ منْ نصيبٍ وقُدِّر لهمْ مِنْ رِزقٍ، وما يُصيبُهمْ مِنْ خَيرٍ وشَرٍّ كلُّهُ مِنْ عندِ الله، ولكنَّ أكثرَهمْ لا يَعلَمونَ ذلك، ولذلكَ يَقولونَ ما يَقولون.

وقالَ قومُ فِرعَونَ لموسَـى في عِنادٍ وإصـرارٍ على الباطِل: إنَّكَ مَهما جئتَنا بهِ منْ مُعجِزةٍ لتُشـبِّهَ بها عَلينا، أو تَرُدَّنا بها عنْ ديننا وتَصـــرِفنا عمّا نحنُ فيه، فلنْ نَقبلَها منك، ولنْ نُؤمنَ بكَ وبرسالتِك.

فكانَ جزاءَ كفرِهِمْ وإصـرارِهِمْ على الباطِل، أنْ عاقبناهُمْ بإرسـالِ الطُّوفانِ عَليهم، فملأ بيوتَهم، وأتلفَ زرُوعَهم، وأغرَقَ أراضيَهم... ثمَّ أرسَلنا عليهمُ الجرادَ فأتلفَ ما بقيَ مِنْ زُروعِهم، وأكلَ ثمارَهمْ ونباتَهم، ثمَّ القملَ – وكفى بهِ عـذاباً –، والضـــفَادِع، التي ملأتْ بيوتَهمْ وأوعيتَهمْ وأطعِمتَهم، ثمَّ الدمَ ليجريَ في مياهِهم، فصـارُوا يَشـرَبونَ الدم، ولا يَطبخون! ... وكلُّها آياتٌ وأدلَّةٌ وعِبَرٌ إلهيةٌ بيِّنةٌ، كافيةٌ للرَّدعِ عنِ الكُفر، والاسـتِسـلامِ لله، والإيمانِ برسـالتِه، ولكنَّهمْ معَ كلِّ هذا استَكبَروا عنِ الإيمانِ بها، فكانوا كافِرينَ مُجرِمين.

ولما نزلَ بهمُ العَذاب، واســـتقرَّ فيهم، وكادوا أنْ يَهلِكوا، قالوا: يا موسَـــى ادعُ لنا اللهَ بعهدِهِ عندكَ – وهوَ النبوَّة – أنْ يَكشِفَ عنّا العَذابَ الذي ابتَلانا به، فإذا أزالَ ما بنا، أقسَمنا لكَ بأنَّنا سَنؤمنُ بما جئتَنا به، وسنُرسِلُ معكَ بَني إسرائيل، كما طَلبت.

فلمّا أنجَيناهمْ مِنَ العَذابِ إلى وقتٍ محدَّدٍ – وهوَ وقتُ الغرَقِ – إذا همْ يَتمرَّدونَ ويَنقُضونَ العَهد، فلم يُؤمنوا!

فأرَدنا الانتِقامَ منهم، فأغرَقناهمْ في البَحر، بسببِ تكذيبِهمْ بآياتِ اللهِ العَظيمة، وعدمِ اكتراثِهمْ بها، وغَفلتِهمْ عنها.

(تفسير الآيات ١٣٠ – ١٣٦ من سورة الأعراف)، من قولهِ تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}، إلى قولهِ تعالى: {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ}.

*** *** ***

إذا شاهدَ المشرِكونَ مُعجِزاتٍ وآياتٍ دالَّةً على صِدقِ الرسُولِ عليهِ الصلاةُ والسلام، لم يؤمِنوا بها، لفَرْطِ عِنادِهمْ وتقليدِهمْ آباءَهمْ جَهلاً وضَلالاً، حتَّى إذا جاؤوا إليكَ وخاصَموكَ وناظَروكَ في الحقّ، قالَ مُجادِلوك، الكافِرونَ برسالةِ اللهِ إليك، في تَكذيبٍ ومُكابَرة: ما هذا الذي جئتَ بهِ وتُحَدِّثُنا منهُ سِوَى أحاديثَ وأقاصيص، وتُرَّهاتٍ وأباطيلَ لا يُعَوَّلُ عليها، مأخوذةٌ مِنْ كتُبِ الأوائل. كما قالَ اللهُ تعالَى: {وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [الأنعام: ٢٥].

ما عظَّموا اللهَ التعظيمَ المطلوب، ولا عَرَفوهُ حقَّ معرفتِه، عندما أنكَروا الكتُبَ السَّماويَّة، وكذَّبوا الرُّسل، وكفَروا بالوَحي المنزَلِ منْ عندِ الله، فقلْ لهؤلاءِ المشرِكينَ المنكِرينَ – أو اليهودِ – : لماذا تُنكِرونَ تَنزيلَ القُرآنِ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وتؤمِنونَ بالتوراةِ المنزَلةِ على موسَى لتكونَ هِدايةً للناسِ وإرشاداً لهمْ في الحياةِ إلى الحقّ، وأنتُمْ تَنقلونَ منها فِقْراتٍ وفُصولاً وتَجعلونَها في أوراق، بعدَ تَحريفِها وتَزويرِها وإخفاءِ كثيرٍ منَ المعلوماتِ فيها، وتَقولونَ للناسِ هذا منْ كتابِ اللهِ المنُزَل؟!

وقدْ جاءَكمْ منَ الأخبارِ والقَصَصِ والآياتِ في القُرآنِ ما لا عهدَ ولا علمَ لكمْ ولا لآبائكمْ بها. قلْ لهم: إنَّ اللهَ هوَ الذي أنزلَ هذهِ الكُتب، ومنها القُرآنُ الكريم، ثمَّ دَعْهُمْ في باطلِهِمْ وضَلالِهِمْ يلتَهون.

قالَ اللهُ سبحانه: {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام: ٩١]

وهذا القُرآنُ أنزلناهُ مِنْ عندِنا لا ريبَ فيه، كثيرُ الفائدةِ والنَّفع، كلُّهُ حقٌّ وهِداية، وتَوجيهٌ وحِكمة، مُصَدِّقٌ للكُتبِ السَّماويَّةِ السابقَة، ومنها التَّوراة، لتُنذرَ بهِ وتبلِّغَهُ أهلَ مكَّةَ ومَنْ حولَها في المشارقِ والمغارب.

والمؤمِنونَ باللهِ وباليومِ الآخِرِ وما فيهِ مِنْ ثَوابٍ وعِقاب، يؤمِنونَ بالقرآنِ المنزَلِ عليكَ أيُّها النبيّ، وهمْ محافِظونَ على صَلواتِهِمُ المكتوبةِ عَليهم، فهي عِمادُ الدين.

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام: ٩٢]

وهؤلاءِ المجرِمونَ منَ المشرِكينَ إذا جاءَتهمْ آيةٌ وحُجَّةٌ منَ اللهِ وحياً بواسطةِ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، أنكَروا ذلكَ ولم يُصدِّقوا، وقالوا: لنْ نؤمِنَ حتَّى يَنْزِلَ علينا الوحيُ بواسطةِ الملائكةِ كما يوحَى إلى أنبياءِ اللهِ ورُسلِه. واللهُ أعلمُ بمَنْ يَختارُهُ للرسالةِ والوَحي مِنْ بينِ عبادِه، وليسَ الكافِرونَ المجرِمونَ همُ الذينَ يَختارونَ ذلك، وسَوفَ يَنالُ هؤلاءِ المستَكبِرينَ عنِ اتِّباعِ ما جاءَ بهِ رسولُ اللهِ ذِلَّةٌ وإهانةٌ جَزاءَ تكبُّرهمْ وتَطاولِهم، وعَذابٌ مؤلمٌ موجِعٌ جزاءَ كفرِهمْ وضلالِهِمُ المستمرّ وأذيَّتِهمْ لرسُلِ اللهِ والمؤمِنين.

{وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ} [الأنعام: ١٢٤]

ويَقولُ المشرِكونَ كُفرًا وعِنادًا: هَلاّ أُنزِلَ على هذا النبيّ مُعجِزة، مثلُ قَلْبِ العَصا إلى حَيَّة، وإحياءِ الموتَى... وهذهِ خَوارِقُ لا يَقدِرُ الرسُولُ على أنْ يأتيَ بها مِنْ عندِه، إنَّما يأتي بها اللهُ بحِكمتِهِ عِندَما يرَى فيها فَائدة، وهؤلاءِ يَطلبونَ منَ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم أنْ يُزيلَ عنهمْ جِبالَ مكَّةَ الكثيرةَ الشَّاهِقة، ويَجعلَها كُلَّها بَساتينَ ومُروجًا، وأنْ يَجعلَ جبلَ الصَّفا ذهَبًا...

ولو أنَّ اللهَ حقَّقَ هذهِ الخوارقَ على يدِ رَسـولِهِ ولم يؤمِنوا لأهلكَهم، وهمْ يَطلبونَها عِنادًا وتَماديًا في الخُصـومةِ لا للإيمان، وقدْ أيَّدَ اللهُ رَسـولَهُ بمُعجِزَةٍ خالدةٍ كافيةٍ هيَ القُرآنُ الكريم، تحدَّى بهِ العَربَ أنْ يأتوا بعَشرِ آياتٍ مِنْ مِثلِه، وبينَهمْ فُصَحاءُ العرَبِ بلاغةً وخَطابةً آنذاك.

ولستَ أيُّها النبيُّ سِوَى نَذير، تُبلِّغُهمْ رِسالةَ اللهِ التي أمرَكَ بها، فتُبَصِّرُهمْ بالحقّ، وتُنذِرُهمْ سُوءَ عاقِبةِ مَنْ لم يتَّبِعْ دِينَ الله. ولكلِّ قَومٍ دَاعٍ إلى الحقّ، وأنتَ داعيَتُهمْ إليه، مِثلُ سائرِ الرُّسُلِ مِنْ قَبلِك.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧)

*** *** ***

قالَ اللهُ تعالَى في مُشـركي مكَّة: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَـاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [الأنفال: ٣١]

وإذا تُتلَى عَليهمْ آياتُ القُرآنِ الكريمِ عانَدوا وتمرَّدوا، وقالوا في عُتوٍّ واسـتِكبار: قدْ سمِعنا ما قلتَ يا محمَّد، ولو أرَدنا لقُلنا مثلَ الذي قُلت، ما هذا سِوَى أخبارِ الأممِ الماضيةِ وحكاياتِها ممّا سطَّرهُ الأوَّلون، وليسَ كلامَ الله.

وقالوا وهمْ في ظُلمَةِ الكُفرِ ودوَّامةِ الشِّرك، إصراراً منهمْ على التَّكذيبِ والجُحُود، وتمادياً منهمْ في الغَيِّ والضَّلال، وإمعاناً منهمْ في التهكُّمِ والاستِهزاء: اللهمَّ إنْ كانَ هذا الذي جاءَ بهِ محمَّدٌ هوَ الحقَّ الذي أنزلتَهُ مِنْ عندِك، فعاقِبْنا بإرسـالِ حِجارةٍ عَلينا منَ السَّـماء، أو خُذْنا بعَذابٍ شَديدٍ مُؤلِم!

وما كانَ اللهُ لِيُوقِعَ بهمُ العَذابَ فيُهلِكَهمْ وأنتَ بينَ ظهرانَيْهمْ أيُّها النبيّ، ولم تُعذَّبْ أمَّةٌ قطُّ ونبيُّها فيها. وما كانَ معذِّبَهمْ كذلكَ وهمْ يَطوفونَ بالبَيتِ ويَقولون: غُفْرانَكَ غُفْرانَك، أو ما كانَ مُعَذِّبَهمْ وفيهمْ مُؤمِنونَ يَستَغفِرونَ الله. يَعني ممَّنْ بقيَ بينَهمْ منَ المسلِمينَ المستَضْعَفين.

ولما خَرجَ مِنْ بينِهمُ الرسُـولُ صـلى الله عليه وسـلم وهاجرَ المسـلِمونَ مِنْ مكَّةَ، قالَ تعالَى ما مَعناه: وما يَمنعُهمْ مِنْ أنْ يُعَذَّبوا وهمْ يَمنَعونَ المؤمِنينَ منَ الطَّوافِ بالبَيت، وما كانوا مُستَحِقِّينَ

ولايةَ المسجدِ الحرامِ معَ شِرْكِهم، إنَّما أولياءُ بَيتِ اللهِ المؤمِنونَ الذينَ يَتَّقون الشِّرك، فلا يَعبدونَ فيهِ غيرَ الله، ولكنَّ أكثرَهُمْ لا يعلمُ أنْ لا ولايةَ لهمْ عَليه.

وقدْ أوقعَ اللهُ بهمْ بأسَهُ يومَ بَدرٍ وغيرِه.

وما كانَ صلاتُهمْ عندَ المسجدِ الحرامِ إلا صَفيراً، وتَصفيقاً، وهوَ ما لا خيرَ فيه، ولا فائدةَ منه، ولا هوَ ممّا أمرَ اللهُ به، فذوقوا العَذابَ الذي سلَّطَهُ اللهُ عليكمْ يومَ بَدر، مِنْ قَتْلٍ وأسْرٍ وخَسارةِ مال، وذلكَ بسَببِ إصرارِكمْ على الكُفر، وعدمِ مبالاتِكمْ بآياتِ اللهِ ودَعوةِ نبيِّه.

(تفسير للآيات ٣١ – ٣٥ من سورة الأنفال)

{وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (العنكبوت : ٥٠)

وقالَ المشـرِكون: هَلاّ أُنزِلَتْ على هذا النبيّ مُعجِزاتٌ كما أُنزِلَتْ على الأنبياءِ السَّـابِقين، مثلُ عَصا موسَى وناقَةِ صالح؟ قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسُول: إنَّ ذلكَ بيدِ الله، يأتي بها إنْ شَاء، ولو عَلِمَ هِدايتَكمْ بها لأجابَكمْ إليها، ولو أنَّها أُنزِلَتْ ولم تؤمِنوا بها لأهلكَكم، وإنَّما أنا مُنذِرٌ مَبِينٌ للعالَمينَ أجمَعين، وما عليَّ إلاّ البلاغ.

{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (العنكبوت : ٥١)

أوَلَمْ يَكفِهِمْ مُعجِزَةً هذا القُرآنُ الذي أنزَلناهُ عَليك، وهوَ يُقرَأُ عَليهمْ ويَعرِفونَهُ جَيِّدًا، وفيهِ مِنَ الإعجازِ والتحَدّي ما يَكفي دَليلاً أنَّهُ مِنْ عندِ الله، فلم يَسـتَطِعْ أحَدٌ أنْ يأتيَ بِمِثْلِهِ أو بآياتٍ مِنْ مِثلِه؟ وفي بقائهِ مَحفوظًا مِنْ غَيرِ أنْ يَنالَهُ تَغييرٌ أو تَبديل، وكونِهِ مُتَحَدًّى بهِ إلى آخِرِ الدَّهر، آيَةٌ أُخرَى عَظيمَة، وهوَ نِعمَةٌ كبيرَةٌ للنَّاس، وتَذكِرَةٌ وعِظَةٌ لِمَنْ آمَنَ واهتدَى به، ففيهِ بيانٌ للحقّ، ودَحضٌ للباطِل، وفيهِ أحداثٌ وعِبَر، وقَصَـصٌ وتَوجيهات، وأحكامٌ ووَصـايا، كُلُّها لأجلِ مَصلحَةِ الإنسانِ وسعادَتِه.

وإذا تُتلَى على المشركينَ آياتُ القُرآنِ الكريمِ الواضِحاتُ، الدالَّةُ على التوحيدِ وبُطلانِ الشِّرك، قالَ هؤلاءِ الذينَ لا يؤمِنونَ بيَومِ القِيامة، ولا يَخافُونَ الحِســـاب: ائتِ بكِتابٍ غيرِ القُرآنِ لا يَكونُ فيهِ ذَمٌّ لآلِهَتِنا، ولا ذِكرٌ ليَومِ البَعث، أو بَدِّلِ الآياتِ التي تحتوي على ذلكَ بغيرِها.

قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسول: ليسَ هذا الأمرُ إليّ، ولا يَصِحُّ لي تَبديلُهُ مِنْ عِندي، إنَّما أنا عَبدٌ مَأمور، ورسُــولٌ مُبَلِّغٌ عنِ الله، ما أتَّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إليَّ فيما آمرُكمْ بهِ وأنهاكمْ عنه، مِنْ غيرِ تَغييرٍ ولا تَبديل. إنِّي أخافُ إنْ بدَّلتُ كلماتِ الله، أو خالَفتُ أمرَه، عَذابًا كبيرًا هائلاً يومَ القيامة.

قالَ ابنُ الجوزيّ في "النواسخ": هذا وأمثالُهُ في بَيانِ آثارِ المعاصي، وليسَ منْ ضَرورةٍ ما عُلِّقَ بشَــرطٍ أنْ يَقع. قالَ اللهُ تعالَى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَــذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يونس: ١٥]

وقُلْ لهم: لو شَــاءَ اللهُ ما أنزَلَ القُرآنَ عليّ، ولا قَرأتُهُ عليكم، ولا أعلَمَكُمْ بهِ بواسِــطَتي، وقدْ قُمتُ بينَ ظَهْرانَيكمْ أربَعينَ عامًا قبلَ نُزولِهِ عليّ، ولم تُجَرِّبوا عليَّ كَذِبًا، ألا تُلاحِظونَ ذلكَ وتَتدبَّرونَه، لتَعلَموا أنَّهُ ليسَ منْ عندي، فأنا ما راجَعْتُ عالِمًا، ولا قرأتُ كِتابًا، ولا كتبتُ كلِمَة، وهذا كتابُ اللهِ البَليغُ المعجِز، الذي احتوَى على ما لم تَعرِفوه، مِنْ أحكامٍ وتاريخٍ وقَصَصٍ وإخبارٍ بغَيبيّات...

{قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [يونس: ١٦]

إنَّ المشرِكينَ إذا رأوْكَ تَقرأُ كتابَ الله، أَثْنَوا صُدورَهمْ وأحنَوا رُؤوسَهمْ حتَّى يَتهرَّبوا مِنْ سَماعِه، تَخَفِّيًا مِنَ الله! ولِما يَعتَريهمْ مِنْ قَلقٍ وحَيرَة، وكأنَّهم يُحِسُّــونَ في دَاخلِهمْ أنَّ هذا كلامُ الله، ويَخشَونَ إنِ استَمَرُّوا على سَماعهِ أنْ يُسلِموا! ألا فليَعلَمْ هؤلاءِ الغافِلون، أنَّهمْ إذا مضَوا إلى فُرُشِهمْ لينامُوا، وتغَطَّوا بأستارِهم، وتَفكَّروا بما يَجري لهمْ في أعماقِهم، فإنَّ اللهَ ناظِرٌ إليهم، عالِمٌ بما يُخفُونَ، وسِرُّهمْ عندَهُ كظاهرِهِم، وهوَ سُبحانَهُ عليمٌ بما تُخفيهِ الصُّدور، لا يَخفَى عليهِ شَيء. كما في قولهِ تعالَى: {أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [هود: ٥]

وقالَ سبحانه: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (الحج : ٧٢)

أي: إذا قرَأتَ عَليهمْ آياتِ القُرآنِ الواضِحات، التي فيها دَعوَتُهمْ إلى التَّوحيد، والإنكارُ عَليهمْ فيما هُمْ فيهِ مِنْ شِركٍ وضَلال، تَعرِفُ في وجُوهِ الكافِرينَ الكراهَةَ والإنكارَ بعُبوسِها وإعراضِها، على الرَّغمِ مِنْ صِحَّتِها وقوَّةِ حُجَّتِها، ويَكادونَ أنْ يَبطِشوا بالذينَ يَقرَؤونَ عَليهمُ الآياتِ مِنْ شِدَّةِ غَيظِهم.

قُلْ لهمْ أيُّها النبيُّ الكريم: أفأُخبِرُكمْ بما يَغيظُكمْ أكثَر، وما يَكونُ وبالُهُ عَليكُمْ أعظَم؟ نارُ جَهنَّم، التي أعَدَّها اللهُ للكافِرين، وبئسَ هذا المنزِلُ الذي تَصيرونَ إليه، وتَذوقونَ فيهِ أشدَّ العَذاب.

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} (النحل : ١١٢)

وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَريَةً – هيَ مَكَّةُ – كانتْ آمِنَةً مُستَقِرَّة، لا يُغَارُ عَليها ولا يُؤذَى مَنِ التَجأ إلى البَيتِ فيها ولو كانَ قاتِلاً، ومَنْ حَولَهُمْ منَ النَّاسِ في حَربٍ وهَيَجانٍ وفِتنَة. ويأتيها قُوتُ أهلِها مِنْ أنواعِ الأطعِمَةِ والثِّمارِ مِنْ جَميعِ النَّواحي بسُهولَة، وهمْ في وادٍ لا يَنبُتُ فيهِ زَرع، وحولَهُمْ جِبالٌ جَرداء، فجَحَدوا نِعَمَ اللهِ بدَلَ شُكرِهِ عَليها، وعَبَدوا الأصنامَ معَه، فابتَلاهمُ اللهُ بالجُوعِ والقَحطِ سَبعَ سِنين، وجَهِدوا حتَّى أكَلوا العِظامَ والجِيَف.

وكانتْ بُعوثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وسَراياهُ تَطيفُ بهم، فكانوا يَخافونَ ويَتوَقَّعونَ الإغارَةَ عَليهم، فأُبدِلوا بأمنِهِمْ خَوفًا؛ جَزاءَ بَغيهمْ وشِركِهم، وعَدَمِ تَقديرِهمْ لِما أنعَمَ اللهُ بهِ عَليهمْ مِنْ رِزقٍ وأمْن، لعلَّهمْ بذلكَ يتَذكَّرونَ نِعمتَهُ ويَدَعُونَ الشِّركَ ويؤمِنونَ بالإسْلام.

{وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} (النحل : ١١٣)

ومِنْ أعظَمِ نِعَمِ اللهِ عَليهِمْ أنْ بعثَ فيهِمْ رَسـولاً مِنْ بَينِهم، يَعرِفونَهُ صَـادِقًا أَمينًا، يَدْعُوهمْ إلى عِبادَةِ رَبِّ هذا البَيت، وتَركِ عِبادَةِ الأصْـنام، ولكنَّهمْ لم يُقَدِّروا هذهِ النِّعمةَ العَظيمَة، فكفَروا برِسالتِهِ وكذَّبوه، فأخذَهمْ عَذابُ الخَوفِ والجُوع، بظُلمِهمْ وتَكذيبِهمْ رَسولَ رَبِّهم.

{وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً} (الإسراء : ٩٠)
وقالَ لكَ مُشرِكو مكَّةَ في تَحَدٍّ وعِناد: لا نُسَلِّمُ بأنَّ هذا القُرآنَ مِنْ عندِ الله، ولا نُؤمِنُ بنبوَّتِك، حتَّى تَفجُرَ عَينًا تَجري في أرضِنا كالنَّهر.
أو يَكونَ لكَ بُستانٌ فيهِ أشجَارُ النَّخيلِ والعِنَبِ الكثيرَة، وتُفَجِّرَ فيها العُيونَ واليَنابيعَ فتَجري في خِلالِها الأنهارُ جرَيانًا.
أو تُسقِطَ عَلينا السَّماءَ قِطَعًا كما زعَمتَ أنَّ ربَّكَ إنْ شَاءَ فَعَل، أو تأتيَ باللهِ والملائكةِ مُقابَلَةً وعِيانًا يَشهَدونَ بصِحَّةِ ما تَقول.
أو يَكونَ لكَ بَيتٌ مِنْ ذَهَب، أو تَصعَدَ في السَّماءِ ونحنُ نَنظُرُ إلَيك، ولنْ نُصَدِّقَ صُعودَكَ فيها حتَّى تُنَزِّلَ منها عَلينا كِتابًا نقرَأُ فيهِ أمْرَنا باتِّباعِك.
قُلْ لهمْ تَعَجُّبًا: تعالَى اللهُ وتنَزَّهَ عمّا لا يَليقُ به، ما أنا إلاّ رَسولٌ مِنَ البشَر، والمعجِزاتُ ليسَتْ منْ صُـنعِ الرُّسُـل، وليسَ منْ أدَبِهِمْ معَ رَبِّهِمْ أنْ يَطلبوها منهُ إذا لم يأذَنْ لهمْ بها. واللهُ أعلَمُ بعِبادِهِ وما يصـلُحُ مِنْ إنزالِه عَليهم. وبينَها ما لا يُجابونَ إليه، كنُزولِ اللهِ والملائكة. وقدْ تركوا القُرآنَ وراءَ ظُهورِهِمْ وهوَ المعجِزَةُ الكُبرى الكافيَةُ للدَّلالةِ على نبوَّةِ النَّبيّ.
(تفسير الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورةِ الإسراء)

{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُـولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِـي فِي الْأَسْـوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً} (الفرقان : ٧)
قالَ الكافِرونَ وهمْ مُستَمِرُّونَ في عِنادِهم: ما لِهذا الرَّسولِ يأكُلُ الطَّعامَ كما نَأكلُ نَحن، ويَمشي في الأسـواقِ يَلتَمِسُ فيها التكسُّـبَ والتِّجارَة، فهلاّ كانَ معَهُ مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ يُصَـدِّقُهُ بما يَقول، ويُخبِرُ الناسَ أنَّهُ داعٍ صادِقٌ لدينِ الله، مُنذِرٌ مِنْ قِبَلِه؟

أو أنْ يَنْزِلَ عَليهِ كَنزٌ مِنَ السَّماءِ يُنفِقُ منه، ولا يَحتاجُ فيهِ إلى التردُّدِ إلى الأسوَاق. أو أنْ يَكونَ لهُ بُستانٌ يأكلُ منهُ ولا يَحتاجُ إلى العمَلِ فيه؟

وقالَ هؤلاءِ المشـرِكون: إنَّكمْ إنِ اتَّبَعتُمْ محمَّدًا فلا تَتْبَعونَ سِـوَى رَجُلٍ مَسَّـهُ الجِنُّ فغُلِبَ على عَقلِه!

انظُرْ أيُّها النبيُّ كيفَ جَاؤوا بما يَكذِبونَ بهِ عَليك، وضـرَبوا لكَ أمثالاً، وطلَبوا منكَ مَطالِب، واخترَعوا أقَاويل، فانحرَفوا عنِ الحقّ، وتحيَّروا، فلا يَسـتَطيعونَ مَعرِفةَ طَريقِ الهِدايَة، لاسـتِكبارِهِمْ وعِنادِهم!

تعالَى اللهُ وجلَّتْ قُدرَتُه، فهوَ إنْ أرادَ أنشَـأَ لكَ أفضـلَ ممّا طلَبوهُ منك: بسـاتينَ خَضـراءَ مَليئةً بأنواعِ الشَجَرِ والثَّمَر، تَجري مِن خِلالِها الأنهَار، ويَجعَلْ لكَ فيها قُصورًا عالِية.

لكنَّهمْ يَقولونَ ذلكَ عِنادًا وتَكذيبًا، وليسَ بغَرَضِ الإيمان، وإنَّ كفرَهمْ بيَومِ البَعثِ هوَ الذي يَحمِلُهمْ على تَكذيبِ ما جِئتَ به، وقدْ هيَّأنا لمَنْ كفرَ بيَومِ القِيامَةِ نارًا شَديدَةً تُسْعَرُ بهم.

(تفسير الآيات ٧ – ١١ من سورة الفرقان)

ثمّ قال سـبحانه: {وَما أَرْسَـلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَـلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُـونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً} (الفرقان : ٢٠)

وما أرسَـلنا قَبلكَ مِنَ الأنبياءِ السَّـابقينَ إلاّ كانوا بَشَـرًا مثلَك، يأكُلونَ الطعامَ كما تأكُل، ويَمشـونَ في الأسْـواقِ للتِّجارَةِ والتكَسُّـبِ كما تَفعَل، وليسَ هذا مُخِلاً بمَقامِ النبوَّة. وابتلَينا بَعضَـكمْ ببَعضٍ لنَنظُرَ كيفَ تَعمَلون، ومَنْ يَنجَحُ في الاختِبار، فالفَقيرُ فِتنَةٌ للغَنيّ، والغَنيُّ فِتنَةٌ للفَقير، والصَّـحيحُ فِتنَةٌ للمَريض، والمريضُ فِتنَةٌ له، والشَّـريفُ فِتنَةٌ للوَضـيع... فهَلْ تَصـبِرونَ على هذا الابتِلاءِ بحَقّ، وتَقومونَ بوَظيفَتِكمُ المطلوبَةِ منكم؟ واللهُ بَصـيرٌ بأحوالِ عِبادِه، حَكيمٌ بما يَبتَليهمْ به، عَليمٌ بمَنْ صـبَرَ منهمْ على ذلكَ ومَنْ جَزِع، وسـيُحاسِـبُكمْ على كُلِّ ذلك، ويُجازي كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

{وَأَقْسَـمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً} (فاطر : ٤٢)

وقدْ حلفَ المشرِكونَ قَبلَ مَبعَثِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، واجتهَدوا في الحَلِفِ باللهِ أبلغَ ما يَكون، أنَّهُ إذا بُعِثَ فيهمْ رَسُولٌ فلنْ يُكَذِّبوهُ ولنْ يُعانِدُوهُ كما فعَلتِ الأُمَمُ السَّابقَةُ معَ رسُلِهم، بلْ سيَكونونَ طائعينَ لهُ ومُناصِرينَ إيَّاه، وبذلكَ يَكونُونَ أهدَى وأطوَعَ مِنْ جَميعِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ معَ أنبيائهم، فلمَّا جاءَهمُ الرسُولُ محمَّدٌ مُؤيَّدًا بمُعجِزةِ القُرآنِ العَظيمَة، لم يَزِدْهمْ ذلكَ إلاّ بُعدًا عنِ الحقّ وهُروبًا منه!

{اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً} (فاطر : ٤٣)

استِكبارًا عنِ اتّباعِ الحقّ، وإفراطًا منهمْ في العِناد، وإمعانًا في العمَلِ السيّءِ، والكَيدِ لرَسُولِ اللهِ، والصدِّ عنْ سَبيلِ الله، ولا يُحيطُ وَبالُ هذا الكَيدِ والعُدوانِ إلاّ بأهلِه، الذينَ خطَّطوا لهُ أو نفَّذوه، فما يَنتَظِرونَ إلاّ عُقوبةَ اللهِ لهمْ كما فَعلَ بالكافِرينَ المكَذِّبينَ مِنْ قَبلِهم، فلنْ تَجِدَ لهذهِ السنَّةِ المتَّبَعَةِ في خَلقِهِ تغَيُّرًا وتبَدُّلاً، ولنْ تَجِدَ لها تحَوُّلاً وانتِقالاً.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الجاثية : ٢٥)

وإذا تُتلَى عَليهمْ آياتُ كتابِنا النَّاطِقَةُ بالحقّ، وأنَّ اللهَ يَبعَثُهمْ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاء، ما كانَ دَليلُهمْ على إنكارِهِ إلاّ أنْ قالوا: أحيُوا آباءَنا السَّابِقين، إنْ كنتُمْ صادِقينَ أنَّ هُناكَ حَياةً بعدَ الموت!

{قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الجاثية : ٢٦)

قُلْ لهمْ أيُّها الرسُولُ الكَريم: إنَّ اللهَ يُحييكمْ عندَ خَلقِكم، ثمَّ يُميتُكمْ عندَ انقِضاءِ آجالِكم، ثمَّ يَبعَثُكمْ ويَجمَعُكمْ في يَومِ القِيامَة، الذي لا شَكَّ فيه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ ذلك؛ لجَهلِهم، أو عدَمِ إمعانِهمْ في التَّفكير، أو استِكبارِهمْ عنِ اتّباعِ الحقّ.

{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً} (الفرقان : ٤٠)

ولقدْ أتَى قومُكَ على آثارِ مَدينَةِ سَـدُوم عندَ البحرِ الميّت، التي كانَ فيها قَومُ لوطٍ –وهيَ في طريقِ تجارَتِهِمْ بينَ الشَّـامِ والحِجاز – وكانوا يأتونَ الفاحِشَـة، وكذَّبوا نبيَّهمْ لوطًا ولم يُطيعوه، وبَقوا مُصِـرّينَ على فِعلِ اللِّواط، فأهلكناهُمْ بالحِجارَة، وقدْ قَلَّبْنا قُراهُمْ على رأسِـها. أمَا كانوا يَعتَبِرونَ ممّا أصابَ أهلَها، ويَعلَمونَ أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يُهلِكَهمْ كما أهلَكَهم؟

لكنَّ سـببَ عدَمِ اعتِبارِهِمْ هوَ كفرُهمْ بالبَعثِ والجَزاء، فلا يتَوقَّعونَ أنْ يَبعثَهمُ اللهُ بعدَ مَوتِهِمْ ويُحاسِبَهمْ على أعمالِهم.

وإذا رآكَ المشرِكونَ مِنْ قَومِكَ جعَلوا منكَ مَوضِعَ هُزْءٍ وسُخريَة، فعَابُوكَ ونقَصُوا منك، وقالُوا في ازدِراء: أهذا هوَ الذي بعثَهُ اللهُ رَسولاً إلَينا؟

وقالوا: لقدْ كادَ أنْ يَصرِفَنا هذا الرَّجُلُ عنْ عِبادَةِ أصنامِنا لو لم نَثبُتْ عَليها! ولكنَّهمْ سيَعلَمونَ أنَّهمْ كانوا في غايَةِ الضَّلال، عندَما يُعاينُونَ العَذابَ يَومَ القيامَةِ وقدْ أحاطَ بهم.

(تفسير الآيات ٤٠ – ٤٢ من سورة الفرقان)

{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ} (القلم : ١٠)

ولا تُطِعْ كُلَّ كثيرِ الحَلِفِ بالباطِل؛ ليُغَطِّيَ بهِ على كَذِبِهِ ويَسـتَجلِبَ ثِقةَ النَّاس، وهوَ حَقيرٌ مُهان. (اختلفَ المفسِّرونَ في المقصودِ به).

يَغتابُ النَّاسَ ويَعِيبُهم، بالقَولِ والإشـارَة، ويَمشـي بينَ النَّاسِ بالنَّميمَةِ ليُفسِـدَ قُلوبَهم، ويُحَرِّشَ بينَهم، ويَقطَعَ صِلاتِهم.

وهوَ بَخيلٌ، يَمنَعُ الخَيرَ عنْ نَفسِـهِ وعنِ الآخَرين، وظالِمٌ مُعتَدٍ يَتجاوَزُ الحقَّ والعَدل، ويَصـرِفُ النَّاسَ عنْ دِينِ الله، وفاجِرٌ، يَرتَكِبُ المعاصيَ والذُّنوب.

غَليظٌ جَافٍ شَديدُ الخُصومَةِ في الباطِل، معَ ما وصَفناهُ به، دَعيٌّ في النسَب، مُلصَقٌ بالقَومِ وليسَ منهم.

ألأنَّهُ ممَّنْ أنعَمنا عَليهِ بأموَالٍ وبَنينَ كثُر؟

فجعَلَ مُجازاةَ نِعمَتِنا عليهِ أنَّهُ إذا قُرِئتْ عَليهِ آياتُ كتابِنا كذَّبَ بها وقال: هذا ممَّا سـطَّرَهُ الأوَّلونَ في الكتُب، فهوَ حِكاياتٌ وخُرافاتٌ تُروَى وليسَ وَحيًا!

سـنَجعَلُ على أنفِهِ سِمَةً وعَلامةً حتَّى يُعرَفَ بها وتَبقَى عَيبًا فيه. أو أنَّهُ تَعذيبٌ بنَارٍ على أنفِهِ في جهنَّم.

(تفسير الآيات ١٠ – ١٦ من سورة القلم)

{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً} (المدَّثر : ١١)

دَعني وهذا الجاحِدَ الذي خلَقتُهُ في بَطنِ أُمِّهِ وَحيدًا لا شَيءَ له. والمقصودُ الوليدُ بنُ المغيرَة.

وأعطَيتُهُ مالاً مَبسُوطًا ورِزقًا واسِعًا،

وأولادًا حُضورًا لا يَغيبونَ عنه، وقدْ كفاهمُ العملَ والسَّفرَ خدَمٌ وعَبيد.

وبَسَطتُ لهُ العَيشَ والجاهَ وطُولَ العُمُر.

ثمَّ هوَ يَرجو أنْ أزيدَهُ مالاً ووَلدًا، وجاهًا ونِعمَة.

كلاَّ، لا أزيدُهُ شَـيئًا مِنْ ذلك، إنَّهُ كانَ مُعانِدًا لآياتِنا، مُسـتَكبِرًا عنِ اتِّباعِ الحقّ، كافِرًا بنِعَمِنا عَليه.

وكانَ في نُقصانٍ مِنْ مالِهِ ووَلَدِهِ حتَّى هلَك.

سأُكلِّفُهُ عَذابًا شاقًّا لا راحَةَ لهُ فيه،

لأنَّهُ فكَّرَ وتَروَّى ماذا يَقولُ في شَأنِ القُرآن، وقدْ طلبَ المشرِكونَ أنْ يَقولَ فيهِ قَولاً حتَّى يَعلَموا أنَّهُ مُنكِرٌ لهُ وكارِه.

فلُعِنَ وأُخزِيَ كيفَ قدَّرَ الجواب،

ثمَّ لُعِنَ بتَقديرِهِ ذَاك، قاتلَهُ الله،

ثمَّ أعادَ النَّظرَ فيما يَرُدُّ بهِ على القُرآن،

ثمَّ قطَّبَ وَجهَهُ وأظهَرَ العُبوسَ، ونظرَ بكراهيَةٍ شَديدَة،

ثمَّ أعرَضَ عنِ الإيمَانِ بالقُرآن، واستَكبَرَ عنِ اتِّباعِ الحقّ،

فقال: ما هذا الذي يَتلوهُ محمَّدٌ إلاّ سِحرٌ يُروَى ويَتَعلَّمُهُ مِنَ السَّحَرَة،

ما هذا إلاّ قَولُ بشَر، وليسَ بقَولِ إله.

سأدخِلُهُ جَهنَّمَ ليَذوقَ عَذابَها الشَّديد.

وما أعلمَكَ بما في جَهنَّمَ مِنَ العَذابِ والشَّدائد؟

لا تَدَعُ شَيئًا فيها إلاَّ أهلكَتْه، مِنْ شِدَّةِ العَذابِ وقَسوَتِه، ثمَّ يُبدَّلونَ خَلقًا جَديدًا.
مُغَيِّرَةٌ للبَشَر (جَمعُ بشَرَة)، مُسَوِّدَةٌ للجُلود. (مِنْ لوَّحَتْهُ الشَّمسُ إذا سوَّدَتْ ظاهِرَه).
وعلى النَّارِ مِنَ الخزَنَةِ تِسعَةَ عَشَرَ مَلَكًا.
(تفسير للآيات ١١ – ٣٠ من سورة المدَّثر)

الشرك

{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً} (الفرقان : ٣)
واتَّخذَ المشرِكونَ أصْنامًا يَعبدونَها مِنْ دونِ الله، وقدْ صَنَعوها بأيديهم، مِنْ أحجَارٍ وأشجَار، فهي لا تَقدِرُ على الحرَكة، فَضلاً عنْ أنْ تَكونَ آلِهَةً تَخلُقُ شَيئًا، وهيَ لا تَملِكُ أنْ تَدفعَ عنْ نَفسِها وعنْ غيرِها ضُرًّا يُصيبُهم، ولا أنْ تَجلُبَ لنَفسِها ولعابِديها نَفعًا يُفيدُهم، ولا تَملِكُ تَصَرُّفًا في أيِّ شَيء، مِنْ إماتَة، وإحياء، وبَعثٍ بعدَ الموت، إنَّما كُلُّ ذلكَ للهِ وحدَه.

التقليد

وموقفُ المشرِكينَ وأهلِ الكتابِ من دعوةِ الحقِّ هو الرفض، فكانوا إذا طُلِبَ منهم أنْ يتَّبعوا كتابَ اللهِ الذي أنزلَهُ على رسولِهِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم قالوا: لا نتَّبعُه، بلْ نتَّبعُ ما وَجدْنا عليهِ آباءَنا، لأنَّهمْ كانوا خَيراً منّا!
أيَقتَدونَ بهمْ ويَقتَفونَ أثرَهمْ ولو كانوا لا يَفهمونَ شيئاً ولا يهتدونَ إلى الصواب؟ ولو كانوا غافلينَ وجاهلينَ ضالّين؟
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} (البقرة : ١٧٠)

التشكيك

ومن شأنِ الكفّار: التشكيكُ في عقيدةِ المسلمين، أسسِها وفروعِها:

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ} [البقرة: ٢٦]

أي أن الكافرين يزدادونَ بهذا المثلِ ضَلالة، ويَقولون: ما قيمةُ البَعوض، وما مَوقِعُهُ في الكونِ حتَّى يُضْرَبَ بهِ المِثَلُ، وهوَ مِنْ أحقرِ المخلوقات؟!

والبعوضُ مخلوقٌ عَجيبٌ حقًّا، فهوَ معَ صِغَره، لهُ عينانِ ضَخمتانِ تَتكوَّنانِ منْ آلافِ العدَساتِ السُّداسية، وفي رِجلهِ خمسةُ مَفاصلَ رئيسيَّة، معَ زوجٍ منَ المخالب، وعَضلاتٌ قوَّيةٌ تَلتصِقُ بجدارِ الصدر، ودَبُّوسٌ للتوازنِ في جناحَيه! ولهُ جِهازٌ يَمنعُ تَجلُّطَ الدم، وقدْ يَمتصُّ دماً أكثرَ منْ وزنهِ مرَّةً ونصفَ المرَّة! ولهُ أكثرُ منْ ثلاثةِ آلافِ نوع، وينقلُ أسوأ الأمراض، وماتَ الملايينُ من البشرِ بسببِ ذلك، وهو موجودٌ في كلِّ أنحاءِ العالم!

الكذب

إذا فعلَ المشرِكونَ أفعالاً مُنكَرة قَبيحة، كعِبادةِ الأصنام، والطَّوافِ بالبَيتِ عُرياً، قالوا: هكذا وَجدنا آباءَنا يَفعلون، واللهُ أمرَنا بها، فقلَّدوا عنْ جهل، وافترَوا على الله. قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: إنَّ ما تَفعلونَهُ فاحِشَةٌ مُنكَرة، واللهُ لا يأمرُ بعَملِ الفَواحِش، بلْ هوَ سُبحانَهُ يأمرُ بمحاسنِ الأعمال، ويَحُثُّ على مَكارمِ الأخلاق، أتُسنِدونَ إلى اللهِ قولَ ما لم يَقُلْهُ، وما لا تَعلمونَ صِحَّةَ ذلكَ عنه؟!

{وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٢٨]

وقالَ المشرِكونَ للرَّسولِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: إذا اتَّبَعْنا دِينَ الإسْلامِ فسيَجتَمِعُ العرَبُ عَلَينا ويُخرِجونَنا مِنْ دِيارِنا. وقدْ كذَبوا، ألا يَرَى هؤلاءِ المشرِكونَ كيفَ عصَمنا دِماءَهمْ وجعَلناهُمْ في

حرَمٍ آمِن، بحُرمَةِ بيتِ الله، بينَما العرَبُ مِنْ حَولِ مكَّةَ يتَقاتَلونَ ويَتذابَحون؟ ويُجلَبُ إلى مكَّةَ أنواعُ الثِّمارِ والبَضـــائعِ الموجودَةُ مِنْ حولِها وهمْ بوادٍ غَيرِ ذي زَرع، رِزقًا مِنْ عندِنا، ولكنَّ أكثرَهمْ لا يَتدَبَّرونَ ذلك، ولا يَتفَكَّرونَ فيما يَقولُهُ اللهُ بحَقّ، ولذلكَ قالُوا ما قالُوا.

{وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (القصص : ٥٧)

وهؤلاءِ المشرِكونَ الضَّالُّونَ يَجعَلونَ للهِ ما يَبغُضُونَهُ لأنفُسِهم! فتَراهُمْ يُشرِكونَ بهِ وهمْ لا يُحِبُّونَ الشِّرْكَةَ في الأمر، بلْ يُحِبُّونَ أنْ يَستأثِروا بهِ كُلَّه. ويَجعَلونَ لهُ البَناتِ وهمْ يُحِبُّونَ البَنين. وهمْ معَ ضَلالِهِمْ وفَسادِ مُعتَقَدِهمْ يَقولونَ في كَذِبٍ واضِحٍ إنَّ لهمْ مَكانَةً حسَنةً في الدُّنيا أو في الآخِرَة! ولكنَّ الحقَّ الذي لا بُدَّ منهُ أنَّ مَصيرَهُمُ النارُ يومَ القِيامَة، مُعَجَّلينَ إليها غَيرَ مؤجَّلين.

{وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ} (النحل : ٦٢)

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (العنكبوت : ١٢)

وقالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ لمنْ آمَن: ارجِعوا إلى الكُفرِ وسنَحمِلُ خطاياكُمْ وآثامَكمْ إذا كنتُمْ تُؤَاخَذونَ عَليها يومَ القِيامَةِ كما تَدَّعون. وهمْ كاذِبونَ في ادِّعائهمْ هذا، فإنَّهمْ غَيرُ قادِرينَ على نَزعِ خطايا غَيرِهمْ وحَملِها عَنهم.

{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (العنكبوت : ١٣)

وسَوفَ يَحمِلُ هؤلاءِ الكافِرونَ آثامَ ما اقتَرَفوهُ مِنْ ذُنوبٍ في الدُّنيا، وآثامَ مَنْ تسبَّبوا في إضلالِهِمْ وحَملوهمْ على الكُفر، دونَ أنْ يَنقُصَ مِنْ ذُنوبِ الآخَرينَ شَيء، ويُحاسَبونَ على كُلِّ ذلك، ويُسألونَ عمَّا اختَلَقُوهُ مِنَ الكذِبِ والباطِلِ على النَّاس، بزَعمِهِمْ حَملَ خَطاياهُمْ عَنهم، وبتَزيينِ الشَّرِّ لهم.

هؤلاءِ الذينَ تأتي إليهمُ الملائكةُ المكلَّفةُ بقَبضِ الأرْواح، وهمْ في ساعَةِ الاحتِضار، وقدْ ظَلَموا أنفُسَهمْ بكُفرِهمْ وعِصيانِهم، يَستَسلِمونَ لهمْ ويُظهِرونَ السَّمعَ والطَّاعَة، ويَقولونَ وهمْ في مَوقِفِ ذُلٍّ وإهانَة: ما كُنّا نعمَلُ عمَلاً سيّئاً، ولا ارتَكبنا خطأ! بلَى أيُّها المشرِكون، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما كسَبتُمْ منْ سُوءٍ وضَلالٍ وفُجور، وسيُجازيكُمْ على كُلِّ ذلك.

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (النحل : ٢٨)

الجهل

{أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى} (النجم : ٢١)

أتُحِبُّونَ لأنفُسِكمُ الذُّكورَ مِنَ الأولاد، وتَجعَلونَ للهِ ما تَكرَهونَ مِنَ البَنات، فتَقولونَ إنَّ الملائكةَ بَناتُ الله؟ تَعالَى اللهُ عنْ ذلك.

فهذهِ قِسمَةٌ ظالِمَةٌ باطِلَة، أنْ تَجعَلوا للربِّ ما تَكرَهون، وتَجعَلوا لأنفُسِكمْ ما تُحِبُّون!

ما هذهِ الأصْنامُ إلاّ أسماءٌ فارِغَةٌ ليسَ لها أصلٌ مِنْ مَعنَى الأُلوهيَّة، جعَلتُموها أنتُمْ وآباؤكمْ أسماءً دالَّةً على آلهَةٍ مِنْ تِلقاءِ أنفُسِكم، بمُقتضَى أهواءٍ زائغَة، ما أنزلَ اللهُ بها حُجَّةً ولا بُرهانًا تَتعَلَّقونَ به، وما يتَّبِعونَ في ذلكَ إلاّ توَهُّمًا باطِلاً، وهوًى في أنفُسِهم، ولقدْ جاءَهمُ الرسُولُ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم بالقُرآن، وهوَ الحقُّ المبِين، ومعَ ذلكَ لم يتَّبِعوه.

(تفسير الآيات (٢١ – ٢٣) من سورة النجم

لقدْ خابَ المشرِكونَ وخَسِروا أفلاذَ أكبادِهمْ بقَتلِهم، وذلكَ لضلالِهِمْ وضيقِ عُقولِهِمْ وجهلِهِمْ بأنَّ اللهَ هوَ رازِقُهم ورازِقُ أولادِهم. كما ضيَّقوا على أنفسِهِمْ عندما حرَّموا أشياءَ لم يُنْزِلِ اللهُ بها سُلطاناً، كالبحائِرِ والسَّوائبِ وما إليهما، ومعَ ذلكَ نَسَبوها إليهِ كَذِباً وافتراء، لقدْ بَعُدوا عنْ طَريقِ الحقّ، وما كانوا أهلَ هِدايةٍ واستِقامة.

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [الأنعام: ١٤٠]

التكبر

ومن المناظراتِ التاريخيةِ والدينيةِ العظيمة، مَلِكٌ متكبّرٌ متعنّت، أعطاهُ اللهُ منَ المالِ ما أعْطاه، ثمَّ جاءَ يُجادلُ النبيَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ويُخاصِمهُ في ربّه، وذلكَ لما رأى نفسَهُ مختصّاً بمالٍ ومُلكٍ ليسَ عندَ غَيرِه، ويأمرُ وينهَى كما يَشاءُ فيُسمَعُ ويُطاع، فقالَ لهُ إبراهيمُ عليهِ السلام، لِيُرِيَهُ حَقيقَةَ نفسهِ وضَعْفَ قوَّتهِ وإرادتهِ أمامَ ربّهِ الخالق: إنَّ اللهَ يُحْيي ويُمِيتُ، وإنَّ ما يُرَى مِنْ ذلكَ في عالمِ الإنسانِ والحيوانِ دليلٌ على وجودِه، وعلى تَصريفهِ للكونِ وتَدبيرِهِ لما يَجري فيهِ وحدَه، فهي لا تَحْدُثُ بنفسِها، بلْ لا بدَّ لها مِنْ مُوجدٍ ومِنْ مدبّرٍ، وهوَ الذي يَسْلُبُ حياةَ مَنْ شاءَ متَى شاء، بأسبابٍ ظاهرةٍ أو باطِنة، مَعروفةٍ أو غيرِ مَعروفة.

فالإحياءُ والإماتةُ مِنْ صفاتِ هذا الإلهِ الذي لا يَكونُ أحدٌ مثلَه، ولا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يَقومَ بما يقومُ هوَ به، وهوَ الذي أعبدهُ وأدعوكَ وأدعو الناسَ إلى الاستسلامِ لهُ وعبادتِه، فهوَ الخالق، والمحيي والمميت، الذي بيدهِ كلُّ شَيءٍ في هذا الكون، فلا إلهَ إلا هو، ولا عبادةَ إلاّ له.

واغترَّ هذا المِلكُ المتكبّرُ بما يَملِكُ مِنْ قُوىً بشَريَّةٍ وسَيطرة، فتمادَى في غَيِّهِ وقالَ لإبراهيم: أنا أيضاً أُحيي وأميت!

ذكرَ غيرُ واحدٍ أنَّهُ أوتيَ برَجُلَينِ استحقّا القَتل، فأمرَ بقَتلِ أحدِهما وعفَا عنِ الآخَر، فذكرَ أنَّهُ أماتَ الأوَّلَ وأحيَا الآخَر، فكانَ هذا مفهومَ الإحياءِ والإماتةِ عندَه!

ولم يُرِدْ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ أنْ يُطيلَ معَهُ الجِدالَ وهوَ بهذهِ العقليَّةِ المتكبّرةِ المنكَرة، فأرادَ أنْ يُفهِمَهُ أنَّ الإلهَ المقصودَ بعبادتهِ هوَ المتصرِّفُ في الكونِ كلِّه، وأنَّ هذهِ القوانينَ الكونيَّةَ الموجودةَ هي منْ صُنعهِ وتَدبيرِه، وطلبَ منهُ تغييرَ قانونٍ واحدٍ منْ هذهِ القوانينِ الكثيرةِ المبثوثةِ في الكون، بما أنَّهُ يدَّعي أنَّهُ هوَ الآخَرُ فيه صفةُ الربوبية، وقالَ له: إنَّ اللهَ جعلَ الشمسَ تُشرقُ منَ الشرق، فَأْمُرْها أنتَ لتُشْرِقَ منَ الغرب!

فتحيَّرَ ذلكَ المِلكُ وسكت، وعَجَزَ عنِ الكلام، وصُدِمَ بهذهِ الحُجَّةِ الدامغةِ التي لم تَدَعْ لهُ منطقاً يُدافعُ بهِ عنْ نفسِه. لكنَّهُ لم يُسَلِّمْ بالأمرِ ولم يؤمن، لأنَّهُ لم يرغبْ في الحقّ، ولم يَتلمَّسْ

طريقَ الهِداية. واللهُ لا يَهدي هؤلاءِ الذينَ يَظلِمونَ أنفسَهم، فيَختارونَ طريقَ الضلالِ والعِناد، على الرَّغمِ منْ وضوحِ الحُجَّةِ ضدَّهم.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (البقرة:٢٥٨)

العناد

من مواقفِ الكفّار: العِناد، فإنَّهم يصرُّونَ على عقيدَتِهم الباطلة، وآرائهمُ الفاسدة، ولو كانت مخالفةً للعقلِ والفِطرة، كما في هذهِ الآيةِ الكريمة:

{وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ} [الأنعام: ٨]

أي: قالَ الكافِرونَ في عِنادٍ واستِكبار، لا بقَصْدِ الإيمان: هلاّ أُنزِلَ على هذا الرسُولِ مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ يُخبِرُهمْ أنَّهُ رسولٌ مِنْ ربِّه؟ وهمْ يَقصِدونَ المَلَكَ بصورتِهِ الحقيقيَّة، وهذا ما لا يُمكن. ولو أنزلنا مَلَكاً كما هو، لتَمَّ أمرُ إهلاكِهم، بسببِ هولِ مَنظرِه، معَ ضَعْفِ ما همْ فيهِ منَ القوَّة. ثمَّ لا يُمْهَلونَ بعدَ إنزالِهِ ومشاهدتهِ لِيُسَلِّموا بالأمرِ أو يَتوبوا، لأنَّ الموتَ يكونُ قدْ سبقَهم.

ومنْ وجهٍ آخر: إذا أنزلَ اللهُ المَلَكَ ولم يُؤمنوا أهلَكهم، ولم يُنْزِلْهُ تعالَى لئلاّ يَستَحِقُّوا هذا العَذاب.

قالَ الله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} [الأنعام: ٩]

أي: لو بَعثنا إليهمْ أحدَ الملائكة، ليكونَ نبيّاً مُرسَلاً إليهم، أو مُصَدِّقاً للنبيّ المرسَلِ إليهم، لجعَلناهُ في صُورةِ رَجُلٍ آدَميٍّ على شَاكلَتِهم؛ ليُنتَفعَ بهِ بما يُناسبُهم، ولو كانَ في صُورتهِ الأصليَّةِ لَما كانَ بالإمكانِ النظرُ إليهِ أصلاً، ولو جُعِلَ في صورةِ رَجُلٍ لالتَبَسَ عليهمُ الأمرُ وقالوا: ما هذا إلاّ بَشَر، وليس مَلَكاً، ثمَّ يَقولونَ في الرسالةِ ما يَقولونَ في رسالةِ الرسُولِ البَشَريّ.

وقالَ المشـركونَ في تَعنُّتٍ وضَـلالٍ دونَ أنْ يَقتَنِعوا بآياتٍ سَـابقةٍ رأوها منَ الرسُـولِ صـلى الله عليه وسلم: هلاّ أُنزِلتْ عليهِ آيةٌ خارِقةٌ تكونُ دليلاً على نبوَّتِه؟

فقلْ لهمْ يا نبيَّ الله: إنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُنـــــزِّلَ آيةً خارقةً كما أنزلها مِنْ قبلُ على أنبياءَ سـابقِين، ولا يُعجِزُهُ شـيءٌ مِنْ ذلكَ وهوَ خالِقُ الكون، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمونَ أسبابَ الإمهالِ والتأخِير، فلو أنَّهُ سُبحانَهُ أنزلها وفقَ ما طَلبوا ثمَّ لم يؤمِنوا لعاجلَهمْ بالعُقوبة، كما فعلَ بالأمَمِ السَّـابقة. {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِـلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ} [سـورة الإسـراء: ٥٩].

وهو تفسيرٌ للآية: {وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلِ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٣٧]

وحَلَفَ المشـركِونَ حَلِفاً مؤَكَّداً أنَّهُمْ إذا جاءَتهمْ مُعجِزةٌ كما اقترَحوها، ليُصَـدِّقُنَّها ويؤمِنُنَّ بها. وقدْ سبَقَتْ مُعجِزاتٌ لهُ صلى الله عليه وسلَّم فلمْ يؤمِنوا بها، فكانَ غرضَـهمُ التعنُّتُ والعِنادُ، لا الهدايةُ والإيمانُ كما قالوا، فقلْ لهمْ أيُّها النبيُّ: إنَّما المعجِزاتُ والخوارِقُ منْ عندِ الله، إنْ شَـاءَ أتَى بها وإنْ شَـاءَ أمسَـكَها، وليسَ لي منَ الأمرِ شَـيء، فلا أقدِرُ على الإتيانِ بها مِنْ عندي. وأنتُمْ – أيُّها المؤمنونَ – ما يُدريكمْ لعلَّ المعجِزاتِ إذا جاءَتهمْ لا يُؤمِنونَ بها، فلا تُصَـــدِّقوهمْ ولو حَلَفوا. كما قالَ اللهُ تعالَى: {وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٠٩]

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً} (الفرقان : ٣٢)

وقالَ المشـركِونَ تعَنُّتًا ولجاجَة: هَلاّ نزَلَ هذا القُرآنُ دُفعَةً واحِدَةً على محمَّدٍ كما نزَلَتِ الكتُبُ السَّابقَةُ على الأنبياء، بدَلَ أنْ تَنزِلَ سُوَرٌ وآياتٌ مُتفَرِّقاتٌ بينَ مُدَّةٍ وأخرَى؟

وقَدْ نَزَّلناهُ مُتَفَرِّقًا لنُقَوِّيَ بهِ فؤادَك، وبيَّنَّاهُ وفَصَّلناهُ تَفصيلاً.

وقدْ أنزلَ اللهُ تعالَى القُرآنَ الكريمَ إلى السَّـــماءِ الدُّنيا جُملَةً واحِدً في ليلَةِ القَدْر، ثمَّ نزَلَ مُتَفَرِّقًا على رَسـولِ اللهِ صـلى الله عليه وسـلم على مدَى ثلاثٍ وعِشـرينَ سـنَة، بحسَـبِ الحوادِثِ

والوقائع، وعندَ الحاجَةِ إلى مَعرِفَةِ الأحكام؛ ليَثبُتَ في القُلوب، وفيهِ تَيسيرٌ لحِفظِهِ وفَهمِ مَعانيه، وتَجديدٌ للإعجازِ وتَذكيرٌ به، وردٌّ على الطَّاعِنينَ والمشَكِّكينَ والمنافِقين، وفوائدُ أُخرَى.

{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} (الفرقان : ٣٣)

ولا يأتيكَ الكافِرونَ بشُبهَةٍ واقتِراحٍ باطِل، إلاّ جِئناكَ في مُقابلِهِ بحُجَّةٍ واضِحَةٍ وجَوابٍ شافٍ صَحيح، نَقْذِفُ بهِ على باطلِهِمْ فيَدْمَغُهُ ويُزْهِقُهُ، ويَكونَ أبينَ أفصحَ مِنْ مَقالِهم.

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} (فصلت : ٥)

وقالَ لكَ المشـــرِكون: إنَّ على قُلوبِنا أغطيَةً كثيفَةً ممَّا تَدعونا إليهِ مِنَ الإيمانِ والتَّوحيد، وفي آذانِنا صَـمَمٌ وثِقْلٌ، فلا نَسـمَعُ ما تَقولُ ولا نَفهَمُه، ومِنْ بَينِنا وبينِكَ حاجِزٌ غَليظٌ في الدِّين، فلا يُمكِنُ أنْ نَلتَقي، فاعمَلْ أنتَ على طَريقَتِكَ ودِينِك، ونحنُ نَعمَلُ على طَريقَتِنا ولا نتَّبِعُك.

الخصومة والجدال

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} (الزخرف : ٣١)

وقالَ المشـــرِكون: هلاّ نزَلَ القُرآنُ على رَجُلٍ عَظيم، مِنْ مكَّةَ أو الطَّائف. يَعنونَ الوَليدَ بنَ المغيرَةَ مِنْ مكَّة، وعُروَةَ بنَ مَسعُودٍ الثَّقَفيَّ مِنَ الطَّائف.

{أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَـمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَـتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَـهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} (الزخرف : ٣٢)

أهمُ الذينَ بيدِهِمْ مَفاتِحُ النبوَّة، فيَختارونَ مَنْ يَشاؤونَ لذلك، ويَستَبعِدونَ مَنْ يَشاؤونَ منهم؟ إنَّ الأمرَ كُلَّهُ بيدِ الله، هوَ الذي فاوَتَ بينَ البشَـرِ في كثيرٍ مِنَ الأمُور، فهوَ العالِمُ بمَنْ يَصـلُحُ للرِّسـالَة. نحنُ وزَّعنا بينَهمْ أرزاقَهمْ وأسـبابَ مَعيشَـتِهِمْ في الحيَاةِ الدُّنيا، وجعَلنا بَعضَـهمْ فوقَ بَعضٍ درَجاتٍ في الغِنَى والجَاهِ وما إليه، ليَستَخدِمَ بَعضُـهمْ بَعضًـا في مِهَنِهِمْ ومَصـالحِهم، هذا بمـالِهِ وذاكَ بعمَلِه، وهـذا بإدارَتِهِ وذاكَ بقوَّتِه، وكُـلٌّ يَحتاجُ إلى الآخَر. ومـا أعـدَّهُ اللهُ لعِبـادِهِ

المؤمِنينَ في الدَّارِ الآخِرَة، خَيرٌ مِنَ الأموَالِ وســـائرِ مَتاعِ الدُّنيا، فالدُّنيا إلى زَوال، ورَحمَةُ اللهِ باقيَة.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} (الأحقاف : ١١)

وقالَ الكافِرونَ لمَنْ آمنَ مِنْ أصحابِك: لو كانَ القُرآنُ خَيرًا لم يَسبِقْنا إليهِ مَنْ بلَغَنا إسلامُهم – وكانوا يرَونَ فَضلَهمْ على أمثالِ صُهَيبٍ وبِلالٍ وعَمَّارٍ وغَيرِهمْ رَضيَ اللهُ عَنهم –. وبما أنَّهمْ لم يَهتَدوا بالقُرآنِ كما اهتدَى بهِ مَنْ أسلَم، فسيَطعَنونَ فيهِ ويَقولون: هوَ أساطيرُ الأوَّلين!

{أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} (يس : ٧٧)

ألَا يَتفَكَّرُ الإنسَانُ في نَفسِهِ ليَعلمَ أنَّا خلَقناهُ مِنْ نُطفَةٍ صَغيرَةٍ حَقيرَة، فإذا هوَ يُخاصِمُ ويُجادِلُ بالباطِل، ويَجهَرُ بذلكَ مُعجبًا بنَفسِهِ وبما يَقول؟!

{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} (يس : ٧٨)

وضَرَبَ هذا الكافِرُ بالبَعثِ مثَلاً لنا، ونَسِيَ بَدْءَ خَلقِنا له، فجاءَ إلى الرسُولِ صلى الله عليه وسلم وفي يَدِهِ عَظْمٌ قَديم، ففَتَّتَهُ أمامَهُ وقالَ له: أتَزعُمُ أنَّ اللهَ يَبعَثُ هذا بَعدَما أَرِم؟

فقالَ لهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "نعَم، يَبْعَثُ اللهُ تعالَى هذا، ويُميتُك، ثمَّ يُحييك، ثمَّ يُدخِلُكَ نارَ جهنَّم". رواهُ الحاكمُ وصحَّحه.

{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} (يس : ٧٩)

قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: سيُحيي العِظامَ الذي أَوجدَها أوَّلَ مرَّةٍ وهيَ لا شَيء، وهوَ العَليمُ بجَميعِ المخلوقات، وأجزائها وعِظامِها المتَفتِّتةِ والمتفَرِّقَةِ في أنحَاءِ الأرْض.

{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} (يس : ٨١)

أوَليسَ الذي خلقَ هذهِ السَّــماواتِ السَّــبعَ العَظيمَة، والأرضَ وما فيها مِنْ أناسِــيَّ ودَوابّ، وأشــجَارٍ وأنهار، وجِبالٍ وقِفار، أليسَ بقادِرٍ على أنْ يَخلُقَ بشَــرًا مثلَهم، فيُعيدَ خَلقَهمْ يَومَ

البَعثِ كما بَدأ خَلقَهمْ أوَّلَ مرَّة؟ بلَى، هوَ القادِرُ على خَلقِ ما يَشاء، خَلقًا بعدَ خَلق، العَليمُ بكُلِّ ما خَلَق.

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} (الزخرف : ٥٧)

ولما ذَكَرَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم للمشرِكينَ أنَّهمْ وما يَعبُدونَ حَصَبُ جهنَّم، جادلَهُ أحَدُهمْ وقال: إنَّ النَّصارَى كذلكَ تَعبدُ عيسَى، فهمْ وعيسَى في جهنَّم. فضَجَّ المشرِكونَ وظَنُّوا أنَّهُ حاجَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم!

{وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}

وقالوا له: أآلهتُنا أفضَلُ أمْ عيسَى؟! إنَّنا نَرضَى أنْ نَكونَ وآلهتَنا معَ عيسَى في جهنَّم، مادامَ هوَ أيضًا سيَكونُ فيها! وما ضرَبَ المشرِكونَ لكَ هذا المثلَ إلاّ خُصومَةً وجدَلاً عَقيمًا، بلْ همْ قَومٌ مُجادِلونَ بالباطِل.

والمرادُ بقَولِهِ تَعالَى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [سورة الأنبياء: ٩٨]: همْ وأصنامُهم.

{إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}

وما عيسَى بنُ مَريمَ إلاّ عَبدٌ مَخلوق، أنعَمنا عليهِ بالنبوَّة، وجعَلناهُ مُعجِزَةً وعِبرَةً لبَني إسْرائيل، فقدْ خلَقناهُ مِنْ غَيرِ أب، وأيَّدناهُ بمُعجِزاتٍ كبيرَة.

(سورة الزخرف، الآيات ٥٧ – ٥٩)

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (يس : ٤٧)

وإذا قيلَ لهم: أعطُوا الفُقَراءَ والمحتاجينَ ممَّا رزقَكمُ اللهُ مِنْ أموَال، قالَ الكافِرونَ للمؤمِنينَ في مُخاصَمَةٍ وجَهالَة: أنُطعِمُ هؤلاءِ الفقَراءِ الذينَ لو شَاءَ اللهُ لأطعَمَهمْ وأغناهُم؟ ما أنتُمْ إلاّ على خطأٍ بَيّنٍ في طلَبِكمْ هذا منَّا، فنَحنُ نُوافِقُ مَشيئةَ اللهِ في عدَمِ إعطاءِ المالِ لهم، وأنتُمْ تُطالِبونَ مُخالفَةَ مَشيئَتِه!

وجَهِلوا سُنَّةَ اللهِ في ذلك، والحِكمَةَ مِنَ الفَقرِ والغِنَى، ومِنَ الإنفاق.

الاستهزاء

لقدْ زُيِّنتِ الحياةُ الدُّنيا في عُيونِ الكافرينَ الذين رَضُوا برفاهيتِها، وتهالَكوا عليها، وتشبَّثوا بها، واطمأنُّوا إليها، ولم يتجاوزوها إلى ما هو أرقَى وأسمَى، وسَخِروا منَ المؤمنينَ الذين زَهِدوا فيها، وفضَّلوا حياةَ الجهادِ والدعوةِ والعِبادة، وأنفَقوا ما عندَهمْ ابتغاءَ وجهِ الله، ولو كانَ ما عندَهمْ قليلاً. فكانوا منَ المكرَمينَ الذينَ حازوا الحظَّ الأوفرَ والدرَجةَ العُليا، والآخَرونَ ذُلُّوا وأُهينوا وكانوا في الدرَكاتِ السُّفلَى.

قالَ اللهُ تعالَى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (البقرة:٢١٢)

السفه

أُمِرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَستَقبلَ في صَلاتِهِ الصخرةَ مِنَ بيتِ المقدسِ أوَّلاً، فكانَ هوَ والمسلمونَ على ذلك، ستةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهراً، كما في صحيحِ البخاريّ. وكانَ عليه الصلاةُ والسلامُ يَبتَهِلُ إلى اللهِ أنْ يَجعلَ قِبْلَتَهُ الكعبة، قبلةَ إبراهيمَ عليهِ السلام، فأُجيبَ إلى ذلك، فحصلَ شكٌّ وزيغٌ عنِ الحقِّ منْ أهلِ النفاقِ والريبِ والكفَرةِ من اليهود، وقالوا: ما الذي صَرفهمْ عنْ قِبلتِهمُ الأولى؟ وخاصَّةً أنَّ اليهودَ كانوا يتذرَّعونَ بأنَّ الاتجاهَ إلى بيتِ المقدسِ يَعني أنَّ دينَهمْ هوَ الأصل، وأنَّهُ هوَ الصَّحيح. فصَاروا يُلقُونَ بذورَ الشكِّ والشائعاتِ في صفوفِ المجتمعِ الإسلاميّ، حولَ مصيرِ صلواتِهمُ السابقة، وسببِ الانتقالِ منْ قِبلةٍ إلى أخرى، وأنَّهُ يدلُّ على عدمِ السدادِ، فليسَ بوحي...!

فسمّاهمُ اللهُ تعالَى "السفهاء"، وهمُ الذين خفَّتْ عقولُهم، وامتَهنوها بالتقليدِ والإعراضِ عنِ التدبُّرِ والنظَر، أو أنَّ السفيهَ هوَ الكذّابُ المتعمّدُ خلافَ ما يَعلم، أو الظَّلومُ الجَهول. فإنَّ اللهَ تعالَى لهُ مطلقُ الحكمِ والتصرُّفِ في الأمر، فلهُ المشرِقُ والمغرِب، الجهاتُ كلُّها له، فأينَما حدَّدَ القِبلةَ يتوجَّهُ المؤمنونَ إليها دونَ اعتراض، ما عَليهمْ إلا الطاعَةُ وامتثالُ الأمر. والكعبةُ أشرفُ

بيوتِ اللهِ في الأرض، فهي بناءُ إبراهيمَ عليهِ السلام. ويَهدي اللهُ مَنْ شاءَ مِنْ عبادهِ إلى نَهجهِ الصحيحِ إذا رأى فيهمْ نيَّةً وتوجُّهاً إليه، أمّا السفهاءُ ففي الغَيِّ والضلالِ يَتَخبَّطون.

قال الله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (البقرة : ١٤٢)

ثم بيَّنَ سبحتمهُ أن الموقفَ الصحيحَ من أمرِ اللهِ تعالَى هو الامتثالُ له:

{لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشْرِقِ وَالمغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالموفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ} (البقرة:١٧٧)

فليستِ الغايةُ منَ التوجُّهِ إلى المشرقِ والمغربِ هوَ الجهةُ بعينِها، ولا القيامُ بحركاتٍ ظاهرةٍ نحوَها، فلا تَكمُنُ الخيريَّةُ في هذهِ الأمورِ مجرَّدةً عنِ الدافعِ منْ ورائها وطاعةِ الآمرِ بها، فجِماعُ الخيرِ هوَ في العَقيدةِ الصَّحيحَة، والطاعةِ لله، والتسليمِ بأمرِه، الذي يُعطي القيمةَ والقَبولَ لتلكَ الأعمال، الإيمانُ بهِ عزَّ وجلَّ أوَّلاً إيماناً عميقاً، وباليومِ الآخِرِ وما فيهِ منْ جَزاءٍ وحِساب، ونَعيمٍ وعَذاب، وبالملائكةِ جُندهِ ورسلهِ بينَهُ وبينَ عباده، وبالكتابِ الحقِّ المنزَلِ منْ عندِ اللهِ على رسولهِ لهدايةِ عبادِه، آخِرُها القُرآن، الذي نسخَ كلَّ ما قبلَهُ منَ الكتُب. وبأنبياءِ اللهِ كلِّهم، حتَّى خاتمِهم محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، منْ غيرِ تَفرقةٍ بينهمْ كما فعلَ أهلُ الكتاب.

والمؤمِنُ الصادقُ أيضاً هوَ مَنْ أنفقَ مِنْ مالِهِ وهوَ محبٌّ لهُ راغِبٌ فيه، فأعطاهُ لأهلهِ وأقربائه، ولليتامَى الذينَ فَقدوا آباءَهمْ وكانوا صِغاراً ضُعَفاء، والمساكينِ الذينَ لا يَجدونَ ما يَكفيهم، وابنِ السبيلِ الذي نَفِدَتْ نفقتُهُ وهوَ بعيدٌ عنْ وطنه، والسائلينَ الذينَ ألجأتهمُ الحاجةُ والضرورةُ إلى السؤال، وفي الرِّقاب: العبيدِ الذينَ يُريدونَ أن يُصبِحوا أحرَاراً ولا يجدونَ المبلغَ الكافيَ لإعطائهِ أسيادَهمْ منْ أجلِ ذلك.

ثمَّ حافظَ على عباداتِه، فأقامَ الصلاةَ المفروضةَ بشروطِها وأركانِها، وأدَّى زكاةَ مالِه. وأنْ يكونَ منَ الأوفياءِ بعهودِهمْ إذا عاهدوا، فلا يَخونُ ولا يَغْدِرُ كالمنافقينَ ومَنْ حَذا حَذْوَهم.

ومنَ الصابرينَ إذا أصابَهُ مَكروه، كفَقرٍ أو مَرض. وكذلكَ في حالِ القِتالِ ولقاءِ العدوّ.

فهؤلاءِ الذينَ اتَّصفوا بهذهِ الصفاتِ، همُ الذينَ صدَقوا ربَّهُمْ في إيمانِهم، فاتَّبعوا الحقّ، وتحرَّوا البِرّ، وأحرَزوا الخير، وابتَعدوا عنِ المحارمِ والموبِقاتِ وسائرِ الرذائل، وفعلوا الطاعاتِ المطلوبةَ منهم؛ امتثالاً لأمرِ اللهِ وخَشيةً منه.

الظلم

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى} (العلق : ٩)

أرأيتَ هذا المشركَ (أبا جَهلٍ) الذي يَمنَع؟

يَمنَعُكَ مِنَ الصَّلاةِ أيُّها الرسُولُ ويَقولُ لك: ألَمْ أنْهَكَ عنْ هذا؟ يَقولُ ذلكَ مِرارًا.

أرأيتَ إنْ كانَ هذا المصَلّي قائمًا على صِراطٍ مُستَقيم، مُهتَديًا بالحقِّ المبِين؟

أو آمِرًا بالتَّوحيد، داعيًا إلى الحقِّ والإحسَـــانِ والعَدل، مُرَغِّبًا في العمَلِ الصَّـــالحِ ومَكارِمِ الأخْلاق؟

أرأيتَ إنْ كانَ هذا المشرِكُ الذي يَمنَعُكَ مِنَ الصَّلاةِ مُكذِّبًا بالحقّ، مُعرِضًا عنِ الإيمَان؟

ألَمْ يَعلَمْ بأنَّ اللهَ يَسمَعُ ما يَقول، ويرَى ما يَفعَل، وسيَجزيهِ شرًّا على ما أساءَ وعصَى؟

كلاَّ لهُ ولفِعلِه، إذا لم يَنتَهِ عنْ إيذائكَ وتَكذيبِك، ولم يَرجِعْ عنِ العِنادِ والشِّقاقِ الذي هوَ فيه، لنَأخُذَنَّ بناصيَتِهِ ونَسحَبُهُ بها إلى النَّارِ يَومَ القِيامَة(١).

صاحِبُ هذهِ النَّاصيَةِ كثيرُ الكذِبِ والمعاصِي.

فليَدْعُ أهلَ مَجلسِه، مِنْ أهلِهِ وعَشيرَتِه، وليَستَنصِرْ بهم.

وقدْ قالَ أبو جَهلٍ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: إنَّكَ لتَعلَمُ ما بها نادٍ أكثَرُ منِّي.

(تفسير الآيات ٩ – ١٧ من سورة العلق)

ومن السـلوكِ المشـينِ للمشـركينَ منعُ المسـلمينَ ومعهم رسـولُ اللهِ صـلَّى الله عليه وسـلَّم يومَ الحُديبيةِ منْ دخولِ المسجدِ الحرام!

---

(١) الناصية: مقدَّمُ شعرِ الرأس. (ابن عطية).

وكانت العربُ تأنفُ من جرِّ الناصية. وفي "عين المعاني": الأخذُ بالناصيةِ عبارةٌ عن القهرِ والهوان. (روح البيان).

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ١١٤]
فلا تُمَكِّنُوا أحداً منهمْ مِنْ دخُولِهِ إذا قدَرتُمْ على ذلك أيها المسلمون.
وقد مُنِعُوا حقًّا عندما نَصَر اللهُ الإسلام، كما أوصَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُجلَى اليهودُ والنصارَى منْ جزيرةِ العرب، فكانَ ذلكَ خِزياً لهمْ لا يوصَف، بالقتلِ والسبيِ والإذْلال، ولهمْ عذابٌ كبيرٌ على ما انتَهكوا منْ حُرمةِ البيتِ وامتَهنُوه، منْ نَصْبِ الأصنامِ حولَه، والدعاءِ إلى غيرِ اللهِ عندَه، وغيرِ ذلكَ منْ أفاعيلِهمُ المنكَرة.

وكانوا من قبلُ فَتنوا المؤمنينَ في دينهم حتى خرجوا من ديارهم!
{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ} (البقرة:٢١٧)
فمنعُ الناسِ عنِ الدِّينِ الحقّ، والكفرَ باللهِ العَظيم، وبالمسجدِ الحرام، عندما انتهكَ المشركونَ حُرمتَه، وآذَوا المسلمينَ مِنْ أهلِه، وفَتَنوهمْ في دينِهم، وعذَّبوهمْ ليَرُدُّوهمْ إلى الكفر، وأخرَجوهمْ منْ حَرَمِهم، هوَ أشدُّ وأعظمُ منَ القَتلِ في هذهِ الأشهر.
وهمْ مُقيمونَ على هذا المسلَكِ الخَبيث، فلا يَزالونَ يقاتلونَكمْ غيرَ تائبينَ ولا نازعينَ عنْ ذلك، حتَّى يُعيدوكمْ إلى ملَّةِ الكفرِ والضَّلال، إذا قَدِروا عليه.

القتل والتعذيب

{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} (البروج : ٤)
لُعِنَ أصحَابُ الأُخدُود.
وكانَ كفَّارٌ يَحفِرونَ الأُخدُودَ في الأرْض، وهوَ الشَّقُّ الطَّويلُ فيها، ويُؤجِّجونَ فيهِ النَّار، ويُلقُونَ فيهِ المؤمِنين، الذينَ يأبَونَ أنْ يَرجِعوا إلى الكُفر.
{النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ} (البروج : ٥)
وقدْ أوقَدوا في الأُخدُودِ النَّارَ حتَّى صارَ كلُّهُ نارًا مُستَعِرَة.

{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ} (البروج : ٦)

وأحاطُوا بالنَّارِ قاعِدينَ حَولَها، مُشرِفينَ عَليها.

{وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} (البروج : ٧)

وهمْ يَشهَدونَ لبَعضِهمُ البَعضِ فيما فعَلوا بالمؤمِنين، وأنَّهمْ لم يُقَصِّروا في ذلك!

{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} (البروج : ٨)

وما نقَموا منهمْ هذا الانتِقامَ الفَظيع، إلاّ لكونِهمْ آمَنوا باللهِ الغَالبِ الذي لا يُقهَر، الحَميدِ المستَحِقِّ للحَمدِ والثَّناءِ بإنعامِهِ وإحسانِه، ولأنَّ المؤمِنينَ كفَروا بمَعبوداتِهمُ الباطِلَة.

{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (البروج : ٩)

اللهِ الذي لهُ ما في السَّماواتِ والأرْضِ وما بينَهما، خَلقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا. واللهُ شاهِدٌ على كُلِّ شَيء، لا يَغيبُ عنهُ أمْر، ولا تَخفَى عليهِ خافيَة.

{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} (البروج : ١٠)

إنَّ الذينَ عذَّبوا المؤمِنينَ وأحرَقوهمْ ليَرجِعوا عنْ دينِهم، ثمَّ لم يُقلِعوا عنْ كُفرِهم، ولم يَندَموا على ما فعَلوا، فلهمْ عَذابُ جهنَّم، ولهمْ حَريقٌ مؤجَّجٌ يُحرَقونَ فيه، جَزاءَ ما أحرَقوا المؤمِنينَ في الدُّنيا.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} (البروج : ١١)

إنَّ الذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمَانِهم، وعَمِلوا الأعمَالَ الصَّالحةَ الموافِقَةَ للإسْلام، لهمْ جنَّاتٌ واسِعاتٌ يَومَ القِيامَة، تَجري الأنهَارُ مِن خِلالِ مسَاكنِها وأشجَارِها، وذلكَ هوَ الفَوزُ والنَّجَاة، والسَّعادَةُ العُظمَى.

(تفسير الآيات ٤ – ١١ من سورة البروج)

الوأد

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} (النحل : ٥٨ – ٥٩)

وإذا أُخبِرَ الجاهِليُّ المشــرِكُ بولادَةِ أُنثَى له، صــارَ وجهُهُ مُسْــوَدًّا منَ الهمِّ والكآبةِ والكرَاهيَة، والنُّفورِ والضِّيقِ ممّا بُشِّرَ به، وهوَ ساكِتٌ مَهموم، قدِ امتلأ حُزنًا وكمَدًا مِنْ ذلك، وكأنَّ بلاءً نزلَ به!

فيَتَســـتَّرُ مِنْ قَومِهِ ويَختَفي عنْ أنظارِهِمْ حتَّى لا يَرَونَهُ وهوَ في هذهِ الحالِ المعِيبَة، يَغيبُ عَنهمْ أيّامًا وهوَ يُفَكّرُ ما الذي يَصنَعُهُ بهذهِ الأُنثَى: أيُبقِيها حَيَّةً ويَتحمَّلُ هوانَها، أو يُبقيها مُهانَةً لا يوَرِّثُها، أمْ يَدفِنُها حَيَّةً تحتَ التُّرابِ ويَتخَلَّصُ منْ هذا العَارِ الذي لَحِقَه؟!

{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ} (التكوير : ٨)

وإذا سُــئلَتِ البِنتُ التي دُفِنَتْ حيَّة. فقدْ كانَ الجاهليُّ الذي يَدفِنُها يَطرَحُ عَليها التُّرابَ حتَّى يؤدَّها، أي يُثقِلَها، فتَموت.

ما الذي أخطَأَتْ فيه، وما هوَ الجُرمُ الذي ارتَكبَتْهُ حتَّى تُقتَل؟!

وكانتْ هذهِ العادَةُ انتَشــرَتْ في قَبائلَ منَ الجاهليَّة، فتُوأَدُ البِنتُ خَوفًا مِنْ أنْ يُوصَــمَ أبوهَا بالعَار، لأنَّهُ رُزِقَ بأُنثَى! أو خَوفًا مِنَ الفَقرِ الذي يَخشاهُ على نَفسِهِ وأهلِهِ منها! معَ أنَّها كانتْ تُزَوَّج، وتُنجِب، وتَخدِم، وتَرعَى... ولكنَّها الجاهليَّةُ الجَهلاء[٢].

(٢) لم يكنِ الوأدُ معمولاً به عند جميعِ القبائل، قيل: أولُ من وأدَ البناتِ من القبائلِ ربيعةُ، وكانتْ كندةُ تئدُ البنات، وكان بنو تميمٍ يفعلون ذلك، ووأدَ قيس برُ عاصم المِنْقَري من بني تميمٍ ثمانِ بناتٍ له قبلَ إسلامه. ولم يكنِ الوأدُ في قريشٍ ألبتَّةَ. وكان صعصعة برُ ناجية جدُّ الفرزدق من بني تميم يفتدي مَن يعلمُ أنه يريدُ وأدَ ابنتهِ من قومهِ بناقتينِ عُشَرَاوينِ وجَمَل... (التحرير والتنوير).

الندم

{وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} (إبراهيم: ٤٤)

واذكُرْ للنَّاسِ عَواقِبَ الكفرِ والمعاصـي، وخَوِّفْهُمْ هَولَ يومِ القيامَةِ يومَ يأتيهمُ العذابُ الرَّهيب، فيقولُ الذينَ أشرَكوا: ربَّنا أعِدْنا إلى الدُّنيا وأمهِلنا مُدَّةً قَصيرةً منَ الزَّمان؛ نُجِبْ دَعوةَ التَّوحيد، ونؤمِنْ برسُلِك، ونتَّبِعْهُمْ فيما يَطلبونَ منّا.

فيُجابُون: أوَلَمْ تَكونوا حلَفتُمْ في الدُّنيا أنَّكمْ لا تُبعَثونَ بعدَ الموت، وأنَّهَ لا مَعادَ ولا حِساب؟

الفصل التاسع

مواقف المنافقين

النفاق

{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْـهَدُ إِنَّكَ لَرَسُـولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُـولُهُ وَاللَّهُ يَشْـهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} (المنافقون : ١)

إذا أتاكَ المنافِقونَ وحضَروا مَجلِسَكَ أيُّها الرسُول، أظهَروا الإسْلامَ وقالوا: نَشهَدُ أنَّكَ رسُولُ الله، واللهُ يَعلَمُ أنَّكَ رَسُولُهُ إلى النَّاس، واللهُ يَشهَدُ أنَّ المنافِقينَ كاذِبون، لأنَّهُمْ يُضمِرونَ خِلافَ ما يَعتَقِدون.

لقدْ جعَلوا حَلِفَهمُ الكاذِبَ وِقايَةً لأُنفُسِهمْ حتَّى يُصَدِّقَهمُ النَّاس، فاغتَرَّ بهِ بَعضُهمْ وظَنُّوا أنَّهُمْ مُسلِمون، وصَدَّقوهمْ فيما يَقولون، فصَارَ المنافِقونَ يَمنَعونَهُمْ مِنَ الجِهادِ وطاعَةِ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، ويُشَكِّكونَهُمْ في العَقيدَةِ الإسلاميَّة، بئسَ ما يَعمَلونَ مِنَ الكذِبِ والخِداعِ والتَّضلِيل.

وقدْ حصَلَ لهُمُ النِّفاقُ لكَونِهِمْ نطَقوا بالشَّهادَتَينِ ثمَّ رجَعوا عنْ الإيمانِ إلى الكُفر، كما بَدا نِفاقُهمْ مِنْ أيمانِهِمُ الكاذِبَةِ ومَواقِفِهمُ السيِّئة، فخُتِمَ على قُلوبِهِمْ بالكُفر، فهمْ لا يَفقَهونَ الإيمَان، ولا يَهتَدونَ إلى الحقّ.

وإذا نظَرتَ إليهِمْ أعجبَكَ مَنظَرُ أجسَامِهم، وإذا تَكلَّموا استمَعتَ إليهم، لفَصاحَتِهِمْ وحَلاوَةِ كلامِهم، كأنَّهُمْ أخشابٌ مُسْنَدَةٌ إلى حائط، فهيَ أشجارٌ لا تُثمِر، وكأنَّهُمْ أجسَامٌ بلا عُقول. والخَوفُ والهلَعُ يَسكنُ قُلوبَهم، فإذا سَمِعوا جلَبَةً أو صَوتًا ما، خافُوا وظَنُّوا لجُبْنِهِمْ أنَّ الأمرَ نازِلٌ بهم. وهمُ الأعدَاءُ الرَّاسِخونَ في العَداوَة، فاحذَرْهمْ ولا تأمَنهم، ولا تَغترَّ بظاهِرِهِمْ وكلامِهِمُ المِعسُول، لعنَهمُ الله، كيفَ يُصرَفونَ عنِ الحقِّ إلى الكُفرِ والضَّلال؟!

وإذا قيلَ لهم: تَعالَوا إلى رسُـولِ اللهِ واعتَذِروا مِنْ أفعالِكمُ السـيِّئةِ وتُوبوا إلى الله، ليَدْعوَ لكمْ ويَطلُبَ مِنَ اللهِ أنْ يَغفِرَ لكم، أمالُوا بوجُوهِهمْ ورَأيتَهمْ يُعرِضونَ عنْ ذلك، استِكبارًا واستِحقارًا لِما قيلَ لهم.

والأمرُ سَواء، إنِ استَغفَرْتَ لهم، أمْ لم تَستَغفِرْ لهم، فإنَّ اللهَ لنْ يَغفِرَ لهم، لرسُوخِهمْ في الكُفر، إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ لِمَنْ خرَجَ عنِ الطَّاعَةِ وأصرَّ على ذَنبِه، واستَكبَرَ عنْ قَبولِ الحقّ.

إنَّهمُ المنافِقون، الذينَ قالَ كبيرُهمْ بعدَ غَزوَةِ بَني المصـطَلِق: لا تُنفِقوا على مَنْ عندَ رسُـولِ اللهِ مِنْ فُقَراءِ المهاجِرين، حتَّى يَجوعُوا فيَتفَرَّقوا عنهُ ولا يَصحَبوه. وخَزائنُ الأرزَاقِ ممَّا في السَّماواتِ والأرْضِ للهِ تَعالَى، يُعطي منها مَنْ يَشاءُ ويَمنَعُها مَنْ يَشاء، ولكنَّ المنافِقينَ لا يَعرِفونَ ذلك؛ لجَهلِهمْ باللهِ تَعالَى، ويَظنُّونَ أنَّهمْ لو لم يُنفِقوا على الصَّحابَةِ الفُقَراءِ لتفَرَّقوا عنه، ولضَعُفَ الدِّينُ بذلك. وهمْ يَحسَبونَ أنَّ لُقمَةَ العَيشِ هيَ كلُّ شَيءٍ في الحيَاة! وأنَّهمْ بفِعلِهمْ هذا يتَحكَّمونَ في الأرزَاق! بينَما همْ لا يتَحكَّمونَ في أرزَاقِهم.

ويَقولُ كبيرُ المنافِقينَ أيضًا: إذا رجَعنا إلى المدِينَةِ مِنْ هذهِ الغَزوَة، فسيُخرِجُ منها الأعِزَّةُ – يَعني نَفسَهُ وأتْباعَهُ المنافِقينَ – الأذِلَّةَ، يَعني الرسُولَ صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ المؤمنين!

ولله الغَلبَةُ والقوَّةُ ولِمَنْ أعَزَّهُ اللهُ تَعالَى مِنْ رَسُولِهِ والمؤمنين، لا لغَيرِهم. والعِزَّةُ المستَمدَّةُ مِنْ عِزَّتِهِ تَعالَى لا تَهونُ ولا تَلين، ولا تَخرُجُ مِنَ القَلبِ إلاّ أنْ يَضـعُفَ فيهِ الإيَمان، ولكنَّ المنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك؛ لجَهلِهم، وضَلالِهم، وغُرورِهم.

(تفسير الآيات ١ – ٨ من سورة المنافقون)

ومن شأن المنافقين: العمل في السرّ بما تخفيه قلوبهم:

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤]

فإذا لَقُوا المؤمنينَ أظهروا لهمُ الإيمانَ والموالاة، ليتَّقوا بذلكَ أذًى يُصـيبُهمْ مِنهم، وليتَّخِذوا هذهِ التَّقيَّةَ وسيلةً لكي يُؤذُوهم، وليُشارِكوهمْ فيما يُصيبونَهُ مِنْ مَغنم.

وإذا انصَرفوا إلى رؤسائهمْ وسَادتِهم، منْ أحبارِ اليهودِ ورؤوسِ المشركينَ وكُبَرَاءِ المنافقين، قالوا لهم: نحنُ مَعكم، إنَّما كنَّا نَسْخَرُ بالمؤمنين!

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (المجادلة : ١٤)

ألَمْ تَنظُرْ إلى المنافِقينَ الذينَ يَقولونَ إنَّهُمْ معَكم، وقدْ والَوا اليَهودَ الذينَ غَضِبَ اللهُ عَليهم، وناصَحوهم ونقَلوا أسرَارَ المؤمِنينَ إليهم؟ فهمْ ليسُوا منكمْ في الدِّينِ والولايَة، ولا مِنَ اليَهودِ والكافِرين، بلْ همْ مُذبذَبونَ بينَ هؤلاءِ وهؤلاء، ويُقسِمونَ على أمرٍ كذِب، وهمْ يَعلَمونَ أنَّ ما أقسَموا عَليهِ كذِبٌ وبُهتان.

{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (المجادلة : ١٥)

هيَّأ اللهُ لهمْ عَذابًا مؤلِمًا بسبَبِ صَنيعِهمُ السيِّءِ هذا، ومُوالاتِهِمْ لأعداءِ الدِّين، ومُعاداتِهِمْ للمؤمِنينَ وغِشِّهمْ لهم.

{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (المجادلة : ١٦)

لقدْ أظهرَ المنافِقونَ الإيمَانَ وأسَرُّوا الكُفر، واتَّخذوا الحَلِفَ بالكذِبِ عندَ الحاجَةِ وقايةً وسِترًا لهمْ عنِ المؤاخذَةِ والمحاسبَة، وظنَّ مَنْ لم يَعرِفْهمْ واغترَّ بهمْ أنَّهمْ صادِقون، فقدْ كانَ المنافِقُونَ يَحثُّونَ على العِصيان، ويَمنَعونَ مِنَ الجِهادِ بالمالِ والنَّفس، فلهمْ عَذابٌ يُهينُهمْ ويُخزيهمْ يَومَ القِيامَةِ بسبَبِ ذلك.

قالَ اللهُ تعالَى في جزائهم: {لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (المجادلة : ١٧)

أي: لنْ يَنفعَ المنافِقينَ شَيءٌ ممَّا جمَعوهُ مِنْ أموَال، وشيَّدوهُ مِنْ قُصور، ولنْ يَستَطيعَ أولادُهمْ وذَراريهمْ أنْ يَمنَعوا عَنهمْ بأسَ اللهِ وعَذابَه، وسيَكونُ مَصيرُهمْ إلى النَّارِ المحرِقَة، التي تأتي على وجوهِهمْ وأفئدَتِهم، خالدينَ فيها أبدًا.

الكفر

ما بالُكمْ أيُّها المسلِمونَ قدْ صِرتُمْ فَريقينِ في مَوقِفِكمْ منَ المنافِقين، فمِنْ قائلٍ إنَّهمْ مُسلِمون، ومِنْ قائلٍ إنَّهمْ كفّار؟ وقدْ رَدَّهمُ اللهُ إلى الكُفرِ بعدَ الإيمانِ نَتيجةَ عِصيانِهمْ وضلالِهِمْ

ومُخالفتِهمُ الرسـولَ صـلى الله عليه وسـلم، فهلْ تُريدونَ بموقفِكمْ أنْ تَردُّوهمْ إلى الهُدَى وهمْ يُريدونَ الضَّـلال؟ فإنَّ اللهَ إذا أضـلَّ قوماً بحِكمتِه، لِما يَسـتَحِقُّونَهُ ولِما يَعرفُهُ مِنْ نيّاتِهِمْ وعزائمِهِمْ نحوَ الباطِل، فلنْ تَجِدوا لهمْ طَريقاً إلى الهُدَى والإيمان، كما لنْ تَجدوا حُجَّةً لهمْ مُقْنِعةً في سَببِ تَوجُّههِمْ إلى الضَّلالِ وتَفضيلِهِ على الهُدَى.
قالَ الله تعالَى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَـهُمْ بِمَا كَسَـبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء:٨٨]

وإذا جاءَكمُ المنافِقونَ صَـانَعوكمْ وطوَوا على الكفرِ قلوبَهم، وقالوا بألسـنتِهم: نحنُ مؤمِنون. والحقيقةُ أنَّهمْ دَخلوا إليكمْ كافرِين، وخَرجوا كافرِين، فلمْ يَنتفِعوا بمجالسـتِكم، ولم يَعزِموا على السَّماعِ منكم، واللهُ أعلمُ بما يُضمِرونَهُ في سَرائرِهم.
{وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ} [المائدة: ٦١]

وقالَ اللهُ تعالَى:
{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ١٢٤ – ١٢٥]

أي: إذا ما أُنزِلَتْ سُـورَةٌ منْ سُـوَرِ القُرآنِ على النبيّ محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلَّم، قالَ بعضُ المنافِقينَ لبَعضِهِمْ استهزاءً: أيُّكمْ ازدادَ بها إيمانًا ويَقينًا؟
فأمّا المؤمِنونَ فقدْ زادَتهُمُ الآياتُ القُرآنيَّةُ إيمانًا وتَصـديقًا، وهمْ يَسـتَبشِـرونَ خَيراً بنزولِها، لأنَّها تَزيدُ مِنْ حَسناتِهِمْ ودرَجاتِهم.
وأمَّا الذينَ في قُلوبِهِمْ شَكٌّ ونِفاق، فزادَتْهمْ شَكًّا إلى شَكِّهم، ونِفاقًا إلى نِفاقِهم، لأنَّهمْ يَكفُرونَ بما أُنزِلَ كما كفَروا بما أُنزِلَ سابقًا، واستَمرُّوا حتَّى ماتُوا على الكُفر.

وقالَ سُبحانه: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون} [التوبة: ١٢٧]

أي: إذا ما أُنزِلَتْ سورةٌ على رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، كَرِهَ المنافِقونَ أنْ يَسمَعوا كلامَ الله، فتَلَفَّتَ بعضُهمْ إلى بَعض، وقالوا: هلْ يَراكمْ أحَدٌ إذا قُمتُمْ منْ هذا المجلِس؟ ثمَّ ولَّوا جميعًا مُنصَرِفين؛ لشدَّةِ كراهَتِهمْ للقُرآن، وبُغضِهمْ لمجالسِ الإيمان، صَرَفَ اللهُ قُلوبَهمْ عنِ الإيمانِ بحسَبِ انصرافِهمْ عنْ ذلك المجلِس، ذلكَ بأنَّهمْ قومٌ جاهِلون، أو حَمقَى غافِلون، لا يَفهَمونَ ما يُصلِحُهمْ ممّا يَضرُّهم.

التذبذب

إذا بُسِطَ لهمُ الرِّزقُ وجاءَتهمُ الثِّمارُ والزُّروع، والنَّعيمُ والرَّخاء، قالوا: هذا مِنْ عندِ الله، وإذا أُصِيبوا ببَليَّة، مِنْ جَدْبٍ وغَلاءٍ، ونَقصٍ في الثِّمار، أو مَوتِ أولادٍ أو غَيرِ ذلك، قالوا للرسُولِ صلى الله عليه وسلم: هذا جاءَنا مِنْ قِبَلك، لأنَّنا اتَّبعناكَ واقتدَينا بدينِك! وكما قال سبحانَهُ في مثلِ ذلك: {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} [سورة الأعراف: ١٣١]. وهكذا كانَ المنافِقون، إذا أصابَهم الشرُّ أسنَدوهُ إلى اتِّباعِهمْ النبيَّ صلى الله عليه وسلم.

قلْ لهمْ أيُّها الرسُول: كلٌّ مِنْ عندِ الله، فالحسَنةُ والسيِّئة بقضاءِ اللهِ وقدَره، والنِّعمَةُ والبَليَّةُ مِنْ عندِه، وقَضاؤهُ ماضٍ في البَرِّ والفاجِر، ونافِذٌ في المؤمنِ والكافر، فما لهؤلاءِ القَومِ مِنَ اليهودِ والمنافِقينَ قدِ ابتُلوا بقلَّةِ الفَهمِ والعِلم، وكثرةِ الجَهلِ والظُّلم، ولا يَكادونَ يَفهَمونَ كلاماً يُوعَظونَ به؟!

{وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء:٧٨]

ترَى الذينَ في قلوبِهمْ شَكٌّ ونِفاق، ممَّنْ يُوالُونَ اليَهود، ويُبادِرونَ إلى مَعونتِهمْ ومَودَّتهم، يَقولونَ في سَببِ موقفِهم: إنَّهمْ يَخشَونَ أنْ يَنتصِرَ الكافِرونَ على المسلِمين. فهمْ يوالونَ المسلِمينَ حتَّى

تبقَى لهمْ يدٌ عندَهم، أو أنَّهمْ لا يَنقطِعونَ عنهمْ لمظنَّةِ حاجتِهمْ إلى أموالِهمْ في وقتِ جَدْبٍ وقَحْط!

أي أنهمْ يوالُونَ الفَريقَين، وموالاتُهم للمُسلمينَ خشيةَ ألّا يَتمَّ أمرُهم، فيدورَ الأمرُ عليهم، ويُصيبَهم مكروهٌ من الكفّار! وهذا مِن تَذبذُبِهمْ ونِفَاقِهم، وخَوفِهمْ على أنفُسِهم، وجعلِهمْ مَصلَحتَهمُ المؤقَّتةَ مبدأَهم.

فعسَى أنْ يَفتَحَ اللهُ عليكمُ أيُّها المسلِمون، فيَنصُرَكم، عندَ فتحِ مكَّة، أو فتحِ قُرَى اليهود، مثلِ خَيبرَ وفَدَك، أو إجلاءِ بني النَّضِير، أو قتلِ وسَبي ذَراريّ بني قُرَيظة، أو يُتِمَّ أمرَ الإسلامِ فيُظهِرَهُ على الدِّينِ كلِّه، وتَبقَى القوَّةُ والعِزَّةُ والنُّصرةُ للمُسلِمين، فيُصبِحُ المنافِقونَ الموالونَ لليهود، نادمينَ مُتحَسِّرينَ على موالاتِهمْ لهم، حيثُ لم يَنفعْهُمْ موقفُهمْ هذا شيئاً، بلْ زادَ اللهُ مِنْ حَسرتِهمْ أنْ فَضحَهمْ وأظهرَ أمرَهمْ للمُسلِمين، بعدَ أنْ كانوا مَستورِين.

{فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة: ٥٢]

الكذب

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (النور : ٥٣)

وحلَفَ المنافِقونَ حَلِفًا عَظيمًا أنَّكَ إذا أمرتَهمْ بالخُروجِ إلى الجِهادِ خرَجوا، قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: لا تَحلِفوا حَلِفاً فاجِرًا، فإنَّ طاعتَكمْ طاعَةٌ مَعروفَة، هيَ باللِّسانِ فقط، لا بالعمَل. واللهُ خَبيرٌ بأعمالِكمُ الظَّاهِرَةِ والباطِنَة، وما تُضمِرونَ مِنْ كُفر، وتَكذِبونَ في حَلِف.

ومنَ المنافِقينَ مَنْ كانَ يَستأذِنُ منَ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ للقُعودِ عنِ الجِهادِ ضدَّ الرُّوم، ويقولُ في سبَبِ ذلك: متَى أرَى نساءَ الرومِ أفتَتِن، فأْذَنْ لي ولا تَفْتِنّي. لقدْ سقطَ هؤلاءِ وأمثالُهمْ في الفِتنَةِ عندما قدَّموا اعتِذاراتٍ كاذبةً وتخلَّفوا عنِ الجِهاد، وإنَّ أعمالَهم تدلُّ على أنَّ جهنَّم تنتَظِرُهم، لتَجمَعَهمْ فيها وتُسْعَرَ بهم.

{وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَـــقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: ٤٩]

والمنافِقونَ يَخشَوْنَ أنْ تُنَـــزَّلَ سُورةٌ منَ القُرآنِ في شَأنِهم، تَفضَحُهمْ وتبيّنُ ما في قُلوبِهِمْ منَ الأسْرار، وما يَتداولونَهُ بينَهمْ منْ أقاويلِ الكُفرِ والنِّفاق، فقلْ لهم: استَهزِؤوا بما أنتُمْ مُستَهزِؤونَ به، وأسِرُّوا أقوالَكمْ حتَّى لا يَطَّلِعَ عليها أحَد، فإنَّ اللهَ سيُنـــزِلُ على رَسولهِ ما يَفضَحُكم به، ويبيّنُ لهُ أمرَكم.

{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُـــورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْـــتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ} [التوبة: ٦٤]

وإذا سألتَ المنافِقينَ عنْ سبَبِ قولِهِمْ والدَّاعي إلى استِهزائهم، قالوا: إنَّما كنّا نَخوضُ في الكلامِ ونَلهو، قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: أبالله، وآياتِ كتابِه، ورَسولِه، كنتُمْ تَستَهزِؤونَ وتَتهكَّمون؟

{وَلَئِن سَـــأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُـــولِهِ كُنتُمْ تَسْـــتَهْزِئُونَ} [التوبة: ٦٥]

وقالَ اللهُ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (النور : ١١)

رافقَتْ عائشَةُ رَضيَ اللهُ عَنها رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم في غَزوَةٍ غَزاها، وعندَما رجعَ ودَنا مِنَ المدينَة، وآذنَ ليلَةً بالرَّحيل، مَشَتْ هيَ حتَّى جاوَزَتِ الجَيشَ لتَقضِيَ حاجتَها. ولما عادَتْ لمسَتْ صَدرَها فإذا عِقْدُها انقطَع. فرجعَتْ تَلتَمِسُه، فوجَدَتْهُ بعدَما استَمَرَّ الجَيش، وعادَتْ إلى مَكانِها فلمْ تَجِدْ أحدًا هُناك. فنامَتْ وهيَ تَظُنُّ أنَّهمْ سَـــيَفقِدونَها ويَعودونَ إليها. وكانَ الصَّحابيُّ الجَليلُ صَفوانُ بنُ المعَطَّلِ مِنْ وَراءِ الجَيش، فرَآها، فأناخَ لها راحِلتَهُ فرَكِبَتْها، وانطَلَقَ يَقودُ بها الرَّاحِلَةَ حتَّى أتَوا الجَيش، فأشَاعَ المنافِقونَ أنَّهُ فعلَ بها! فبرَّأها اللهُ ممّا قالوا في آياتٍ أنزلَها في هذهِ السُّورَةِ مِنْ كتابِهِ الكريم.

إنَّ الذينَ جاؤوا بالكذِبِ والبُهتانِ الذي افترَوهُ على أُمِّ المؤمِنينَ عائشَةَ بنتِ أبي بَكرٍ الصِّدّيق، زوجِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، هُمْ جَماعَةٌ منكم، ولا تظنُّوا ذلكَ شَرًّا لكمْ – والخِطابُ

الأخيرُ للنبيّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وآلِ أبي بَكر – بلْ هوَ خَيرٌ لكم، ففيهِ ثَوابٌ على صَبرِكم، ورِفعَةُ منازلِكمْ في الآخِرَة، وظُهورُ كرامَتِكم، واهتِمامٌ وتَعظيمٌ لعِرْضِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، واعتِناءٌ بأُمِّ المؤمِنينَ رَضيَ اللهُ عَنها، فقدْ أنزلَ اللهُ براءَتَها في آياتٍ تُتلَى في كِتابِهِ إلى قِيامِ السَّاعَة. معَ تَشديدِ الوَعيدِ على المنافِقينَ وبيانِ أساليبِهمُ العَدائيَّة.

ولكُلِّ مَنْ تكلَّمَ بهذا الإفكِ العَظيمِ نَصيبٌ منَ العَذاب، والذي ابتدَأ بهِ وخطَّطَ لهُ وأشاعَهُ مِنْ بينِهم، لهُ عَذابٌ كبيرٌ على فِعلِهِ الشَّنيعِ هذا. وهوَ رأسُ المنافِقينَ عَبدُاللهِ بنُ أُبَيّ بنِ سَلُول.

{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ} (النور : ١٢)

وقدْ خاضَ بَعضُ المسلِمينَ في هذا الكَلامِ السَّيِّءِ دونَ تثَبُّت.

هلاّ إذْ سَمِعتُمْ ذلكَ الكلامَ غيرَ اللّائقِ بأُمِّ المؤمِنين، مِنْ أُناسٍ غَيرِ مؤتَمَنين، ظَنَنتُمْ خَيرًا بإخوانِكمْ وأَخواتِكمْ أيُّها المؤمِنونَ والمؤمِنات؟ فالعَدوُّ دائمًا يَعمِدُ إلى إساءَتِكمْ. وإذا كانَ هذا الاتِّهامُ لا يَليقُ بكمْ لكَونِكمْ مؤمِنين، فكيفَ يَليقُ بعِرضِ رَسولِكم؟ فهَلاّ قُلتُمْ إنَّ ذلكَ خبَرٌ كاذِبٌ ظاهِرٌ مَكشوف؟

{إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ} (النور : ١٥)

إذْ تتَلقَّفونَ هذا الخبَرَ السَّيِّءَ ويَرويهِ بَعضُكمْ عنْ بَعض، وتَقولونَ قَولاً لا عِلمَ لكمْ به، ولا تثَبُّتَ لكمْ فيه، وتحسَبونَ هذا القَولَ يَسيرًا في حَقِّ أُمِّ المؤمِنين، زَوجِ رَسولِ اللهِ الكَريم، والحالُ أنَّهُ قَذْفٌ وشائعَةٌ خَطيرَة، يترَتَّبُ عليهِ وِزرٌ كبير، وعَذابٌ عَظيمٌ يَومَ القيامَة، بقَدْرِ شناعتِهِ وآثارِهِ السيِّئة.

{وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} (النور : ١٦)

وهلاّ إذْ سَمِعتُمْ هذا الكَلامُ المنكرَ قُلتُم: لا يَحِقُّ لنا أنْ نتكلَّمَ بهذا الكَلامِ المفتَرى ولا أنْ نَذكُرَهُ لأحَد، وسُبحانَ اللهِ أنْ يُقالَ هذا الكَلامُ على زَوجِ رَسولِ رَبِّ العالَمين، هذا كَذِبٌ وافتِراء، وكلامٌ مُلفَّقٌ مُختَرَع.

{يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (النور : ١٧)

يَنصَحُكمُ اللهُ في هذا الشَّأن، ويُحَرِّمُ عَليكمْ أنْ تَعودوا لمِثلِهِ فيما يُستَقبَلُ أبَدًا، إنْ كنتُمْ مؤمِنينَ باللهِ وشَرعِه.

التكبر

ومن صفات المنافقين: التكبر عن قبول الحق والإذعانِ له:
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ} [البقرة: ١٣]
ويعنون بالسفهاء هنا: الصحابة، رضي الله عنهم.

وإذا وُعِظَ أحدُ هؤلاءِ المنافقينَ وقيلَ له: احذَرْ غَضبَ الله، وانْتَهِ مِنْ فَعالِكَ السيِّئة، وارجِعْ إلى الحقّ، أخَذتْهُ الحميَّةُ والغَضب، وتعاظمَ واستكبرَ أنْ يُوَجَّهَ لهُ مثلُ هذا التذكيرِ والإنكار، لِما امتلأ قلبُهُ مِنَ الكفرِ والعِصيان، فما استَحيا منَ الله، ولا سمعَ كلامَ أحَد، وهوَ في واجهتِهِمْ يتَظاهرُ بالإيمانِ والمحبَّةِ والطَّاعة!
ويَكفي أنْ يَكونَ نصيبَهُ النارُ الفظيعةُ يومَ الدين، جزاءَ إفسادهِ وفُجورِه، وكذبِهِ ونِفاقِه.
{وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ} (البقرة:٢٠٦)

الخُلف

{وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٨٦]
وإذا أُنْزِلَتْ سُورةٌ مِنَ القُرآنِ تأمرُ بالإخْلاصِ في الإيمانِ والجِهادِ معَ رَسولِه، طلبَ الإذنَ منكَ بالقُعودِ ذَوُو الغِنَى والسَّعَةِ منَ المنافِقين، وقالوا: دَعْنا نَكُنْ معَ القاعِدينَ منَ الذينَ لم يُجاهِدوا لعُذر.

رَضُوا بأنْ يَبْقُوا معَ الخالِفينَ منَ الصِّبيانِ والعاجِزينَ والنِّساءِ بعدَ خُروجِ الجَيش. وختمَ اللهُ على قُلوبِهِمْ بسببِ عَدمِ خُروجِهمْ معَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فهمْ لا يَفهمَونَ ما يَنفعُهمْ ولا ما يَضرُّهمْ في دُنياهُمْ وآخِرَتِهم.

أمّا الرسُولُ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم وصَحابتهُ المؤمِنونَ معَه، فقدْ أنْفَقوا ما يَقْدِرونَ عليهِ منْ أموالٍ في الجِهاد، وبَذلوا أنفُسَهمْ في سَبيلِ الله، ولهُمْ على ذلكَ خَيرُ الجَزاء، مِنْ منافعَ ونِعَمٍ كثيرةٍ تُسْعِدُ القَلبَ وتُبْهِجُ النَّفس. وأولئكَ همُ الفائزونَ بالجنّات، المخلَّدونَ فيها.

[الآيات ٨٦ – ٨٨ من سورة التوبة].

الخيانة

في غزوةِ الخندق:

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً} (الأحزاب: ١٢)

وظهرَ النِّفاقُ في هذا الاختِبارِ الربَّانيّ، فقالَ المنافِقونَ الذينَ كانوا يُظهِرونَ الإيمانَ وهمْ ليسُوا كذلك، ومعَهمْ ضُعَفاءُ الإيمانِ الذينَ تأثَّروا بكلامِهمْ وشُبَهِهمْ وشائعاتِهم، معَ ما أصابَهمْ منَ الخَوفِ والفزَع، قالوا: إنَّ الذي وعدَنا اللهُ ورَسولُهُ منَ النَّصرِ والفَتحِ ما هوَ إلاّ قَولٌ باطِل. وهذهِ عادَةُ المنافِقينَ عندَ الشِّدَّةِ والمِحنَة.

واذكُرْ إذْ قالَتْ جَماعَةٌ مِنَ المنافِقينَ أو المخذولِينَ وقدْ جَزِعوا: يا أهلَ المدينَةِ لا تُعَسْكِروا خارِجَ الخَندَقِ وارجِعوا إلى مَنازِلِكم، فإنَّهُ لا طاقةَ لكمْ بالقِتال.

وجَماعَةٌ أُخرَى يَستأذِنونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لتَركِ مَواقعِهم، ويَقولونَ إنَّنا نَخشَى على بيوتِنا مِنَ الخطَر، فليسَ دونَها ما يَحجبُها مِنَ العَدوِّ ونحنُ غائبونَ عَنها، وليسَ الأمرُ كما يَدَّعون، إنَّما يُريدونَ بالاستئذانِ الهربَ مِنَ القِتال.

ولو أنَّ هؤلاءِ دخلَ عَليهمُ الكُفَّارُ مِنْ نَواحي المدينَةِ واحتَلُّوها، وطُلِبَ منهمْ أنْ يَكفُروا، لاستَجابوا لذلكَ مُسرِعين، ولم يؤَخِّروا جَوابَهمْ إلاّ زَمانًا يَسيرًا، فهمْ غَيرُ مُتَمَسِّكينَ بالدِّين، ولا مُحافِظينَ على العَهدِ والإيمان.

ولقدْ كانَ هؤلاءِ المستأذِنونَ المتذَبذِبونَ عاهَدوا اللهَ قَبلَ مُحاصَرَتِهِمْ أنْ لا يَفِرُّوا مِنَ الجِهاد، وسَيَسألُهُمُ اللهُ عنْ العَهدِ الذي لم يَفُوا به.

قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسُول: لنْ يُفيدَكمُ الهَربُ مِنَ القِتال، ولنْ يَحميَكمْ مِنَ الموتِ على فُرُشِكمْ أو القَتلِ بالسَّيفِ وغَيرِه، فالأجَلُ واحِد، وإذا حدَثَ أنْ هرَبتُمْ لتَسلَموا مِنَ القَتل، فلنْ تَتمَتَّعوا في الدُّنيا إلاّ زَمانًا يَسيرًا، فالموتُ مَصيرُ كُلِّ حَيّ.

قُلْ لهم: مَنِ الذي يَمنَعُكمْ مِنْ قدَرِ اللهِ وتَنفيذِ حُكمِهِ فيكمْ إنْ أرادَ بكمْ شَرًّا أو أرادَ بكمْ خَيرًا؟ إنَّهُ لا أحَد، فالأمرُ كُلُّهُ بيَدِهِ سُبحانَه، نَفعًا كانَ أو ضُرًّا، ولنْ يَجِدوا لأنفُسِهمْ غَيرَ اللهِ يَجلُبُ لهمُ الخير، ولا نَصيرًا سِواهُ يُساعِدُهمْ ويَدفَعُ عَنهمُ الشرّ.

واللهُ يَعلَمُ المثَبِّطينَ غَيرَهمْ مِنَ الخُروجِ إلى الجِهاد – وهمُ المنافِقونَ – والقائلينَ لأصحابِهِمُ الذينَ خرَجوا: تَعالَوا وأقيموا معَنا ولا تُحارِبوا. معَ كَونِهِمْ يَخذُلونَ النَّاس، فإنَّهُمْ لا يُشارِكونَ في القِتالِ بأنفُسِهِمْ إلاّ قَليلاً.

بُخلاءُ بأبدَانِهِمْ عندَ القِتال، وبقُلوبِهِمْ في المحبَّةِ لكم، وبأموالِهِمْ في النفقَةِ والنُّصرَة. فإذا جاءَ الخَوفُ مِنْ قِبَلِ العَدوّ، وظَنُّوا أنَّ البأسَ سيَقعُ بهِمْ كما يَقَعُ بغَيرِهم، رأيتَهمْ يَنظُرونَ إليكَ وأعينُهمْ تَدورُ مِنَ القَلقِ وشِدَّةِ الهَلَع، كنظَرِ المغشيِّ عَليهِ مِنْ سَكراتِ الموت، فإذا انجَلَى الخَوفُ وأَمِنوا، بسَطوا فيكمْ ألسِنتَهمْ السَّليطَةَ المقذِعَة، وآذَوكمْ وانتَقَصُوكم، وهمْ بُخَلاءُ بالنفَقة، لكنَّهمْ حَريصونَ على أخذِ الغنائمِ معَ المجاهِدينَ المسلِمين!

فهؤلاءِ المتَّصِفونَ بهذهِ الصِّفاتِ لم يؤمِنوا بإخْلاص، بلْ أظهَروا إيمانَهُمْ أمامَ النَّاسِ وهمْ كافِرونَ في بَواطنِهم، ولذلكَ أبطلَ اللهُ أعمالَهُمُ التي يُظَنُّ أنَّ فيها خَيرًا، وهذا أمرٌ سَهلٌ على الله، فإنَّهُ لا يُبالي بهمْ وقدْ خانُوا الدِّينَ والعَهد.

ومعَ أنَّ اللهَ خذَلَ الأحزابَ وهزَمَهمْ فرَحَلوا، إلاّ أنَّ المنافِقينَ يَظنُّونَ أنَّهُمْ لم يَذهَبوا! لجُبنِهِمْ وخَوفِهم، وصُعوبَةِ تَصديقِهمْ أنْ يَنتَهيَ الأمرُ هكذا، ويَهرُبَ جميعُ الأحزابِ بدونِ حَربٍ تُذكَر! وظَنُّوا أنَّهُمْ مُعَسكِرونَ قَريبًا منهم!

وإذا حدَثَ أنْ أتَتِ الأحزابُ مرَّةً أُخرَى، تمَنَّوا لو أنَّهُمْ كانوا خارِجَ المدينَة، معَ الأعرابِ في الباديَة، يَسألونَ عنْ أخبارِكم، وما جرَى عَليكمْ مِنَ الأحزاب؛ خَوفًا وجُبنًا مِنْ أنْ يَشهَدوا حَربًا. ولو أنَّهُمْ كانوا بينَكمْ لما قاتَلوا معَكمْ إلاّ قَليلاً، فلا تُبالُوا بهم، ولا تأسَوا عَليهم.

(تفسير للآيات ١٢ – ٢٠ من سورة الأحزاب)

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} (الحشر: ١١ – ١٢)

ألَمْ تَنظُرْ إلى المنافِقينَ كيفَ يَتصرَّفون، ويَقولونَ لإخوانِهِمْ في العَقيدَةِ مِنَ الكافِرينَ اليَهود: لئنْ أُخرِجْتُمْ مِنْ دياركُمْ بالمدِينةِ لنَخرُجَنَّ مِنها معَكم، ونَصحَبَكمْ أينَما ذهَبتُم، ولنْ نَسمَعَ كلامَ أحَدٍ في غَيرِ مَصلحتِكمْ أبدًا، وإذا قاتلَكمْ أحَدٌ فسنُعينُكمْ على عَدوِّكم. واللهُ يَشهَدُ إنَّ المنافِقينَ كاذِبونَ فيما قالُوا ووعَدوا به.

ولو أنَّ اليَهودَ أُجْلُوا مِنْ ديارِهِمْ لما خرَجَ المنافِقونَ معَهم، ولو قُوتِلوا فلنْ يُدافِعوا عَنهم، ولو قاتَلوا معَهمْ فسيَنهَزِمونَ شرَّ هَزيمة، ثمَّ لنْ يُدافِعَ عنهمْ أحد، بلْ يُهلِكُهمُ الله.

التزوير

وإذا حضرَ المنافِقونَ مجلِسَكَ أظهَروا الموافقةَ لكَ والطَّاعةَ لِما تَقول، فإذا خَرجوا وغابُوا عنك، زوَّرَتْ كلامَكَ جماعةٌ منهمْ – وهمْ رؤساؤهمْ – وجَعَلتْهُ خِلافَ ما تَقول، وعَزموا على شَرّ، واللهُ يَعلمُ بما يُسِرُّون، ويَكتبهُ ويُثْبِتهُ في صَحائفهمْ ليُجازِيَهمْ عَليها، فلا يُهِمَّنَّكَ أمرُهم، ولا تأبهْ بهمْ وبموقِفِهم، واحْلُمْ عليهم، وفَوِّضْ أمرَكَ إلى اللهِ وثِقْ به، وكفَى بهِ ناصراً لك، ومُعيناً لمَنْ توكَّلَ عليه، ولسَوفَ يَنتَقِمُ لكَ مِنهم.

يقولُ اللهُ تعالَى: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا} [النساء:٨١]

الخداع

إنَّ المنافِقينَ يَفعلونَ ما يَفعلُ المخادِع، فيُظهِرونَ الإيمانَ ويُضمِرونَ نَقيضَه، وهمْ يَظنُّونَ – بجهلِهِمْ – أنَّ أمرَهمْ هذا سيرُوْجُ حتَّى عندَ الله، العالِمِ بالسرائرِ والضَّمائر، ولكنَّ اللهَ يَستدرِجُهمْ في طُغيانِهِمْ وضَلالِهِم، وهوَ فاعِلٌ بهمْ ما يَفعلُ الغالِبُ في الخِداع، فهوَ إنْ تركَهمْ مَعصومِي الدِّماءِ والأموالِ بينَ المسلِمينَ لتَظاهُرِهمْ بالإسلام، فقدْ أعدَّ لهمْ في الآخِرَةِ الدرْكَ الأسفلَ منَ النار، بعدَ فضحِهمْ وإظهارِ شأنِهم.

ومِنْ صفاتِهِمْ أنَّهمْ إذا قامُوا إلى خَيرِ شَعيرةٍ في الإسلام، وهوَ الصَّلاة، قامُوا إليها مُتثاقِلينَ مُتباطِئين، يُصَلُّونَها بلا نيَّةٍ ولا خَشية، ولا فَهمٍ ولا رَغبة، ولا إيمانٍ ولا إخلاص، إنَّما يَفعَلونَ ذلك ليَراهمُ الناسُ وهمْ يُصلُّونَ ليَحسَبوهمْ مُسلِمين. فهمْ في صَلاتِهِمْ ساهونَ لاهون، لا يَدرونَ ما يَقولون، ولا يَذكرونَ الله إلاّ زَماناً قليلاً.

قالَ اللهُ تعالَى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ١٤٢]

البغضاء

أيُّها المؤمِنون، إنَّ الكافِرينَ والمنافقينَ وأهلَ الكتابِ يُحبُّونَ أنْ يُحرِجوكمْ ويوقِعوكمْ في المشْكلاتِ ليؤذوكمْ ويَنتقِموا منكم، هذا ظاهِرُ ما يُخَطِّطونَ له، وما تَفوهُ بهِ ألسنتُهمْ مِنْ حِقْدٍ وبُغض، والذي تُخفيهِ صُدورُهمْ مِنْ كُرهٍ وعَداوةٍ أكثرُ ممّا يُظهِرونَه، وفي هذا البيانِ دلائلُ كافيَةٌ لكمْ إذا أدركتُموهُ بعقُولِكم؛ لئلاّ تَتَّخذوا منهمْ أصدقاء، ولا تُوادُّوهم، ولا تَفتَحوا لهمْ قلوبَكم.

وقدْ نزلتِ الآيةُ في رِجالٍ منَ المسلمينَ كانوا يواصِلونَ رِجالاً منَ اليهود، لِما كانَ بينهمْ منَ الجِوارِ والحِلْفِ في الجاهليَّة، فنُهوا عنْ مباطنَتِهمْ خوفَ الفِتنةِ عليهمْ منهم.

وها أنتمْ تُحبُّونَ المنافِقينَ لأنَّهمْ يُظْهِرونَ لكمُ الإيمان، وهمْ لا يُحبُّونَكمْ أبداً، بلْ يَتربَّصونَ بكمُ الشرّ، ويَنقُلونَ أخبارَكمْ إلى أعدائكمْ ويُوادُّونَهم، وتؤمِنونَ بكتابِ اللهِ كلِّه، وهمْ في شكٍّ منهُ وريبَة، ويُصَلُّون أمامَكمْ أحياناً، لكنَّهمْ إذا اجتَمعَوا أظهَروا غَيظَهمْ وعَداوتَهمْ وكُرهَهمْ لكم.

قولُوا لهم: اكرَهوا المؤمنينَ بما تَقدِرونَ عليه، وابقُوا على هذا حتَّى تموتوا كمَدًا من الحَنَقِ والغَيظ، فإنَّ اللهَ مُتِمُّ دينهِ وناصرُ عِبادهِ المؤمنين، وخاذِلُ أعدائهمُ الكفّارِ والمنافقين، وهوَ عليمٌ بما تُخفيهِ صدورُكمْ مِنْ حقدٍ وغِلٍّ على المسلِمين، ولسَوفَ يُجازيكمْ في الآخِرَةِ بالعَذابِ الشَّديد.

قولهُ سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الآيتان ١١٨ – ١١٩ من سورة آل عمران].

الإيذاء

ومنَ المنافِقينَ مَنْ يؤذي النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ويَقولون: إنَّهُ يُصَدِّقُ كلَّ شَيءٍ يُقالُ له! وإذا جئنا وحَلَفْنا لهُ صَدَّقنا! قُلْ لهم: هوَ أُذُنٌ في الحقِّ والخَير، وفيما يَجِبُ سَماعُهُ وقَبولُه، وليسَ بأُذُنٍ في غَيرِ ذلك، فهوَ يُصَدِّقُ بالله لِمَا ثبتَ عندَهُ منَ الأدلَّةِ والآياتِ البيِّنةِ على صِحَّةِ ذلك، ويُصَدِّق للمؤمِنينَ لِمَا يَعلَمُ فيهمْ منَ الإخلاصِ والصِّدقِ وعَدمِ الكذِب. وهوَ رَحمَةٌ لمنْ أظهرَ الإيمانَ منكمْ أيُّها المنافقون، حيثَ قَبِلَهُ منكمْ رِفقاً بكمْ لا تَصديقاً منكم، ولم يَكشِفْ أسرارَكم، ولم يَهْتِكْ أستارَكم. والذينَ يُؤذونَ رسولَ اللهِ بأيِّ نوعٍ منَ الإيذاء، فلهمْ عِقابٌ شَديدٌ مؤلِم، لا يَعرِفُ قَدْرَهُ إلاّ الله.

قالَ الله تعالَى: {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٦١]

إنَّهُمُ المنافِقون، الذينَ مِنْ صِفاتِهِمْ أنْ لا يَسْلَمَ أحدٌ منْ ألسِنَتِهم، وقَدْحِهمْ وذَمِّهم، فيَعيبونَ على مَنْ تَصدَّقَ منَ المؤمِنين، فإنْ كانوا أغنياءَ وأكثَروا، قالوا: هذا يُعطي للرِّياءِ والسُّمْعة، وإنْ كانوا فُقَراءَ فأقَلُّوا، قالوا: إنَّ اللهَ غنيٌّ عنْ صَدَقةِ هذا، جازاهمُ اللهُ شرًّا على سُخريتِهمْ مِنَ

المؤمِنينَ الطيّبين، الذينَ يُنفِقونَ أموالَهُمْ فيما يُرضـــي الله، ولِهؤلاءِ المنافقينَ المعتَدينَ عذابٌ مؤلمٌ دائمٌ في الآخِرَة.

قولهُ ســـبحانه: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّـــدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٧٩]

الاستهزاء

قالَ الله عزَّ وجلّ: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ) (محمد : ١٦)

أي: مِنَ المنافِقينَ مَنْ يَســتَمِعُ إليك، في تِلاوَةٍ تَتلوها مِنَ القُرآن، أو عِظَةٍ تَعِظُهمْ بها، ولكنَّهمْ لا يَكتَرِثونَ بها ولا يَتدَبَّرونَها، فإذا خرَجوا مِنْ عندِكَ قالوا لأهلِ العِلمِ مِنَ الصَّـــحابَة: ما الذي قالَهُ محمَّدٌ قَبلَ قَليل؟ قالوا ذلكَ استِهزاءً وتَعريضًا بكلامِ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، الذي لا يَعني عندَهمْ شَيئًا. فأولئكَ المنافِقونَ خَتمَ اللهُ على قُلوبِهم، لعلمِهِ سُبحانَهُ بعدَمِ تَوجُّهِهمْ إلى الإيمَان، فكانَ اتّباعُهمْ لأهوَائهمُ الزَّائغَة، والكُفرِ والنِّفاق.

الإفساد

ومن صفاتِ المنافقينَ ودأبهم: الإفساد:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [البقرة: ١١]

والإفسادُ هنا بمعنَى الكفر، والمعصية. (ابن كثير).

وقالَ سبحانه: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ} (البقرة:٢٠٥)

أي: يَعمدُ أحَدُ هؤلاءِ المنافِقينَ الكذّابينَ إلى بَثِّ الفســادِ وزرعِ الشـرِّ والإضــرارِ بكلِّ ما هوَ حيّ، قاصـداً إهلاكَ الأحياءِ وتخريبَ الزُّروعِ والثِّمارِ والبيئةِ ونشـرَ الخَرابِ والدَّمار، فلا مبادئَ ســاميةٌ عندَه، ولا خوفَ لديهِ منَ الحِســاب، حيثُ لا يؤمِنُ به، بلْ شــأنهُ الغَدرُ والشــرُّ

والفَســاد، واللهُ يَبْغُضُ الفَســادَ في الأرض، ولا يُحِبُّ مَنِ اتَّصــفَ به، ولا تَخفَى عليهِ سَــرائرُ النَّاس، فلا تَغُرَّنَّكمُ المظاهرُ والكلِماتُ المعسُولة.

لحن القول

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} (سورة محمد: الآيتان: ٢٩ – ٣٠):

أمْ حَسِبَ المنافِقونَ أنَّنا لنْ نُظهِرَ أحقادَهمْ وما يُبطِنونَهُ مِنْ عَداوَةٍ للمؤمِنين؟

ولو أرَدنا أيُّها الرسُولُ لعرَّفناكَ أسماءَهم، وأرَيناكَ أشخاصَهم، وجعَلنا عَليهمْ عَلاماتٍ عرَفتَهمْ بها، ولتَعرِفنَّهمْ مِنْ فَحوَى كلامِهم، الدَّالِّ على مَقاصدِهم.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: ولكنْ لم يَفعَلْ تَعالَى ذلكَ في جَميعِ المنافِقين، سِــترًا منهُ على خَلقِه، وحَملاً للأمورِ على ظَاهرِ السَّلامَة، ورَدِّ السَّرائرِ إلى عالمِها. اهـ.

واللهُ يَعلَمُ أحوالَكمْ وأعمالَكم، وسيُجازيكمْ عَليها بحسَبِ مَقاصدِكم.

المصلحة والأنانية

ومنَ المنافقينَ مَنْ يَتخَلَّفُ ويَتثاقلُ عنِ الجِهاد، فإذا قَتلَ العدوُّ منهمْ أو هُزِموا، قالَ أحدُهمْ حامِداً لرأيه: قدْ أنعمَ اللهُ عليَّ إذْ لم أحضُرْ مَعَهُمْ فيُصيبُني ما أصابَهمْ مِنَ القَتلِ أو الشدَّة.

وكانَ المنافقونَ يَتخلَّفونَ عنِ الجِهاد، أو يَرْجِعونَ مِنْ عَسكَرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

وقدْ يَكونُ بَينَهمْ ضَعَفةُ المسلِمين، الذينَ يتأثّرونَ بكلامِهم.

وإذا أصابَهمْ نَصرٌ وغَنيمةٌ بفَضلِ الله، نَدِمَ على قُعودِهِ وتَخَلُّفِهِ عنِ الجِهاد، تَحَسُّراً على ما فاتَهُ مِنَ الغَنيمة، ويَقولُ وكأنَّهُ ليسَ مِنْ أهلِ دينِكمْ ولا رابِطَ لوشــيجةِ العقيدةِ بينَكم: يا ليتَني حَضرتُ مَعهمُ القِتالَ لآخُذَ نَصيباً وافِراً منَ الغَنيمة.

قولهُ سبحانه: {وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَــهِيدًا. وَلَئِنْ أَصَــابَكُمْ فَضْــلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا} [سورة النساء: ٧٢ – ٧٣]

قالَ اللهُ تعالَى: {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ} (النور : ٤٨)

وإذا دُعيَ هؤلاءِ المنافِقونَ إلى دِينِ الله، وأنْ يَحكُمَ رَسُولُهُ بينَهمْ وبينَ خُصومِهم، إذا فَريقٌ منهمْ يأبَى ويَستَكبِرُ عنْ قَبولِه، لمعرِفَتِهمْ أنَّ الحُكمَ بالحقَّ ليسَ في مَصلَحتِهم، ورَسولُ اللهِ لا يَحكمُ إلاّ بالحَقّ.

فإذا كانَ الحقُّ في طرَفِهم، وعَلِموا أنَّهُ سيَحكمْ لهم، أتَوا إليهِ مُطيعينَ مُنقادِينَ لحُكمِه.

فهلْ سببُ إعراضِهمْ هوَ وجودُ مرَضٍ في قُلوبِهمْ لكُفرِهمْ ونِفاقِهم، أمْ شَكُّوا في أمرِ نبوَّةِ رَسولِنا، أمْ خافُوا أنْ يَظلِمَهمُ اللهُ ورَسولُهُ في الحُكم؟ بلْ إنَّهمْ ظلَموا أنفُسَهمْ وفَجَروا بإعراضِهمْ عنِ الحقّ.

إنَّما المؤمِنونَ الصَّادِقونَ في إيمانِهم، إذا دُعُوا إلى حُكمِ اللهِ وقضاءِ الرَّسولِ بينَهم، استَجابوا لنِداءِ الحَقِّ وقَالوا: سَمِعنا كلامَ اللهِ وأطَعنا حُكمَه. فأولئكَ همُ السُّعَداءُ الفَائزون.

(تفسير الآيات ٤٨ – ٥١ من سورة النور).

الفصل العاشر

مواقف متنوعة

الهداية والضلال

كانَ النَّاسُ على شَريعةٍ واحدةٍ منَ الحقّ، ثمَّ اختلَفوا وصَاروا يعبدونَ الأصنامَ وغيرَها، فأرسلَ اللهُ إليهمُ الأنبياءَ ليبشّـــروهمْ بالجزاءِ الحسَـــنِ إنْ همْ أطاعوا وثَبَتوا علَى الحقّ، وليُخوّفوهمْ منَ العِقابِ الشَّـديدِ إنْ همْ خالَفوا وعصَـوا. وأنزلَ معهمُ الكُتبَ بالحقِّ والعَدلِ والقولِ الفَصـل، ليَتدبَّرَها الناسُ ويَتحاكموا إلى ما فيها مِنْ أوامرَ ونَواه، ففيها الحقَّ، ولا قولَ بعدَها.

وما اختلفَ في هذهِ الكتبِ إلاّ الذينَ نَزلتْ فيهمْ بعدَما قامَتْ عليهمُ الحُجَجُ ووَضَحَ لهمُ الأمرُ ورسَـــخَ في عُقولِهم. وما حملَهمْ على هذا الاختلافِ إلا الحسَـــدُ والطَّمَع، والظُّلمُ والهوَى، والخُصومَةُ واللَّجاجَة، والعِنادُ والتمرُّدُ على الحقّ، والتهالُكُ على الدنيا.

وقدْ هدَى اللهِ بلُطفهِ وتيسيرِهِ المؤمنينَ إلى الحقِّ فيما اختُلِفَ فيهِ مِنْ ذلك، لصَفاءِ نُفوسِهم، واســـتِعدادِهمْ لقَبولِ الحقّ، فأقامُوا على الإخلاصِ للهِ وحدَه، وعبادتهِ على بيّنةٍ واســـتِقامَة، واعتَزلوا الخلاف، وتَركوا الأهواءَ والنَّزوات، والخُصومةَ والعِناد.

واللهُ يَهدي مَنْ يشـــاءُ مِنْ خَلْقهِ إلى الطريقِ المســـتَقيم، ممَّنْ يَعْلَمُ فيهمُ الرغبةَ في اتّباعِ الهُدَى وتقبُّلِ الحقّ. وهوَ الهادي إلى سَواءِ السَّبيل.

قالَ عزَّ من قائل: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّـــرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (البقرة:٢١٣)

قضاء الله وقدره

قومٌ في قديمِ الزمان، كانوا بالآلاف، خرَجوا من ديارِهِمْ هروباً مِنَ الموتِ الذي كانَ يُلاحقُهمْ فيه، ربَّما نَتيجةَ أوبئةٍ وأمْراضٍ كانتْ تُلازِمُهم، أو أنَّهُ وقعَ فيهمُ الطاعُون، فأرادوا الفِرارَ منها إلى غَيرِها، فلمّا وصـــلوا إلى المكانِ الجديد، أماتَهُمُ اللهُ جميعاً في وقتٍ واحد، ليُعلَمَ أنَّ الحذَرَ منَ الموتِ لا يُغني ولا يُجدي إذا أرادَهُ الله، فإذا قدَّرَ شيئاً كانَ رغمَ كلِّ الاحتِياطات، فلا مَفَرَّ منْ حُكمِه. ثمَّ أحيَاهمُ اللهُ بعدَ موتِهم، في دليلٍ قاطعٍ على قُدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتَى وبَعثِ الناسِ يومَ المعاد.

وهذا منْ فَضـــلِ اللهِ علَى النَّاس، أنْ يُرِيَهمُ الآياتِ والدلالاتِ والعِبَرَ ليُؤمِنوا ويَعتَبروا، ولكنَّ أكثرَهم، معَ هذا، لا يقومونَ بشكرِ المنعِمِ عَليهم.

وكانَ هذا تَمهيدًا لتَشـــجيعِ المســـلِمينَ على القِتال، الذي يأتي في الآيةِ التالية، فإنَّ الأجلَ واحِد، في سِلْمٍ كانَ المرءُ أو في حَرب.

قالَ اللهُ تعالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} (البقرة:٢٤٣)

الابتلاء والاختبار

{فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} (الفجر : ١٥)

إذا اختبَرَ اللهُ الإنســـانَ بالغِنَى والعافية، فأكرَمَهُ بالمال، ونَعَّمَهُ بما وسَّـــعَ عليهِ مِنْ زينَةِ الدُّنيَا، وجعلَ لهُ وَجاهَةً أو مَنصِـــبًا، اعتقَدَ أنَّ ذلكَ إكرامٌ مِنَ اللهِ له. وليسَ كذلك، بلْ هوَ ابتِلاءٌ وامتِحانٌ منه، ليَنظُرَ هلْ يَشكرُ أمْ يَكفُر، وهلْ يَعدِلُ أمْ يَظلِم، وهلْ يُطيعُ اللهَ أمْ يَعصيه؟

وأمَّا إذا ضـــيَّقَ اللهُ عليه، فابتَلاهُ بالفَقر، اعتبَرَ ذلكَ عُقوبَةً لهُ ومَهانَة، وأنَّ اللهَ لو لم يُرِدْ إهانتَهُ لَما ضيَّقَ عليهِ في رِزقِه! وإنَّما أرادَ امتِحانَه، ليَنظُرَ هلْ يَكونُ مؤمِنًا صابِرًا رَاضيًا بقَضاءِ الله، أمْ مُتضَجِّرًا جَزوعًا يائسًا، ضَعيفَ الإيمَانِ ساخِطًا؟

كلاً لِما زعَمتُمْ مِنْ أمرِ الابتِلاء، فليسَ بَسطُ الرِّزقِ دَليلاً على الكرَامَة، وليسَ تَضييقُهُ دَليلاً على الإهانَةِ والإهمَال، بلْ لكمْ أفعالٌ أكثَرُ شَرًّا ممَّا ذُكِر، فإنَّ اللهُ يُكرِمُكمْ بكثرَةِ المال، ولكنَّكمْ لا تَقومُونَ بحقِ العَطاء، ولا تُكرِمونَ اليَتيمَ بالإحسَانِ إليه.

ولا يَحُثُّ بَعضُكمْ بَعضًا على إطعَامِ المسكِين، الذي لا يَجِدُ ما يأكُل.

وتأكلونَ الميرَاثَ بشَراهَةٍ وجشَع، وتَخلِطونَ بينَ الحَلالِ والحرَام، وتَجمَعونَ فيهِ بينَ نَصيبِكمْ ونَصيبِ غَيرِكم.

وتُحِبُّونَ جَمعَ المالِ حُبًّا كثِيرًا طَاغيًا، لا يُبقي في نُفوسِكمْ مَكرُمَةً للإحسَانِ إلى اليَتامَى والمسَاكين.

(تفسير الآيات ١٥ – ٢٠ من سورة الفجر)

*** *** ***

{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً} (الإسراء : ٦٠)

وقدْ قُلنا لكَ أيُّها النبيُّ إنَّ النَّاسَ في قبضَةِ قُدرَةِ اللهِ وتحتَ تَصَرُّفِه، وقدْ منعَهمُ اللهُ مِنْ إيذائكَ وعصَمَكَ منهم.

وما جَعَلنا الرُّؤيا التي أرَيناكَ رأيَ العَين، وهيَ الإسراءُ والمِعراج، إلاّ اختِبارًا للنَّاسِ وامتِحانًا لهم، لنَعلَمَ الصَّادِقَ منهمْ في إيمانِه، والكاذِبَ أو الضَّعيفَ فيه.

وقدِ ارتدَّ بعضُ النَّاسِ بعدَ حادِثَةِ الإسراء، وازدادَ آخَرونَ يَقينًا.

روَى البُخاريُّ في صَحيحِهِ قَولَ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما في هذا: هيَ رؤيا عَينٍ أُرِيَها رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عَليه وسلم ليلَةَ أُسرِيَ بهِ إلى بَيتِ المقدِس. اهـ.

وكذلِكَ شَجرَةُ الزَّقُّومِ الملعونَةُ التي ذكرَها اللهُ في القُرآنِ وخوَّفَ بها المكَذِّبين، التي أرَيناكَها في رِحلَتِكَ في المعْراج، فكذَّبوا بها.

وفي مُسنَدِ أبي يَعلَى وأحمدَ بسنَدٍ صَحيح، أنَّ أبا جَهلٍ قال: يُخَوِّفُنا محمَّدٌ بشَجرَةِ الزَّقُّوم، هاتُوا تَمرًا وزُبْدًا تزَقَّموا!

والآياتُ التي وردَ فيها ذِكرُ شـجَرَةِ الزَّقُّومِ في سُـورَةِ الصـافّات (٦٢-٦٦)، والدُّخَان (٤٣-٤٦).

ونُخَوِّفُ الكافِرِينَ بالوَعيدِ والعَذاب، فلا يَزيدُهمْ ذلكَ إلاّ تَماديًا في الكُفرِ والضَّلال.

النجوى

لا خَيْرَ في كَثيرٍ مِنْ كلامِ الناسِ إلاّ إذا كـانَ في حَـثٍّ على الصَّـــدَقات، أو أمرٍ بالخَيراتِ والطَّاعات، أو تأليفٍ بينَ النَّاسِ بالمودَّةِ إذا فَسـدَ ما بينَهم، ومَنْ يَفعلْ هذهِ الأشياءَ مُبتَغياً بها وجهَ اللهِ ومَرضاتَه، مُحتَسِباً ثوابَ ذلكَ عندَه، فسوفَ نُجزيهِ أجراً كبيراً وثَواباً جَزيلاً.

قولهُ سـبحانه: {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَـدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْـلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} [النساء: ١١٤].

الحسد

عندما أرادَ قابيلُ أنْ يَستأثِرَ بنصيبِ هابيلَ منَ الزَّواج، فأبَى الآخَر، وأبَى آدمُ كذلك، وقابيلُ مُصِـــرّ، قالَ أبوهما: قرِّبا قُرباناً، فمَنْ تُقُبِّلَ منهُ تزوَّجَها. فتُقُبِّلَ مِنْ هابيلَ ولم يُتَقَبَّلْ مِنْ أخيهِ الظَّالم، فقالَ لهُ لفَرْطِ حَسدهِ مِنْ قَبولِ قُربانِه: سأقتُلُك، فقالَ لهُ هابيل: إنَّما يَتقبَّلُ اللهُ القُربانَ مِنْ عبادهِ المطيعينَ المخلِصين.

وإذا مَددتَ إليَّ يَدكَ يا قابيلُ لتَقتُلَني، فلنْ أمدَّ يَديَ إليكَ لأقتُلَك، ولنْ أقابِلَ ما تَهُمُّ بهِ مِنْ فِعلٍ شَنيعٍ بمثلِه، بلْ أصبِرُ وأحتَسِب، وأستَسلِمُ خَوفاً منَ اللهِ ومنْ عقوبتِه.

إنِّي أريدُ باسـتِسـلامي هذا أنْ تَتحمَّلَ إثمَ قَتلي وإثمَكَ الذي عليكَ قبلَ ذلك، فيَكونَ جزاءَكَ النارُ، وهوَ جزاءُ الباغينَ الظَّالمين.

فحسَّـنَتْ لهُ نفسُـهُ السـيِّئةُ قتلَ أخيه، فقتَلَهُ، على الرَّغمِ مِنَ الموعظةِ التي سَمِعَها منه، فخَسِـرَ أعظمَ خَسارة، في الدُّنيا والآخِرَة.

وفي الصـــحيحين: " لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلماً إلاّ كانَ على ابنِ آدمُ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دمِها، وذلكَ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتل".

وهذا حديثٌ خَطير، فليَعتبرْ كلُّ مَسـؤول، وقائدٍ وزَعيم، فإنَّ لهُ أو عَليه كلُّ مَنْ قالَ بمقالهِ أو عَمِلَ بعمَلِهِ حتَّى يومِ الدِّين.

(الآيتان ٢٨ – ٢٩ من سـورة المائدة): {لَئِن بَسَـطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِـطٍ يَدِيَ إِلَيْـكَ لَأَقْتُلَـكَ إِنِّي أَخَـافُ اللّهَ رَبَّ الْعَـالَمِينَ . إِنِّي أُرِيـدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِـكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ}.

البغي

لو وسَّـعَ اللهُ الرِّزقَ لعِبادِهِ وأعطاهُمْ فَوقَ حاجَتِهم، لطغَوا وتجبَّروا، وأفسَـدوا في الأرْض، ولكنَّهُ يُنَزِّلُ لهُمْ مِنَ الرِّزقِ بقَدْرِ مَصـلحَتِهم، كما تَقتَضـيهِ حِكمَتُهُ تَعالَى، وهوَ أعلَمُ بما يُصـلحُهم، فيُغني مَنْ يَسـتَحِقُّ الغِنَى، ويُفقِرُ مَنْ يَسـتَحِقُّ الفَقر. واللهُ خَبيرٌ بأمرِ عِبادِه، بَصـيرٌ بما يَلزَمُهمْ وما يُصلِحُهم.

{وَلَوْ بَسَـــطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَـــاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} (الشورى : ٢٧)

التطفيف

ذمَّ الله تعالَى الذينَ يَغشُّونَ في الكَيل، فقالَ في كتابهِ العَزيز:

{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ}:

أي: الهَلاكُ والعَذابُ الشَّديدُ لمَنْ نقَصَ مِنَ المِكيَالِ والميزانِ إذا بَاع، أو زادَ فيهما إذا اشترَى.

{الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ}:

الذينَ إذا اشترَوا مِنَ النَّاسِ أخَذوهُ وافيًا وافِرًا.

{وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}:

وإذا باعُوا لهُمْ شَيئًا، فوَزَنوا لهُمْ حَبًّا، أو كالُوا لهُمْ طَعامًا، يَنقُصونَ منه.

{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ}:

ألا يَعلَمُ أولئكَ المطَفِّفونَ أنَّهُمْ سيُبعَثونَ بعدَ الموت،

{لِيَوْمٍ عَظِيمٍ}:

ليَومٍ عَظيمِ الهَول، صَعبِ الموقِف، كثيرِ الفزَع،

{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}:

يَومَ يَقومُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهِمْ لأمرِ اللهِ وحِسابِهِ وجَزائه.

(الآيات ١ – ٦ من سورة المطففين)

نقض العهد وخلف الوعد

قالَ اللهُ تعالَى في كتابهِ العزيز: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس: ٢٢ – ٢٣].

أي: هوَ اللهُ الذي يُمَكِّنُكمْ منَ السَّير في البَرِّ والبَحرِ بما مَهَّدَهُ وسَخَّرَهُ لكم، حتَّى إذا رَكِبوا السُّفُن، ودفَعَتهمُ الريحُ بسُرعةٍ مُناسِبةٍ تُعجِبُهم، وفَرِحوا بذلكَ واطمأنُّوا، هَبَّتْ عليها رِيحٌ شَديدة، وعلا بهمُ الموجُ وارتفَعَ مِنْ كلِّ طرَف، وأيقَنوا أنَّ الهَلاكَ قدْ أحاطَ بهمْ وقَرُبَ غَرَقُهم، أخلَصوا الدَّعاءَ للهِ وحدَه، ولم يُشرِكوا معَهُ في دُعائهمْ أحدًا، لا صَنمًا ولا وثَنًا، قائلين: يا رَبّ، لئنْ خلَّصتَنا منْ هذا الكَرْب، وأنقَذْتَنا مِنَ الغرَق، لنَكونَنَّ منَ الشَّاكرينَ لكَ بالإيمانِ والطَّاعة، ولنْ نُشرِكَ بكَ شَيئاً.

فلمّا أنجاهُمْ منْ ذلكَ الكَرْبِ والشدَّة، إذا همْ يَرتَدُّونَ إلى جاهليَّتِهم، فيَظلِمونَ النَّاس، ويُفسِدونَ في الأرْضِ علانيَّة، لا يَخافونَ رَبًّا ولا يَخشَونَ عَذابًا. يا أيُّها النَّاس، اعقِلوا واحذَروا، فإنَّ هذا الظُّلمَ الذي تُمارِسونَه، والفسادَ الذي تَنشُرونَه، والدِّماءَ التي تَسفِكونَها، والإعلامَ المضَلِّلَ الذي تَبثُّونَه، إنَّما هوَ جِنايةٌ على أنفسِكم، فوَبالُهُ يَعودُ عليكم، وعاقِبَتُهُ تَرجِعُ عليكم،

ولا تَضرُّونَ اللهَ بهِ شَيئاً، وما أنتُمْ فيهِ مَتاعٌ قَليل، ولذَّةٌ فانِية، وحيَاةٌ قَصيرة، ثمَّ تَعودونَ إلينا يومَ الحِساب، فنُخبِرُكمْ بجميعِ ما كسَبتُموه، ونُحاسِبُكمْ عليهِ ونُوفِيكمْ حَقَّه، فانتَظِروا ذلكَ اليَوم.

الاعتراف بالذنب

كثيرةٌ هي المدنُ والقُرَى التي دمّرتْ على أهلِها، لمخالفتِهمْ رسُلَ الله، وتكذيبِهمْ إيّاهم، وإصرارِهمْ على أباطيلِهم، فمنهمْ مَنْ حقَّ عليهمُ العذابُ فنزلَ بهمْ ليلاً وهمْ ساكِنون، ومنهمْ مَنْ نزلَ بهمُ العذابُ في وَقتِ القَيلولةِ وهمْ مُستَريحون. وكِلا الوَقتينِ وقتُ غَفلةٍ ورَاحة.
وكانَ مقالُهمْ عندما نزلَ بهمُ العذابُ وقدْ اعترَفوا بذَنبِهم، وهمْ يَطمعونَ بذلكَ الخلاصَ منَ العَذاب: لقدْ كنّا مسيئينَ إلى أنفُسِنا، مخالِفينَ لأمرِ ربّنا، ونحنُ مستَحِقُّونَ العقُوبة.
قولهُ سبحانه: {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ . فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأعراف: ٤ – ٥].

تصحيح ما هو خطأ

كانتِ الأنصارُ وقبائلُ منَ العربِ في الجاهليةِ لا يدخلونَ البيوتَ مِنْ أبوابِها كالعادةِ إذا كانوا مُحْرِمين، فأمرَهمُ اللهُ تعالَى بتَصحيحِ هذا المسارِ بما يوافقُ النسكَ الإسلاميَّ الجديد:
{وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (البقرة:١٨٩)
فليسَ منَ الخيرِ أنْ تَدخُلوا البيوتَ منْ فُرَجٍ وأنقابٍ وتَتركوا الأبوابَ إذا كنتُمْ مُحْرِمين، ولكنَّ الخيرَ مَنْ خَشِيَ اللهَ وتركَ مخالفةَ أمرِه. وكونُوا على طاعةٍ واستِقامةٍ لتَفوزوا بالبِرِّ والهُدَى.

وفي نُسكٍ آخر، كانتْ قريشٌ وما وَلَدتْ لا تَقِفُ بعرفاتٍ مثلَ باقي القبائل، ولا تُفيضُ منه، فأُمِرتْ بموافقتِهم، ونزلتِ الآيةُ الكريمة، كما رواهُ البخاريُّ وغيرُه:
{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة:١٩٩)

أي: اندفِعوا منْ عرفاتٍ كما كانَ الناسُ يَندفعونَ منهُ مِنْ لدنْ إبراهيمَ عليهِ السلام، للمَبيتِ بمُزْدَلِفةَ ورَمي الجِمارِ وإكمالِ سائرِ المناسك.
واستغفِروا اللهَ مِنْ جاهليَّتِكمْ في تَغييرِ المناسك، فإنَّهْ يَغفِرُ ذنبَ المستَغفرِ ويَرحمُه.

وكانوا في الجاهليَّةِ يُعَيّرونَ المتَعَجّلَ في النَّفرةِ من مِنى، ويؤثّمونَ المتأخِّر، فبيَّنتِ الآيةُ عدمَ القَدْحِ في ذلك. وهوَ اللائقُ بمنْ حجَّ للهِ والتزمَ بالمناسكِ كما شَرعَ الإسْلام.
{فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} (البقرة:٢٠٣)
فمنْ أرادَ أنْ يَنْفِرَ مِنْ مِنىً ثانيَ أيّامِ التشريقِ فلا حرجَ عليه، ومَنْ أرادَ أنْ يَبقَى إلى اليومِ الثالثِ ويرميَ الجِمارَ فلا حرجَ عليهِ أيضاً.
فكُونوا على تَقوَى منَ الله وخَشيةٍ منه، بامتِثالِ الأوَامرِ وتَركِ المحظوراتِ، واحذَروا الإخلالَ بما ذُكِرَ منَ الأحكام...

كما أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى سلوكِ بعضِ الناسِ بالدعاءِ لنفسهِ بما يصلحُ أحوالَهُ الدنيويةَ دون الأخروية، ونبَّههم إلى ما أولَى، فقالَ سبحانه:
{فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} (البقرة:٢٠٠)
أي أنَّ أحدَهم يقول: ربَّنا زِدْنا منَ النِّعَمِ والخَيراتِ في الدُّنيا، واجعَلْ هذا العامَ عامَ خِصْبٍ وغَيْث. فمِثْلُ هذا لا نَصيبَ لهُ في الآخِرَة، لأنَّهُ لم يَسألْ لنفسهِ خيرَها.
والسلوكُ الصحيحُ هو الآتي:
{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (البقرة:٢٠١)
أي: هناكَ مَنْ يَدعو فيُحْسِنُ الدُّعاء، ويَجمَعُ فيهِ بين خَيرَي الدُّنيا والآخِرَة، فيَقول: ربَّنا أعطِنا جِماعَ الخَيرِ في الدنيا والآخِرَة.
وهوَ كأنْ يدعوَ لنفسهِ بالرزقِ الواسع، والزوجةِ الصالحة، والمركبِ الهنيء، والثناءِ الطيّب، والعلمِ النافِع.

كما يدعو لنفسهِ بحُسنِ الخاتمة، والأمنِ يومَ الحشرِ والحِساب، ودخولِ الجنَّةِ معَ الأبرار، والوقايةِ منْ عذابِ النار.

قالَ سبحانهُ وتعالَى إثرها: {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ} (البقرة:٢٠٢) أي: فهؤلاءِ سنُعطيهِمْ نَصيبَهمُ الذي دَعَوا به، مِنْ قَبولِ حجٍّ وغيرِه، واللهُ سريعٌ في الحِساب، يُحاسِبُ عبادَهُ بسُرعةٍ فائقة، على كثرتِهِمْ وكثرةِ أعمالِهم.

طبائع

{لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ}:

لا يَمَلُّ الإنسَانُ مِنْ طلَبِ المالِ والغِنَى والصِّحَّةِ مِنْ رَبِّه، وإذا أصابَهُ ضِيقٌ وشِدَّة، جَزِعَ وتَضايَقَ وفقَدَ الأمَل، وظنَّ أنَّ اللهَ لنْ يُعيدَ إليهِ ما كان.

وإذا آتَيناهُ خَيرًا وأمدَدناهُ بغِنًى وعافية، بعدَ بَلاءٍ وشِدَّة، ليَقولَنَّ: هذا حَقٌّ مِنْ حُقوقي حصَلتُ عليهِ بعمَلي وكدِّي، ولستُ على يَقينٍ مِنْ قيامِ السَّاعَة، وإذا بُعِثَ الموتَى للحِسابِ والجَزاء، فإنَّ لي كرَامَةً وعُقبَى حسنَةً عندَ الله، كما أكرَمَني بالجاهِ والغِنَى في هذهِ الدُّنيا! فلَنُعلِمَنَّ الكافِرينَ بأعمالِهمُ السيِّئة، وعَقيدَتِهمُ الفاسِدَة، ولنُذيقَنَّهمْ عَذابًا شَديدًا مؤلِمًا في الآخِرَة.

وإذا أنعَمنا على الإنسَانِ بالمالِ والجاهِ والعافية، أعرَضَ عنِ الطَّاعَةِ والشُّكر، وتكبَّرَ وشمخَ بأنفِهِ واستَكبَرَ عنِ الانقِيادِ لأمرِ الله، وإذا أصابَهُ فَقرٌ وبَلاء، دَعانا دُعاءً كثيرًا متواصِلاً.

قُلْ للمشرِكينَ أيُّها الرسُول: أخبِروني، لو كانَ هذا القُرآنُ مِنْ عندِ الله، ثمَّ كذَّبتُمْ به، معَ وضوحِ الأدِلَّةِ على أنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّكم، فمنْ يَكونُ أشقَى حالاً، وأبعدَ عنِ الحقِّ منكم؟

سنُظهِرُ للإنسانِ مِنَ الآياتِ الكونيَّةِ العَظيمَة، ومِنْ خَفايا تَكوينِهم النفسيِّ وتَركيبِهمُ العُضويِّ، ما يُسَلِّمونَ بهِ أنَّ هذا الدِّينَ حقّ، وأنَّ القُرآنَ كلامُ رَبِّ العالَمينَ المعجِزُ. أوَلا يَكفي أنَّ اللهَ شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ في هذا الكَون، فلا يَغيبُ عنهُ أمر، ولا تَخفَى عليهِ خافيَة، وأنَّهُ يَشهَدُ أنَّ محمَّدًا رَسولُه، صادِقٌ فيما يُخبِرُ عنه؟

(تفسير للآيات ٤٩ – ٥٣ من سورة فصّلت): {لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}.

{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}(٣):

إنَّ الإنسَانَ لجَحودٌ لنِعَمِ اللهِ عَليه، مُنكِرٌ لفَضلِه،

{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ}:

وإنَّهُ لَشاهِدٌ على جُحودِهِ بما يَصنَع، وبما يَظهَرُ مِنْ أثَرِه عليه.

{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}:

وإنَّهُ لَشديدُ المحبَّةِ للمَال.

(تفسير الآيات ٦ – ٨ من سورة العاديات).

مواقف متباينة

{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً} (الإسراء : ٨٣)

{قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً} (الإسراء : ٨٤)

---

(٣) قال الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله:

أي أن في طبع الإنسان الكُنودَ لربه، أي كفرانَ نعمته، وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوتٍ فيه، ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكُمَّل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه، وهو أمر في الجبلَّة، لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكُّرُ حقِّ غيره. وبذلك قد يذهل أو ينسَى حق الله، والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته؛ لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه. والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخُلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} (التحرير والتنوير).

وإذا أنعَمنا على الإنسَـانِ بالمالِ والعافيَة، ونالَ ما يَرغَبُ ويَشـتَهي، بَطِرَ واسـتَعلَى، ولَجَّ في الظُّلمِ وطغَى، وأعرَضَ عنْ طاعَةِ الله، فلمْ يَذكُرْهُ ولم يَشْكُرْه.

وإذا أصـابَتْهُ المصـائبُ والحَوادِث، ونالَتْ منهُ الشَّـدائدُ والنَّوازِل، انكفَأ على نَفسِـه، فحَزِنَ وقَنَطَ، وظَنَّ أنْ لنْ يَحصُلَ لهُ خَيرٌ بعدَ هذا؛ لضَعفِهِ وشِدَّةِ جَزَعِهِ، إلاّ مَنْ رَحِمَ الله.

قُلْ أيُّها الرَّسُـول: كُلٌّ منَ المؤمِنِ والكافِرِ يَعمَلُ على ناحيَتِه، ومَذهَبِهِ ومِنهَجِه، الذي يوافِقُ حالَهُ ووِجهَتَه، وربُّنا أعلَمُ منّا ومِنكمْ بمَنْ هوَ أهدَى طَريقًا، ومَنْ هوَ أَضَـلّ، وسيَجزي كُلاًّ بما عَمِل.

{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ} (هود: ٩)

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَـرَّاء مَسَّـتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّـيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} (هود: ١٠)

{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} (هود: ١١)

وإذا أنعَمنا على الإنسَانِ نِعمَة، مِنْ غِنىً وصِحَّةٍ وأمن، وذاقَ لذَّتَها، واستَمتعَ بها، ثمَّ سَلبناها منه، وجدتَهُ مَهمومًا مَغمومًا على ما أصـابَه، يائسًـا منْ رُجوعِ رحمةِ اللهِ إليه، جاحِداً بتلكَ النِّعمَة.

وإذا أعطَيناهُ نِعمةً منْ عندِنا بعدَ شِـدَّةٍ وبَلاءٍ أصـابَه، قال: زالتِ الشَّـدائدُ عنِّي، فهوَ بذلكَ فَرِحٌ فَخور، مُغترٌّ مُتَعاظِمٌ على النَّاس، لا يَحسُبُ لزوالِها حِسابًا. وذاكَ دأبُ الكافِرينَ وضَعِيفي الإيمان.

أمّا المؤمِنونَ الصَّـابِرون، الذينَ أتْبَعوا إيمانَهُمْ بالعمَلِ الصـالِحِ الموافِقِ للدِّين، وأخلَصـوا للهِ فيه، فإنَّهُمْ إذا أصابَتْهُمْ شِدَّةٌ صَبَروا حتَّى يأتيَ اللهُ بالفرَج، وإذا أنعمَ عليهمْ بالخَيرِ والعَافيةِ شَكروا ولم يَبْطَروا، ولم يَنسَـوا حُقوقَ الناس، فأولئكَ الذينَ يَغفِرُ اللهُ ذُنوبَهم، ويُثيبُهمْ على أعمالِهِمُ الحسَنةِ ثوابًا عَظيمًا؛ جَزاءَ صَبرِهِمْ على الشَّدائد، وشُكرِهِمْ على النِّعَم.

{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} (الحجرات : ٣)

{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} (الحجرات : ٤)
{وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الحجرات : ٥)
إنَّ الذينَ يَخفِضُونَ أصواتَهُمْ عندَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إجلالاً له، أولئكَ الذينَ أخلصَ اللهُ قُلوبَهُمْ للتَّقوَى، وجعلَها محلاً للطَّاعَةِ والخَشيَة، لهمْ في الآخِرَةِ مَغفِرَةٌ لذُنوبِهم، وثَوابٌ كبيرٌ على طاعَتِهم.
إنَّ الذينَ يُنادُونكَ مِنْ خارجِ بيوتِ نِسائكَ كما يَصنَعُ أجلافُ الأعرَاب، أكثَرُهمْ جاهِلون، غَيرُ مُراعِينَ الأدَب.
ولو أنَّهُمُ انتظَروا وصبَروا حتَّى تَخرُجَ إليهمْ لكانَ أفضلَ لهم، ففي ذلكَ التِزامٌ بحُسنِ الأدَب، وتَوقيرٌ لرسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ مَنْ تابَ وأنَاب، رَحيمٌ بالمؤمِنينَ منهم.

{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (الأحقاف : ١٥)
{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} (الأحقاف : ١٦)
وأمَرنا الإنسَانَ بالإحسَانِ إلى والدَيه، يَبَرُّهما ويَعطِفُ عَليهما، ويُنفِقُ عَليهما، حَمَلَتْهُ أمُّهُ في بَطنِها بتعَبٍ ومَشقَّة، ووَضعَتْهُ بمشقَّةٍ وألَمٍ، مِنَ الطَّلْقِ وشِدَّتِه، ومُدَّةُ حَملِهِ وفِطامِهِ عامانِ ونِصفُ العام، فأقَلُّ الحَملِ سِتَّةُ شُهور، والرَّضاعُ التَّامُّ المنتَهي بالفِطامِ عامان.
حتَّى إذا اشتدَّ ساعِدُه، واستوَى عَقلُه، وبلَغَ أربَعينَ سَنة، فاكتَملَ قُوَّةً وفَهمًا، دَعا اللهَ قائلاً: رَبِّ ألهِمني ووَفِّقْني لأشكُرَ فَضلَكَ ونِعمتَكَ التي مَننتَ بها عَليَّ وعلى والديَّ بالإيمَانِ والإسْلام، وألهِمني ومُنَّ عَليَّ بأنْ أقومَ بالأعمَالِ الصَّالحةِ التي تُحِبُّها وتَرضَى بها، واجعَلِ الإيمَانَ والصَّلاحَ ساريًا في نَسلي، إنِّي تُبتُ إليكَ مِنْ كُلِّ عمَلٍ لا تَرضاه، وإنِّي ممَّنْ أسلَموا نُفوسَهمْ إليك، وأخلَصوا قُلوبَهمْ لك.

فهؤلاءِ نتقَبَّلُ عنهمْ طاعاتِهِمْ وأعمالَهُمُ الصَّالحةَ التي عَمِلوها في الحيَاةِ الدُّنيا، ونَغفِرُ لهمْ سَيِّئاتِهِمْ فلا نُعاقبُهمْ عَليها، فهمْ مِنْ أصحابِ الجنَّة، وَعْدَ الصِّدقِ الذي وعَدَهمُ اللهُ به، وهوَ أنْ يَتقَبَّلَ منهمْ طاعتَهم، ويَتجاوزَ عنْ سيِّئاتِهم.

{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} (الأحقاف : ١٧)

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} (الأحقاف : ١٨)

والكافِرُ العاقُّ لوالدَيهِ يَقولُ عندَ دَعوَتِهما إيَّاهُ للإيمَانِ مُتَضجِّرًا منهما: أتَعِدانِني أنْ أُبعَثَ مِنَ القَبرِ بعدَ الموت، وقدْ مَضَتْ أجيالٌ مِنْ قَبلي ولم يُبعَثْ أحَدٌ منهمْ لأصَدِّقَ ذلك؟ ووالِداهُ يَلتَجئانِ إلى الله، ويَدعوانِهِ إلى الإيمَانِ باللهِ وباليَومِ الآخِر، ويَقولانِ له: ويَلَكَ آمِنْ فهوَ خَيرٌ لك، إنَّ البَعثَ بعدَ الموتِ حقٌّ وصِدق. فيَقولُ مُنكِرًا له: ما هذا الذي تَقولانِ إلاّ أباطيلُ الأوَّلينَ سطَّروها في كتُبِهم!

أولئكَ المكذِّبونَ باليَومِ الآخِرِ وجبَ عَليهمُ العَذاب، معَ أُمَمٍ مُكذِّبَةٍ سلَفَتْ مِنَ الجِنِّ والإنس، إنَّهُمْ جَميعًا خابوا وخَسِروا خَسارَةً كبيرَةً بذلك.

{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (الأحقاف : ١٩)

ولكلٍّ مِنَ الفَريقَين، المؤمِنَينِ والكافِرَين، مَنازِلُ ومَراتِبُ بحسَبِ عمَلِهِمْ في الدُّنيا، وليُعطيَهمُ اللهُ أُجورَ أعمالِهِمْ وافيةً تامَّة، إنْ خَيرًا أو شَرًّا، وهمْ لا يُظلَمونَ شَيئًا، فلا يُنقَصُ مِنْ ثَواب، ولا يُزادُ في عِقاب.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ} (محمد : ٢٠)

ويَقولُ المؤمِنونَ الصَّادِقون، شَوقًا منهمْ إلى الجِهاد، وحِرصًا منهمْ عَليه: هلاّ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مِنَ القُرآنِ تأمرُنا بالجِهاد؟ فإذا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُبيِّنَة، لا تَشابُهَ ولا احتِمالَ فيها لغَيرِ الأمرِ بالقِتال، رأيتَ الذينَ في قُلوبِهِمْ نِفاق، أو ضَعفٌ في الدِّين، يَنظُرونَ إليكَ نَظرَ المحتَضَرِ الذي قَرُبَ مَوتُهُ، فزَعًا وجُبْنًا، وكانَ الأَولَى لهمْ مِنْ هذا الهلَعِ والضَّعْف، ومِنْ هذا النِّفاق.

الأعراب

كُفرُ الأعْرابِ ونِفاقُهمْ أعظمُ وأشَـدُّ مِنْ كُفرِ غيرِهمْ منَ الكفّارِ والمنافِقينَ في الحَضَـر، لجَفائهمْ وغَلاظَتِهم، وتوَحُّشِـهمْ وقَسـاوةِ قُلوبِهم، وهمْ أحرَى وأخلَقُ ألاّ يَعلموا أوامِرَ اللهِ ونَواهيَه، لعَدَمِ مُخالَطَتِهمْ أهلَ العِلمِ والحِكمة، وحِرمانِهمْ منِ اسـتِماعِ الكتابِ والسـنَّة. واللهُ عَليمٌ بأحوالِ الناس، حكيمٌ فيما قَسَمَ بينَهمْ منَ العِلمِ والجَهل، والهُدَى والضَّلال.

ومِنَ الأعرابِ مَنْ يَعُدُّ ما يَصـرِفُهُ في سَـبيلِ اللهِ ويَتصـدَّقُ بهِ غَرامةً وخَسـارة، ويَنتَظِرُ بكمُ الحوادِثَ والآفات، والمصـائبَ والبَلايا، لتَتبدَّلَ حالُكمْ إلى الأسـوأ، جَعلَ اللهُ نوائبَ السُّـوءِ عليهم، والله يَسمعُ مَقالاتِهمُ السيّئة، ويَعلَمُ نيّاتِهمُ الفاسِدة، وما يَستَحِقُّونَهُ منْ عِقاب.

وهُناكَ مِنَ الأعرابِ مَنْ يؤمِنُ باللهِ وباليَومِ الآخِر، ويَعُدُّ ما يُنفِقهُ في سَـبيلِ اللهِ تَقَرُّبًا إلى الله، ويَبتَغونَ بذلكَ دُعاءَ الرسُـولِ صـلى الله عليه وسـلم لهم، فقدْ كانَ يَدعو للمُتصَـدِّقينَ بالخَيرِ والبَركة، ويَستَغفِرُ لهم، ألاَ إنَّ ذلك حاصِلٌ لهم، فسيُقرِّبُهمْ عملُهمْ هذا إلى الله، ويُدخِلُهمْ ربُّهمْ في رَحمتِهِ الواسِعة، وهوَ يَغفِرُ ذُنوبَ عبادِهِ المؤمنينَ التائبينَ على كثرَتِها، ويَرحَمُهمْ برَحمتِه.

تفسيرٌ للآيات:

{الأَعْرَابُ أَشَـدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُـولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّـوْءِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}

{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}

(سورة التوبة: ٩٧ – ٩٩)

سـيَعتَذِرُ إليكَ الأعرَابُ الذينَ تَخلَّفوا عنِ المسـيرِ معَكَ إلى مكَّةَ عامَ الحُدَيبيَة. وكانَ الرسُـولُ صلى الله عليه وسلم قدِ استَنفرَهمْ حذَرًا مِنْ أنْ تَعرِضَ لهُ حَرب، وقدْ أرادَ العُمرَةَ معَ أصحابِه،

فخافَ الأعرَابُ أنْ تُجاهِهَمْ قُرَيشٌ بحَربٍ عَظيمَة، فاعتذَروا وقالوا لهُ مِنْ بَعد: لقدْ شغَلَتْنا عنِ الذَّهابِ معكَ أموالُنا ونِســـاؤنا وذَرارينا، فلمْ يَكنْ هُناكَ مَنْ يَحفَظُهمْ في غيابِنا، فادْعُ اللهَ أنْ يَغفِرَ لنا تخَلُّفَنا عنك. يَقولونَ ذلكَ بألسِنَتِهم، خِلافَ ما يُبطِنونَهُ في قُلوبِهم.

قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: فمَنْ يَستَطيعُ أنْ يَرُدَّ شَيئًا مِنْ قَدَرِ اللهِ إنْ أرادَ بكمْ شَرًّا وعُقوبَة، أو أرادَ بكمْ خَيرًا ومَثوبَة؟ لا أحدَ يَســـتَطيعُ أنْ يَمنعَ ذلكَ ويَدفعَه، فالأمرُ كلُّهُ بيدِه، وقدْ ظَننتُمْ أنَّ تَخَلُّفَكمْ سيَجلُبُ لكمْ نَفعًا، ويَدفَعُ عَنكمْ ضُـرًّا! بلْ كانَ اللهُ عَليمًا بسـبَبِ تَخَلُّفِكم، مُطَّلِعًا على سَرائرِكم، وسيُجازيكمْ على ذلك.

بلْ كانَ تَخَلُّفُكمْ لظَنّكمُ السيّء، فحَسِبتُمْ أنَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم ومَنْ صَحِبَهُ مِنَ المؤمِنينَ سـيُلاقُونَ حَربًا شَـديدَةً مِنْ قُرَيشٍ وغَيرِها، وأنَّهمْ لنْ يَرجِعوا إلى أهاليهمْ ســالِمين، وسـيُقضَـى عَليهمْ كُلِّهم، وزُيِّنَ هذا الظنُّ السـيِّءُ في قُلوبِكم، ولم تَدفَعوهُ بالإيمَانِ والوَلاءِ للهِ ولرسُولِه، بلِ انشغَلتُمْ بذلكَ الظنِّ الفاسِد، وكنتُمْ قَومًا هالِكينَ بذلك، لا خَيرَ فيكم.

قالَ اللهُ تعالَى: {سَـيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَـغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْـتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}

{بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُـولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً}

(سورة الفتح ١١ – ١٢).

ويَعتَبِرونَ إسْلامَهمْ مِنَّةً عَليك، قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: لا تَمُنُّوا عليَّ إسْلامَكمْ ومُتابَعتَكمْ لي، ولا تَتفاضَـلوا عليَّ بذلك، فإنَّ مَنفعَةَ ذلكَ تَعودُ عَليكم، والفَضـلُ والمنَّةُ للهِ عَليكمْ بهدايَتِكمْ لهذا الدِّين، إنْ كنتُمْ مُؤمِنين.

{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْـلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْـلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الحجرات : ١٧)

ذو القرنين

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً}

لما وصـلَ ذو القَرنينِ إلى ما بينَ الجبَلَينِ وجدَ أمامَهما أُمَّةً لا يَكادونَ يَفهَمونَ كَلامَ أحَد، ولا يَفهَمُ النَّاسُ كلامَهم، لغَرابَةِ لُغَتِهِمْ وبُعدِها مِنْ لُغاتِ النَّاس.

فقالوا لهُ بواسِطَةِ مُتَرجِمِهم: يا ذا القَرنَين، إنَّ قَبيلَتَي يأجوجَ ومَأجوجَ يُفسِدونَ في أرضِنا بالقَتلِ والنَّهبِ والأذَى، ولا يَدَعُونَ شَيئًا إلاّ أفسَدوه، فهَلْ نجمَعُ لكَ أمْوالاً عَظيمةً مِنْ عِندِنا لتَجعلَ بينَنا وبينَهمْ حاجِزًا يَمنَعُهمْ منَ الوصُولِ إلَينا؟

قالَ لهمْ ذو القَرنَين: ما قَوَّاني اللهُ عَليهِ وأعطاني مِنَ المُلْكِ والتَّمكينِ خَيرٌ وأفضَـــلُ مِنَ الذي تَجمَعونَهُ لي مِنَ المال، فدَعُوا هذا وسَـــاعِدوني بقُوَّتِكمْ وما عندَكمْ مِنْ موادّ، لأجعلَ بينَكمْ وبينَهمْ حاجِزًا قَويًّا وسَدًّا حَصينًا.

أعطوني قِطَعَ الحديدِ الضَّخمَة. فجلَبوها له، وصارَ يَبني بها ما بينَ الجبَلَين. حتَّى إذا سَوَّى بها ما بينَ طَرَفَيه، قالَ للعُمَّال: انفُخوا في النَّارِ بالكِيران. حتَّى إذا صـارَ الحديدُ أحمرَ كالنَّار، قالَ لهم: أعطوني النُّحاسَ المذابَ لأُفرِغَهُ عَليه.

فما استَطاعَ يأجوجُ ومَأجوجُ أنْ يَعلُوا عَلى ذلكَ السَّدّ، لارتِفاعِهِ ومَلاسَتِه، وما استَطاعُوا أنْ يَنقُبوهُ ويَخرُقوه، لصَلابَتِهِ وثَخانَتِه.

قالَ ذو القَرنَينِ رَحِمَهُ اللهُ في تَواضُـــع، شـــاكِرًا للهِ على ما وفَّقَهُ إليه: هذا السَّـــدُّ نِعمَةٌ منَ اللهِ لأهلِ هذهِ البلادِ ومَنْ بَعدَهم، فإذا جاءَ وعدُ ربِّي يَومَ القِيامَة، أو عندَ خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ قَبلَ ذلك، جعَلَهُ مَدكوكًا وسَوَّاهُ بالأرض. وما وعدَ اللهُ بهِ حَقٌّ ثابِتٌ لا خُلْفَ فيه.

وذُكِرَ أنَّ آثارَ هذا السَّـــدِّ مازالتْ مَوجودةٌ في جُورجيا، في فَتحَةِ داريالَ بجِبالِ القَوقاز، التي كانتِ القَبائلُ المتَوَحِّشَـةُ تُغيرُ منها على مَناطقِ جَنوبِ القَوقازِ وشَـرقِ البَحرِ الأسـوَدِ وغَربِ بَحرِ قَزوين. واللهُ أعلم.

(تفسير للآيات ٩٣ – ٩٨ من سورة الكهف)

أهل القرية

{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ} (يس : ١٣)

واضرِبْ هذا المثَلَ الذي يَنطَبِقُ على حالِ المشرِكين، فهؤلاءِ أصحابُ قَريَةٍ كانوا مُشرِكينَ مِثلَهم، فجاءَهمُ المرسَلون.

ذكرَ قَتادَةُ مِنْ بينِ المفسِّرينَ القُدامَى وتابعَهُ كثيرٌ مِنَ المتأخِّرين، أنَّ المقصودَ بالمرسَلينَ الثَّلاثَةُ الذينَ أرسلَهمْ عيسَى عليهِ السَّلامُ إلى أهلِ أنطاكيَة، وقدْ نقدَهُ ابنُ كثيرٍ واستَبعدَه، وذكرَ أنَّ الصَّحيحَ أنَّهمْ رُسُلُ الله.

إذْ أرسَلنا إليهمْ في المرَّةِ الأُولَى اثنَينِ منهم، يَعِظانِهِمْ ويَدعُوانِهِمْ إلى اتِّباعِ الدِّينِ الحقّ، لكنَّهمْ كذَّبوهما، فشدَدْنا أزرَهما برَسُولٍ ثالِث، فقالوا لأهلِ القَريَة: نحنُ مُرسَلونَ إليكم، ونَدعوكُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ وحدَه، وأنْ تَترُكوا ما أنتُمْ عَليهِ مِنْ شِرك.

فرَدُّوهمْ وقالوا لهم: أنتُمْ لستُمْ سِوَى بشَرٍ مثلِنا، فلِمَ أُوحيَ إليكمْ ولم يُوحَ إلينا؟ ما أنزَلَ اللهُ عَليكمْ شَيئًا ممَّا تدَّعون، وأنتُمْ كاذِبونَ فيما تَقولون.

قالَ لهمُ المرسَلون: إنَّ اللهَ الذي أرسلَنا إليكمْ يَعلَمُ أنَّنا صادِقونَ فيما نَقول، ولو كذَبْنا لخذَلَنا وانتقَمَ منَّا.

والذي عَلينا هوَ أنْ نُبَلِّغَكمْ ما أُرسِلنا بهِ تَبليغًا واضِحًا بيِّنًا على الوَجهِ المطلوب.

قالوا للمُرسَلين: لقدْ تَشاءَمنا بكمْ ولم نرَ في مَجيئكمْ خَيرًا، وإذا لم تَنتَهوا عنْ دَعوَتِكمْ فسَوفَ نَرميكُمْ بالحِجارَة، أو يُصيبُكمْ منَّا عُقوبَةٌ شَديدَة.

قالَ لهمُ الرسُل: إنَّ ما أصابَكمْ وتَشاءَمتُمْ بهِ منَّا هوَ بسبَبِ عَقيدَتِكمُ الفاسِدَةِ وأعمالِكمُ السيِّئة، فشُؤمُكمْ مَردودٌ عَليكم، فإذا وعَظناكمْ ودعَوناكمْ إلى الحقّ، جابَهتُمونا بهذا الكلامِ واتَّهَمتُمونا بما لم نَفعَلْه، بلْ أنتُمْ عُصاةٌ مُشرِكون، قدْ تجاوَزتُمُ الحدَّ في العِصيان.

وجاءَ رَجُلٌ مِنْ طرَفِ المدِينَةِ يُسرِعُ في مَشيهِ حِرصًا على إيصَالِ نُصحِهِ إلى قَومِه، وقدْ هَمُّوا بإيذاءِ الرسُلِ الذينَ أُرسِلَ إليهم، فقالَ لهم: يا قَوم، اتَّبِعوا هؤلاءِ المرسَلينَ الذينَ يَدْعونَكمْ إلى الحقّ،

اتَّبِعوا هؤلاءِ الصَّادِقِينَ العَفيفينَ الذينَ لا يَطلُبونَ مالاً مِنْ ورَاءِ تَبليغِ رِسالَتِهم، وهمْ مُهتَدونَ إلى الحقّ، ثابِتونَ عَليه،

ولماذا لا أعبدُ الإلهَ الذي خلقَني، وما الذي يَمنَعُني مِنْ ذلكَ ومِنْ إخلاصِ العِبادَةِ لهُ وَحدَه، وإليهِ تُرجَعونَ يَومَ البَعث، ليُحاسِبَكمْ على أعمالِكمْ ويُجازيَكُمْ عَليها؟

وهلْ يُعقَلُ أنْ أجعلَ معَ اللهِ أصْنامًا أعبدُها، فإذا أرادَ اللهُ أنْ يُصيبَني بمُصيبَة، مِنْ فَقرٍ ومرَضٍ وبَلاء، لا تُفيدُني شَفاعَتُهمْ شَيئًا، ولا يَستَطيعونَ أنْ يُنقِذوني مِنْ ضُرٍّ أصابَني؟

إنَّني إنْ فعَلتُ ذلكَ فأنا زائغٌ وعلى انحِرافٍ بَيّنٍ لا يَخفَى.

لقدْ آمَنتُ برَبّكمُ الذي خلَقَكمْ ورَزقَكم، فاسمَعوا قَولي وتفَكَّروا فيهِ واقبَلُوه، فهوَ خَيرٌ لكم.

فمات، أو قُتِل، فوَجبَتْ لهُ الجنَّة، فلمَّا رأى الثَّوابَ على الإيمانِ والصَّبرِ على الطَّاعَةِ قال: يا لَيتَ قَومي يَعلَمونَ،

بالذي وهبَ لي رَبّي، فغفَرَ لي ذَنبي ورَحِمَني، وأكرَمَني مِنْ فَضلِهِ بجنَّاتِ النَّعيم.

(تفسير للآيات ١٣ – ٢٧ من سورة يس)

المال

لا يَظُنَّنَّ الذينَ يَبخَلُونَ بأموالِهِمْ فيَكنِزونَها ولا يُنفِقونَها في حقِّها أنَّ ذلكَ أفضَلُ لهمْ وأحسَن، بلْ هوَ شرٌّ لهم، وسوءُ عاقبةٍ يَنتظرُهم، فإنَّ تلكَ الأموالَ ستَتحوَّلُ إلى نيرانٍ فَظيعةٍ تُحيطُ بهمْ وتُطَوِّقُهم؛ جَزاءَ إمساكِهمْ ما تفضَّلَ اللهُ بهِ عليهمْ مِنْ مال، وسيَعلمونَ عندئذٍ أنَّ حِفْظَهُمْ لتلكَ الأموالِ كانَ حفظاً لنارٍ تَنتَظرُهم.

وليسَ اللهُ بحاجةٍ إلى أموالِهم، فهُمْ وأموالَهم وما في السَّماواتِ والأرضِ مُلْكٌ لله، ويَرِثُ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ بعدَ فَناءِ مَخلوقاتِهما. فكلُّ شَيءٍ مَرجِعهُ إليه، ومَنْ أنفقَ فإنَّما يُقَدِّمُ لنفسِهِ خَيراً، واللهُ خَبيرٌ بنيّاتِكمْ في المنعِ والبُخل، ويُجازيكمْ على ذلك.

قولهُ سبحانه: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران: ١٨٠]

الذينَ يَبْخَلونَ بأموالِهِمْ ولا يُنفِقونَها فيما أمرَهمُ اللهُ به، مِنَ الإحسانِ إلى اليتامَى والمساكينِ والجيرانِ والضِّيفان، ويَجحَدونَ نعمةَ اللهِ عليهم، فلا تَظهرُ على حالِهِمْ ولا في نفقَةٍ لهمْ وبَذل، وقدْ تَفضَّلَ اللهُ بها عليهمْ ليَمتَحِنَهمْ بها، فالذينَ يَجحَدونَها ويُخفونَها فلا يُظهرونَها عندَ حاجةِ الناسِ إليهم، فقدْ كفَروا بنعمةِ اللهِ عليهم، فلهمْ يومَ القيامةِ عَذابٌ يُهينُهمْ كما أهانوا نعمتَهُ عليهمْ بالبُخلِ والكَتْم.

والذينَ يُنفِقونَ أموالَهُمْ ليَراهمُ النَّاس، وللافتِخار، ليُقال: ما أسخاهُمْ وما أجوَدَهم، وهمْ غيرُ مُؤمِنينَ بالله، وهوَ مانحُ الثوابِ ومُقَدِّرُ العِقاب، ولا يُؤمِنونَ باليومِ الآخِر، الذي يُثابُ فيهِ المرءُ على أعمالهِ أو يعاقَبُ عَليها، ولذلكَ لا يَتحرَّونَ في إنفاقِهِمْ مَرضاةَ اللهِ وثوابَه، وقدْ حَمَلهمْ على هذا تسويلُ الشيطانِ لهم، فحَسَّنَ لهمُ القَبائح، ومَنْ كانَ الشيطانُ صاحبَهُ ومُلهِمَهُ فإنَّهُ بئسَ الصاحِب، لأنَّهُ يَدعوهُ إلى المعصيةِ المؤدِّيةِ إلى النار.

وما الذي كانَ يَجري لهمْ لو سَلكوا الطريقَ الصحيحَ فآمَنوا باللهِ خالقِهم، وآمَنوا بيومِ القيامة، الذي يُثابُ فيهِ المرءُ على ما أحسنَ فيُكرَم، ويُعاقَبُ على ما أساءَ فيُعَذَّب، ليَخافَ الناسُ فيُحسِنوا سُلوكَهم، ثمَّ أنْفَقوا ممّا رزقَهمُ اللهُ مِنْ مالٍ وتَفضَّلَ بهِ عليهمْ لوجههِ الكريم، لا للمُباهاةِ والافتِخار، فيعتَدِلوا وينفعوا بدلَ أنْ يَبْخَلوا ويَضرُّوا؟ وكانَ اللهُ عليماً بأحوالِهِمْ في البَذْلِ والمنْع، والإصلاحِ والإفساد.

تفسيرٌ للآيات:

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً . وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً . وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِم عَلِيماً}.

(سورة النساء: ٣٧ – ٣٩)

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (الحديد : ٢٤)

المختالونَ بالمالِ يبَخلونَ بالنفقَةِ في سَـبيلِ الله، حتَّى يَتجمَّعَ عندَهمُ المالُ أكثَر، فيَزدَادونَ بطَرًا وطُغيانًا، ويَحُضُّـــونَ النَّاسَ على البُخلِ كذلك، ويَصـــرِفونَهُمْ عنْ فعلِ الخَير، ومَنْ يُعرِضْ عنِ الإنفَاق، فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عنْ نفقَتِه، ولا يَضرُّهُ الإعراضُ عنْ شُكرِه، وهوَ مَحمودٌ في ذاتِه، غَنيٌّ عنْ حَمدِ النَّاس.

{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى}:

كلاّ لمنْ كفرَ بنِعمَةِ الله. إنَّ الإنسَانَ ليَتجاوَزُ حدَّه، ويَستَكبِرُ فيَكفرُ بربِّه، ويَستَغرِقُ في حُبِّ الدُّنيَا،

{أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}:

إذا رَأى نَفسَهُ غَنيًّا، فكثُرَ مالُه، وزادَتْ آثارُ النِّعمَةِ عليه، ونَسيَ المنعِمَ عليه.

{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى}:

إنَّ إلى رَبِّكَ المرجِعَ والمصِيرَ لا إلى غَيرِه، فيُحاسِبُكَ على مالِكَ وأعمالِك.

(سورة العلق: ٦ – ٨).

أصحاب البستان

{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ}

إنَّا ابتلَينا كُفَّارَ مكَّةَ بالقَحطِ والجُوعِ لما كفَروا بنِعمَةِ اللهِ وجحَدوا برِسـالَةِ الإسْـلام، كما ابتلَينا أصحابَ البُستان، المشتَمِلِ على أنوَاعِ الفَاكهةِ والثِّمار، عندَما أقسَمَ أصحابُهُ أنَّهُمْ سيَقطَعونَ ثِمارَهُ في الصَّباحِ الباكِر، قَبلَ أنْ يَعلمَ بهِمْ سائلٌ أو فَقير.

ولا يَترُكونَ منهُ شيئًا للمسَاكين.

فأحاطَ بالبُستانِ بَلاءٌ مِنْ عندِ اللهِ ليلاً، وهمْ نائمونَ غافِلون.

فأصبَحَ مثلَ الزَّرعِ المحصُود، أو الأشجارِ المجنيَّةِ ثِمارُها.

فنادَى بَعضُهمْ بَعضًا في وَقتِ الصَّباح:

اخرُجوا إلى بُستانِكمْ إذا كنتُمْ تُريدونَ قَطفَ ثِمارِه.

فمشَوا إليهِ وهمْ يَتكلَّمونَ بهُدوء، حتَّى لا يَسمعَهمْ أحَد، ويَقولون:

لا تُمَكِّنوا أحدًا مِنَ المساكينِ يَدخُلْ عَليكم.

فعزَموا على مَنعِهم، وصَاروا قادِرينَ على ذلكَ.

فلمَّا وصَـــلوا إليه، ووَقعَ نظَرُهمْ عليه، قالوا: لقدْ أخطَأنا الطَّريقَ إلى البُســـتَان، فليسَ هذا بُستانَنا!

ولكنَّهمْ لما وقَفوا على حَقيقةِ الأمرِ قالُوا: لم نُخطِئِ الطَّريق، فهذا بُستانُنا، ولكنَّنا حُرِمنا خَيرَه، لحِرمانِنا المساكينَ مِنْ خَيرِه، فلا حظَّ لنا فيهِ ولا نَصيب.

قالَ أحسَـــنُهمْ وأرجَحُهمْ عَقلاً: ألَمْ أقُلْ لكم: هلاَّ ذَكرتُمُ اللهَ وشَـــكرتُمْ نِعمَه، وأعطَيتُمْ حقَّ المساكينِ منه؟

قالوا وهمْ نادِمون: تَبارَكَ اللهُ وتَنزَّهَ عنْ ظُلمِ عِبادِه، لقدْ كنَّا نحنُ الظَّالمينَ إذْ لم نَشـــكُرْ نِعمتَه، وعزَمنا على مَنعِ الفُقَراءِ مِنْ ثِمارِ البُستَان.

ثمَّ أقبلَ بَعضُهمْ يَلومُ بَعضًا على ما صدَرَ منهمْ بحقِّ المساكِين.

قالوا: يا هَلاكَنا ويا سُـوءَ فعلِنا، لقدْ تَجاوَزنا حُدودَ اللهِ ومَنَعْنا حُقوقَ المســاكِين، فأصــابَنا ما أصابَنا.

عسَى أنْ يُعَوِّضَنا اللهُ خَيرًا منه، إنَّا تائبونَ إلى رَبِّنا، نَرجُو عَفوَه، ونَطلبُ خَيرَه.

هكذا يَكونُ العَذابُ لمنْ خالفَ أمرَ اللهِ وكفرَ بنِعمَتِه، والعُقوبَةُ في الآخِرَةِ أشَـــدُّ وأبقَى، ولو كانُوا مِنْ أهلِ العِلمِ والفَهمِ لعَلِموا ذلك.

(تفسير للآيات: ١٧ – ٣٣) من سورة القلم.

صاحب البستانين

غنيٌّ كافرٌ كانَ له بستانان:

{وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً} (الكهف: ٣٤)

وكانَ لصَاحبِ البُستانَينِ أموالٌ كثيرة، فقالَ لصاحبِهِ المؤمِن، وهوَ يُخاصِمُهُ ويَفتَخِرُ عَليه: أنا أكثَرُ أموالاً منك، وأكثَرُ خدَمًا وحشَمًا منك، وأولادًا وعَشيرَة.

ودخَلَ الكافِرُ بُســـتانَهُ وهوَ مُتَكبِّرٌ مُنكِرٌ للمَعاد، وقالَ في غُرور: لا أظنُّ أنَّ هذا البُســـتانَ سيَفنَى أبدًا، فأشجارُهُ كثيرَةٌ مُتماسِكة، ومِنْ أصنافٍ جيِّدَة، والماءُ مَوجودٌ بكَثرَة!

قال: ولا أظنُّ القِيامَةَ كائنَة، وإذا كانَ هُناكَ بَعثٌ ومَرجِعٌ إلى الله، فسيَكونُ لي عندَهُ خَيرٌ مِنْ هذا البُستانِ مَرجِعًا ومَآلاً، فما أَولاني هذهِ النِّعمَ في الدُّنيا إلاّ لأنِّي مَحظيٌّ ومُقَدَّرٌ عندَه!

قالَ لهُ صاحِبُهُ المؤمِنُ وهوَ يُحاوِرُهُ بالحُسنَى، يُذَكِّرُهُ ويُنذِرُه: ويحَك! أكفَرتَ بالذي خلقَ أصلَكَ مِنْ تُراب، ثمَّ خَلقَكَ مِنْ نُطفَةٍ مَهينَة، ثمَّ مَدَّ في عمُرِكَ وجَعَلَكَ بشَرًا سَويًّا؟

لكنِّي لا أقولُ بمَقولَتِك، بلْ أُقِرُّ برُبوبيَّةِ اللهِ ووَحدانيَّتِه، ولا أُشرِكُ في عِبادَتي لهُ أحَدًا.

وهلاّ إذْ دخَلتَ بُستانَكَ وعجِبَكَ ما فيه، ذَكَرْتَ خالِقَكَ الذي وَهبَكَ هذهِ النِّعمَة، فحَمِدْتَهُ وشَكَرتَهُ على ذلكَ وقُلتَ: ما شاءَ الله، لا قوَّةَ إلاّ بالله؟ فالأمرُ ما شَاءَ هوَ وحدَه، وما لم يَشأْ شَيئًا لا يَكون، ولا أقدِرُ على حِفظِ مالي ودَفعِ مَكروهٍ عَنهُ إلاّ بحَولِهِ وقوَّتِه.

ولمّا رأيتَني أقَلَّ منكَ ثَروَةً ووَلَدًا تَكبَّرتَ عَليَّ وتَعاظَمت، ولم تُفَكِّرْ بغَضَبِ اللهِ ونِقمَتِه؟

فعسَى أنْ يُعطيَنِي رَبِّي خَيرًا مِنْ بُستانِكَ جَزاءَ فَقري وصَبري، وإيماني واحتِسابي، وأنْ يَبعثَ على بُستانِكَ عَذابًا مُقَدَّرًا مِنَ السَّماء، كصاعِقَة، فيُصبِحَ أرضًا جَرداءَ مَلساء، لا نَباتَ فيها، عُقوبَةَ كُفرِكَ واستِكبارِك.

أو يُصـــبِحَ ماؤهُ غائرًا في الأرضِ بَعيدًا، لا تَنالُهُ الأيدي، وإذا حفَرتَ الأرضَ بَحثًا عَنهُ فلنْ تَجِدَه.

وأحاطَ الهَلاكُ والدَّمارُ ببُســتانِهِ وأموالِه، وكانَ غافِلاً، يَســتَبعِدُ ذلك، فأصــبحَ آسِــفًا حَزينًا، يَضــرِبُ كَفًّا بكَفّ، على ما أنفقَ عليهِ مِنْ أمْوال، وهوَ ســاقِطٌ على دَعائمِه، وفَوقَها أشــجارُ العِنَب، وهوَ يَقولُ مُتنَبِّهًا ومُتذَكِّرًا مَوعِظَةَ صــاحِبِهِ المؤمِن: يا لَيتَني لم أُشــرِكْ برَبِّي أحَدًا، ولو آمَنتُ وشَكرت، لزادَني وحَفِظَني في دِيني ومَالي.

ولم تَكنْ لهُ جَماعَةٌ تَقدِرُ على الانتِصــارِ لهُ ودَفعِ الهلاكِ عَنْ مالِهِ وبُســتانِهِ مِنْ دونِ الله، فهوَ سُبحانَهُ القَادِرُ على نَصرِهِ وحدَه، وما كانَ هوَ قادِرًا على دَفعِ ضُرٍّ عنْ نَفسِه، ولا مَنعِ نِقْمَةِ اللهِ عَنه.

(تفسير للآيات: ٣٤ – ٤٣ من سورة الكهف)

المترفون

قالَ المترَفونَ المستَكبِرون: نحنُ أكثَرُ أموالاً وأولادًا مِنْ هؤلاءِ الضُّعَفاءِ المؤمنين، وهوَ دَليلُ كرامَتِنا على اللهِ ورِضاهُ عنَّا، ولو لم يُحِبَّنا لما أعطَانا ذلك، ولنْ يُعَذِّبَنا في الآخِرَةِ وقدْ أحسنَ إلينَا وأكرَمنا في الدُّنيا!

قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إنَّ اللهَ يوَسِّعُ الرزقَ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، مَنْ أحَبَّ منهمْ ومَنْ لم يُحِبّ، ويُضَيِّقُ على مَنْ شاءَ كَذلك، ابتِلاءً واختِبارًا منه، ولهُ حِكمَةٌ فيه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمون، ولا يَنسِبونَ ذلكَ إلى حِكمَتِهِ تَعالَى.

وإنَّ أموالَكمُ الكثيرَةَ وأولادَكمْ لنْ يَنفَعوكمْ يومَ القِيامَة، ولنْ يُقَرِّبوكمْ عندَنا، ولنْ يُؤَمِّنوا لكمْ مَكانًا في الجنَّة، إلاّ مَنْ كانَ مؤمِنًا في الدُّنيا، وعَمِلَ الأعمَالَ الحسَنة، فهؤلاءِ همُ المقبولونَ عندَ رَبِّهم، وسيُجازيهمْ ثَوابًا مُضاعَفًا على أعمَالِهم، وهمْ مُطمَئنُّونَ سالِمونَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وأذًى، في غُرَفِ الجنَّةِ ومَنازِلِها العاليَة.

تفسيرٌ للآيات:

{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}

{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ}

(سورة سبأ: ٣٥ – ٣٧)

قارون

إنَّ قارونَ الغَنيَّ كانَ مِنْ بَني إسْـرائيل، في عَصـرِ موسَـى عَليهِ السَّـلام، فتكبَّرَ على قَومِهِ وظلمَهم، وأعطَيناهُ مِنَ الأمْوالِ المدَّخَرَةِ ما إنَّ مفاتيحَ خزائنِهِ يَثقُلُ حَمْلُها على جَماعَةٍ قَويَّةٍ مِنَ النَّاس، لكَثرَتِها، فقالَ لهُ صالِحو قَومِهِ يَنصَحونَه، لا تَبْطَرْ ولا تَتفاخَرْ بما أُوتِيتَ مِنْ مَال، فاللهُ لا يُحِبُّ الأَشِـرينَ البَطِرين، الذينَ يتطاوَلونَ على النَّاس، ولا يَشـكرونَ اللهَ على ما أغناهُمْ بهِ وأنعَمَ عَليهم.

واطلُبْ بهذهِ الأموَالِ التي أعطاكَها اللهُ طاعتَهُ وشُكرَهُ والإنفاقَ منها فيما يُرضِيه، ليَجلُبَ لكَ ذلكَ الرِّضَـى والثَّوابَ في الدَّارِ الآخِرَة، ولا تَترُكْ حظَّكَ مِنَ الدُّنيا، ممَّا أحلَّ اللهُ لكَ منها مِنَ المأكَلِ والمشـرَبِ والملبَس، والمسـكَنِ والمنْكَح، وأَحسِـنْ بطاعَةِ اللهِ كما أحسَـنَ إليكَ بنِعمَتِه، وأحسِنْ إلى خَلقِهِ كما أحسَنَ هوَ إليك، ولا تَطلُبْ بأموالِكَ الفسَادَ في الأرضِ والإساءَةَ إلى الخَلق، واللهُ لا يُحِبُّ مَنْ أفسدَ وعصَى، وأجرمَ وبَغَى.

قالَ لهمْ قارُونَ غَيرَ آبِهٍ بنُصـحِهم: هذهِ الأموَالُ التي عِندي حصَّـلتُها بعِلمي وخِبرَتي في المكسَـبِ والتِّجارَة. أوَلمْ يَسـمَعْ قارونُ مِنْ كلامِ الأنبياءِ أو ممَّا يَقُصُّـهُ النَّاسُ أنَّ اللهَ قدْ أهلكَ مِنْ قَبلِهِ مِنَ القُرونِ الماضـيَةِ مَنْ كانَ أشَـدَّ قُوَّةً منهُ وأكثرَ جَمعًا للأموَالِ والخَدَمِ والحشَـم، ولم يَكنْ ذلكَ عنْ محَبَّةٍ لهم، ولذلكَ أهلَكَهم؛ لكُفرِهم، وعدَمِ شُكرِهمْ لنِعَمِ اللهِ عَليهم.

ولا يُسألُ أمثالُ هؤلاءِ المشرِكينَ المجرِمينَ عنْ ذُنوبِهِمْ يومَ القيامَة، لكَثرَتِها التي تُوجِبُ العَذاب، وكفى بالشِّـرْكِ مُوجِبًا للعَذاب، فيَدخُلونَ النَّارَ بغَيرِ سُـؤالٍ ولا حِسـاب، وإنَّما يُسـألونَ سُـؤالَ تَقريعٍ وتَوبِيخ.

وفي يَومِ خُروجِ قارُونَ على قَومِهِ بزِينَةٍ عَظيمَةٍ ومَوكبٍ فاخِر، معَ خدَمِهِ وحشَـمِه، قالَ الذينَ يُريدونَ زُخرُفَ الدُّنيا وزِينتَها: يا لَيتَ لنا مِنَ الأموَالِ والخدَمِ والزِّينَةِ مثلَما أُعطِيَ قارُون، لا شَكَّ أنَّهُ ذو حَظٍّ وافِرٍ وحَياةٍ سَعيدَة.

وقالَ لهمْ أهلُ العِلمِ والتَّقوَى: بئسَ ما قُلتُم، إنَّ ما عندَ اللهِ مِنَ الثَّوابِ والأجْرِ في اليَومِ الآخِرِ أفضَلُ ممَّا تتَمَنَّونَهُ في الحيَاةِ الدُّنيا، هذا لمِنْ آمنَ بصِدقٍ وعَمِلَ العمَلَ الصَّالِح، ولا يُؤتَى ذلكَ إلاّ الصَّابِرونَ على طاعَةِ الله، الصابِرونَ عنِ المعاصِي والشَّهوات.

وفي يَومِ زِينَتِهِ وفَخرِهِ وطُغيانِهِ خسَـفنا بهِ وبدارِهِ وأموالِهِ الأرْض، فابتلَعَتْهم، وغارَتْ بهم، فما كانتْ هُناكَ جَماعَةٌ مِنْ أنصـارِهِ تَدْفَعُ عنهُ نِقمَةَ اللهِ وعَذابَه، وما كانَ هوَ قادِرًا على الانتِصـارِ لنَفسِه.

وأصـبَحَ الذينَ رَأوا قارُونَ في زِينَتِهِ وتمَنَّوا أنْ يَكونُوا في مَكانِهِ ومَنزِلَتِه بالأمسِ القَريبِ يَقولون، وقدْ نَدِموا على ما قالُوا: عجبًا! إنَّ اللهَ سُبحانَهُ يُعطي المالَ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ولا يَعني هذا أنَّهُ يُحِبُّهمْ ويَرضَى عَنهم، ويَمنَعُهُ ممَّنْ يَشاءُ ولا يَعني أنَّهُ يَكرَهُهمْ ويُهينُهم، فلَهُ الحِكمَةُ في ذلك،

ولولا لُطْفُ اللهِ بنا وتَجاوزُهُ عنْ تَقصيرِنا فيما تَمَنَّيناه، لخسَفَ بنا الأرْضَ كما خسَفَ بقارُون.

أَلَمْ ترَ أنَّ الكافِرينَ بنِعمَةِ اللهِ لا يَسعَدونَ ولا يَفوزون؟

تفسيرٌ للآياتِ الكريمة:

{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}

{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}

{قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}

{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}

{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}

{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المنتَصِرِينَ}

{وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}

(سورة القصص: ٧٦ – ٨٢).

السنن

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً} (الإسراء : ١٦)

وإذا أرَدنا أنْ نُدَمِّرَ قَريَةً أو مَدينَةً ونُهلِكَ أهلَها بأعمَالِهِمُ السيِّئة، وقدْ كَثُرَ فيها المتْرَفُونَ المتَنَعِّمون، الخائضُونَ في الفَواحشِ والموبِقات، والجبّارونَ الوالِغونَ في الجَرائمِ والحُرُمات، فانتشَرَ الفِسْقُ والضَّلال، والظُّلمُ والفسَاد، أمرناهُمْ بالطَّاعاتِ وسُلوكِ دَرْبِ الصَّلاح، فأبَوا وتمَرَّدوا، وطغَوا وأفسَدوا، فحَقَّ عَليها أمرُ اللهِ بالهَلاك، فأبَدْنا أهلَها، ودَمَّرناها تَدميرًا كامِلاً.

الفصل الحادي عشر

مواقف في يوم القيامة

الحساب

وُضِعَتْ صَحائفُ الأعمَالِ في أيدي أصحَابِها، وفيها كُلُّ ما قالُوهُ وعَمِلوهُ في الدُّنيا، كبيرًا كانَ أو صَـــغيرًا، وترَى الكفَرَةَ المجرِمينَ خـائفينَ مَـذعورِينَ ممّـا في كِتـابِهِمْ منَ الجرائمِ والمنكَراتِ والذُّنوبِ العِظام، وهمْ يَقولونَ مُتعَجِّبينَ ومُتَحَسِّـرين: يا وَيلَنا وهَلاكَنا، ما شَـأنُ هذا الكِتابِ لا يَترُكُ ذَنبًا صَـــغيرًا ولا كَبيرًا إلاّ وســـجَّلَه؟! ووَجدوا كُلَّ ما عَمِلوهُ في الدُّنيا مَســـطورًا مُثبَتًا أمامَهم، مِنْ خَيرٍ وشَـرّ، ولا يَظلِمُ رَبُّكَ أحَدًا مِنَ النَّاس، فلا يُقَدِّرُ عُقوبَةَ المجرِمِ إلاّ بمقدارِ ما يَسـتَحِقُّه، وقدْ يَعفو ويَصـفَح، ولا يَنقُصُ منْ ثَوابِ المحسِـن، بلْ يُضـاعِفُ لهُ الأجْر، وهوَ الحكَمُ العَدْل، والمحسِنُ الكَريم.

قولهُ سبحانه: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْـفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} (الكهف : ٤٩)

ويُنادِي اللهُ المشـركينَ في ذلكَ اليَومِ الرَّهيب، تَوبيخًا وإهانَةً لهم: أينَ هيَ الأصْـنامُ التي زَعَمتُمْ أنَّها آلِهَة، وجعَلتُموها شُرَكاءَ مَعي في العِبادَة؟

قالَ الذينَ وجبَ عَليهمُ العَذاب، مِنَ الشَّـــياطينِ ودُعاةِ الكُفرِ والضَّـــلال: هؤلاءِ الذينَ أضـــلَلناهُمْ لمْ نُكْرِهْهُمْ على اتِّباعِنا، بلْ زَيَّنَّا في قُلوبِهِمُ الكُفرَ والضَّـــلالَ كما هوَ نحنُ عَليه، فاسـتَجابوا لَنا وصَـــاروا ضُـــلاّلاً، ونحنُ نتبَرَّأُ إليكَ ممَّا اختارُوهُ مِنَ الكُفرِ والمعاصـــي لهوًى في نفُوسِهم، وما كانوا يَعبدونَنا، بلْ كانوا يَعبدُونَ أهواءَهمْ وشَهواتِهم.

وقيلَ للمُشرِكين: أينَ هم شُرَكاؤكمُ الذينَ جعَلتُموهُمْ آلِهَة؛ ليُخَلِّصوكُمْ ممّا أنتُمْ فيهِ مِنَ العَذابِ والهَوان، وقدْ كنتُمْ تَزعُمونَ في الدُّنيا أنَّهمْ سيَنصُرونَكم؟ فنادَوهم، فلمْ يُجيبُوهم، ورأوا العَذابَ أمامَهم، وعرَفوا أنَّهمْ صَائرونَ إليه، ووَدُّوا حينَئذٍ لو كانوا مِنَ المؤمِنينَ المهتَدين.

تفسيرٌ للآيات:

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ}

{قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ}

{وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}

(الآيات ٦٢ – ٦٤ من سورة القصص).

وقالَ اللهُ تعالَى:

{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} (المجادلة : ١٨)

أي: يَحشرُ اللهُ المنافقينَ جَميعًا يَومَ القِيامَة، فيَحلِفونَ لهُ كاذِبينَ أنَّهمْ كانوا على إيمَانٍ واستِقامَة، وأنَّهمْ لم يَكونوا مُشرِكين، كما كانوا يَحلِفونَ لكمْ في الدُّنيا أنَّهمْ مُسلِمونَ مثلَكم، ويَظنُّونَ أنَّ الحَلِفَ الكاذِبَ سيَنفَعُهمْ في الآخِرَةِ ويَدفَعُ عَنهمُ العَذابَ كما كانوا يَتخلَّصونَ بهِ مِنَ المؤاخذَةِ في الدُّنيا، واللهُ يَعلَمُ كذِبَهم، فلا يَخفَى عَليهِ حالُ المنافِقينَ، وما يُسِرُّونَ بهِ أو يُعلِنون.

نتيجة العصيان

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}

{قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً}

{قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}

{وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}

(سورة طه: ١٢٤ – ١٢٧):

ومَنْ خالَفَ هُداي، وكذَّبَ رسُـــلي، فإنَّهُ يَعيشُ في الدُّنيا حَياةَ قَلَقٍ وحَيرَة، وشَـــكٍّ وحرَج، وضِيقٍ وشَقاء، وإنْ بَدا مُتَنَعِّمًا. ويُضَيَّقُ عَليهِ في قَبرِه، ونَحشُرُهُ يَومَ القيامَةِ أعمَى البصَر.

ويَقولُ العَبدُ لرَبِّهِ يَومَذاك: يا رَبّ، لماذا أعمَيتَ عَينيَّ وقدْ كنتُ أرَى بهما في الدُّنيا؟

فيَقولُ لهُ رَبُّه: إنَّكَ كما أعرَضْـــتَ عنْ هِدايَتي وآياتي البيِّنَةِ الواضِـــحَة، فتعامَيتَ عنها وتركتَها غَيرَ مُبالٍ بها، فكذلِكَ تُعامَلُ مُعاملَةَ مَنْ يَنسَـاكَ في هذا الموقِف، وتُتْرَكُ أعمَى هكذا، فالجزاءُ مِنْ جنسِ العمَل.

قالَ قَتادَة: نُسُوا مِنَ الخَير، ولم يُنْسَوا مِنَ العَذاب.

وبمِثلِ العُقوبَةِ الموافِقَةِ للجُرمِ والجنايَة، نُعاقِبُ مَنْ أشرَكَ وآثرَ هَواهُ وشَهواتِهِ على اتِّباعِ دِينِ الله، وكفَرَ بآياتِهِ وبالمعجِزاتِ التي أيَّدَ بها رسُـلَه، والعَذابُ الذي يُعَذِّبُهُمُ اللهُ في الآخِرَةِ أعظَمُ وأشَـدُّ ألَمًا ممّا يُعَذِّبُهُمْ بهِ في الدُّنيا وفي القَبر، وأكثَرُ دوَامًا، فإنَّهُمْ يُخَلَّدونَ في جَهنَّمَ أبَدًا.

تباين

{يَسْـــتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْـــفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} (الشورى : ١٨)

يَستَعجِلُ الكافِرونَ بالسَّـاعَةِ تَكذيبًا وإنكارًا، ويَقولونَ استِهزاءً: متَى تَقومُ السَّـاعَة؟ والمؤمِنونَ خـائفونَ وَجِلونَ منهـا، ويَعلَمونَ أنَّهـا آتيَةٌ لا رَيبَ فيهـا، فيَعمَلونَ مِنْ أجلِهـا. ألَا إنَّ الـذينَ يُجادِلونَ في السَّاعَةِ بالباطِلِ جاهِلونَ بَعيدونَ عنِ الحقّ.

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ} (محمد : ١٢)

إنَّ اللهَ يُكرِمُ المؤمِنينَ الصَّـالحينَ يَومَ القيامَة، ويُثيبُهمْ على أعمالِهِمْ خَيرَ الجَزاء، فيُدخِلُهمْ جنَّاتٍ عاليات، تَجري خِلالَ أشـجارِها الأنهارُ، لتَزيدَ مِنْ سَـعادَتِهِمْ وبَهجَتِهم. والكافِرونَ يَتمَتَّعونَ في الدُّنيا زمَنًا قَليلاً، ويأكُلونَ كما تأكلُ البَهائم، لا يُفكِّرونَ إلاّ بأطماعِهِمْ وشَـــهواتِهِم، فهمْ

غافِلونَ عمَّا يَنتَظِرُهمْ في آخِرَتِهم، وهُناكَ المسـتَقبَلُ الحقيقيّ، وليسَ في الدُّنيا الفانيَة. والنَّتيجَةُ أنْ تَكونَ النَّارُ مَوضِعَ إقامَتِهمُ الدَّائم.

في يَومِ القِيامَةِ بينَما يَكونُ الكافِرونَ في رُعبٍ وخَوف، ترَى المؤمِنينَ يَمشـي نورُهمْ بينَ أيديهمْ وعنْ أيمانِهِمْ إذا مشَوا، ويَكونُ ذلكَ بحسَبِ أعمَالِهم، ويَقولُ لهمُ المِلائكة: لكمُ البُشرَى جنَّاتٌ وقُصورٌ عاليَاتٌ تَجري مِنْ تَحتِها الأنهَار، ماكثينَ فيها أبدًا، وذلكَ هوَ الفَوزُ والفَلاح، والسَّعادَةُ الكبرَى.

في ذلكَ اليَومِ العَصـيب، يَقولُ المنافِقونَ والمنافِقاتُ للمؤمِنين: انتَظِرونا نَسـتَضِـئْ مِنْ نورِكمْ لنَلحقَ بكم. فيُقالُ لهم: ارجِعوا مِنْ حيثُ جئتُم، مِنَ المكانِ الذي قُسِـمَ فيهِ النُّور، فاطلبوهُ لأنفُسِـكمْ مِنْ هُناك. فلمْ يَجِدوا شَـيئًا، فضُـرِبَ بينَ الفَريقَينِ بحاجِزٍ لهُ باب، باطنُهُ الذي يَلي جانِبَ المؤمِنينَ فيهِ الجنَّةُ والنَّعيم، وظاهِرُهُ مِنَ الخارجِ في جهَةِ المنافِقينَ العَذابُ والنَّار.

يُنادي المنافِقونَ المؤمِنينَ مِنْ وراءِ السُّـور: أمَا كنَّا معَكمْ في الدُّنيا، نُصـلِّي معَكمْ ونَصـوم، ونَحضـرُ الجمُعَة، ونُشـارِكُ في القِتال...؟ فقالَ لهمُ المؤمِنون: بلَى، كنتُمْ معَنا، ولكنَّكمْ أهلَكتُمْ أنفَسَكمْ بالنِّفاق، والمعاصي والشَّهوات، وصرَفتُموها عنِ الهُدَى، ولم تَعزِموا على الحقِّ ولم تَثبُتوا عَليه، وشَـكَكتُمْ في النبوَّةِ والبَعث، وغرَّكمْ طولُ الأمَلِ وحبُّ الدُّنيا، ومازِلتُمْ على ذلكَ حتَّى جاءَكمُ الموت، وقدْ غرَّكمُ الشَّيطانُ وخدعَكمْ عندَما زيَّنَ لكمْ مَوقِفَكمْ هذا في نُفوسِكم، حتَّى قُذِفَ بكمْ في النَّار.

ففي يَومِ الجزاءِ هذا، لا يُقبَلُ منكمْ بَذْلٌ وعِوَضٌ لتُنقِذوا بهِ أنفُسَـكمْ مِنَ النَّار، وقدْ آمَنتُمْ ظاهِرًا وكفَرتُمْ باطِنًا، ولا مِنَ الذينَ كفَروا ظاهِرًا وباطِنًا، ومَصـيرُكمْ جَميعًا الجَحيم، فهوَ سـنَدُكمْ وأولَى بكمْ مِنْ كُلِّ مَكان، وبئسَ هذا المرجِعُ والمآب، الذي ليسَ فيهِ سِوَى العَذابِ والهَوان.

تفسيرٌ للآيات:

{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ}

{يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}
{فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}
(سورة الحديد: ١٢ – ١٥)

{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}
في يَومِ القيامةِ تُعرَضونَ على اللهِ الذي لا يَخفَى عليهِ سِرٌّ مِنْ أسرَارِكم، ليُحاسِبَكمْ عَليها.
فأمَّا مَنْ أُوتِيَ صَحيفةَ أعمالِهِ بيدِهِ اليُمنَى، فيَفرَحُ بفَوزِهِ ويَقول: خُذوا واقرَؤوا ما في صَحيفَتي، فإنِّي مِنَ الفائزِين.
لقدْ كنتُ مُوقِنًا بالبَعثِ والحِسَاب، وبالثَّوابِ والعِقاب.
فهوَ في عِيشَةٍ مَرضيَّة، وسَعادَةٍ غامِرَة.
في جنَّةٍ واسِعَةٍ مُرتَفِعَة.
ثِمارُها قَريبةُ التَّناول، للقائمِ والقاعِد.
كُلُوا مِنْ طَعامِ الجنَّةِ وثِمارِها، واشرَبوا مِنْ أنهارِها اللَّذيذَة، سائغًا مريئًا، بما قدَّمتُمْ مِنَ الأعمَالِ الصَّالحةِ في أيَّامِ الدُّنيا.
وأمَّا مَنْ أُوتِيَ صَحيفةَ أعمالِهِ بيدِهِ الشِّمال، فيَندَمُ غايةَ الندَم، ويَقول: يا لَيتَني لم أُعْطَ صَحيفَتي،
ولم أعرِفْ جَزائي ومَصيري،
لَيتَ المِوتةَ التي مُتُّها في الدُّنيا كانَتِ الأخيرَةَ فلمْ أُبعَثْ ولم أُحاسَب،
لم يَنفَعْني مَالي الذي جمَعتُهُ في الحيَاةِ الدُّنيا شَيئًا، ولم يَدفَعْ عنِّي سُوءَ ما أُلاقيهِ مِنَ العَذاب،
ولم يُغْنِ عنِّي عِلمي وحُجَّتي وجِدالي، وشهاداتي وخِبرَاتي. أو لم يُغْنِ عنِّي جاهي ومَنصِبي، وأنصاري وجَماهيري الكثيرَة، لقدْ بطَلَتْ جَميعُها، وعجَزَتْ عنِ القِيامِ بأيِّ شَيءٍ لي.
خُذوهُ أيُّها الزَّبانيَة، وشُدُّوا يدَهُ إلى عُنُقِهِ بالقيُود،
ثمَّ أدخِلوهُ نارَ الجَحيمِ المؤجَّجَة،
ثمَّ أدخِلوهُ في سِلسِلَةٍ طُولُها سَبعونَ ذِراعًا، حِلَقٌ داخِلَةٌ في حِلَق، تُوقَدُ في نَارِ جهنَّمَ وتُلَفُّ على جسَدِهِ مِنْ جَميعِ جِهاتِه.

إنَّهُ كانَ مُصِـرًّا على الكُفرِ والتَّكذيب، لا يَقومُ بحقِّ اللهِ مِنَ الطَّاعَة، خَلا قَلبُهُ مِنْ نُورِ الإيمَان، فصارَ خَرِبًا مَوَاتًا، لا يَصلُحُ لهُ إلاّ النَّارُ والعَذاب.

وما كانَ يَرحَمُ العِباد، فلا يُطعِمُ الجَوعَى مِنَ الفُقَراءِ والمحتاجين، ولا يَحُثُّ أهلَهُ على ذلك.

فليسَ لهُ في هذا اليَومِ قَريبٌ يُنقِذُهُ مِنَ العَذابِ الذي هوَ فيه، أو يُخَفِّفُ عنه.

وليسَ لهُ مِنَ الطَّعامِ إلاّ الغِسلِين، الذي ذُكِرَ أنَّهُ صَديدُ أهلِ النَّار، وهوَ ما يَسيلُ مِنْ لُحومِهمْ وجُروحِهم.

لا يأكلُهُ إلاَّ الكافِرون.

(تفسيرٌ للآيات ١٨ – ٣٧ من سورة الحاقة)

وجوهٌ كثيرَةٌ يومَ القيامَةِ تَكونُ بَهيَّةً مُشرِقَة، مَسرورَةً مُتَهلِّلَة، يُرَى عَليها نَضرَةُ النَّعيم، هيَ وجُوهُ المؤمِنين،

تَنظرُ إلى رَبِّها عِيانًا.

ووجُوهٌ كثيرَةٌ يَومَئذٍ عابِسَةٌ كالِحَة، مُغْبرَّةٌ مُسْوَدَّة، هيَ وجوهُ الكافِرين،

تَعلَمُ أنَّهُ سيُفعَلُ بها دَاهِيةٌ عَظيمَةٌ مِنَ العَذاب، تَكسِرُ فَقارَ الظَّهر.

تفسيرٌ للآيات: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} (سورة القيامة: ٢٢ – ٢٥)

{فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ}

فإذا جاءَتْ صَيحَةُ القِيامَة، التي تَصِخُّ الأسمَاع، حتَّى تَكادُ تُصِمُّها. وهيَ النَّفخَةُ الثَّانية.

في ذلكَ اليَومِ الرَّهيبِ المفزِع، يرَى المرءُ أخاهُ فيَفِرُّ منهُ ولا يأبَهُ به، لشـــدَّةِ الهَولِ والفزَعِ الذي أمامَه،

ويَفِرُّ مِنْ والِدَيه، أُمِّهِ وأبِيه، وقدْ كانَ حَريصًا على سَلامَتِهما وراحَتِهما،

ومِنْ زَوجَتِهِ وبَنيه، وقدْ فَدَّاهمْ بمالِهِ وراحَتِهِ في الدُّنيا طَوالَ عمُرِه.

لكُلِّ واحدٍ في ذلكَ اليَومِ شُغُلٌ يَشغَلُه، وخَطْبٌ يَكفيه، وهَمٌّ خاصٌّ به.

وجوهُ المؤمِنينَ السُّعَداءِ يَومَئذٍ مُستَنيرَةٌ مُتهَلِّلَة،

فَرِحَةٌ مَسرورَة؛ لِما يَرَونَ مِنَ النَّعيمِ وما يُبهِجُ القَلب.

ووُجوهٌ الأشقيَاءِ يَومَئذٍ عَليها غُبارٌ وكدَرٌ مِنَ الحُزنِ والحَسْرَة.
يَعلوها سَوادٌ وظُلمَة، مِنَ الذُّلِّ والمهانَة،
أولئكَ الذينَ كفَروا باللهِ وكذَّبوا بآياتِه، وفجَروا في أعمالِهِمْ فعصَوا وأثِموا.
(تفسيرٌ للآيات ٣٥ – ٤٢ من سورة عبس).

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ}
إنَّ المشرِكينَ كانوا يَستَهزِؤونَ بالمؤمِنينَ ويَحتَقِرونَهُمْ في الحيَاةِ الدُّنيا.
وإذا مرَّ المؤمِنونَ بهِمْ وهمْ في مَجالسِهم، يُشيرونَ إليهمْ بأعيُنِهمْ استِهزاءً وسُخريَة.
وإذا رجعَ هؤلاءِ المجرِمونَ إلى بُيوتِهم، رجَعوا مُبتَهِجينَ بما فعَلوا، مُستَمتِعينَ باستِخفافِهِمْ بالمؤمِنين!
وإذا رَأوا أصحَابَ النبيّ صلى الله عليه وسلم قالُوا: هؤلاءِ زائغونَ مُنحَرِفون، لكونِهِمْ على غَيرِ ملَّةِ الكُفر!
وما بُعِثَ هؤلاءِ المشرِكونَ رُقَباءَ ووكلاءَ على المؤمِنين، حتَّى يَحفَظوا عَليهمْ أعمالَهُمْ وأحوالَهم، ويَشهَدوا برُشدِهِمْ أو ضَلالِهِم، فلمَ يَشغَلونَ أنفُسَهمْ بهم؟
ففي يَومِ القِيامَةِ يَضحَكُ المؤمِنونَ وهمْ في الجنَّةِ يَنعَمون، مِنَ الكفَّارِ وهمْ في الجَحيمِ يُعَذَّبون، في مُقابِلِ ما كانَ يَسخَرُ منهمْ هؤلاءِ في الحيَاةِ الدُّنيا.
وهمْ جالِسونَ على الأسِرَّةِ المزيَّنة، يَنظُرونَ إلى الكفَّارِ وهمْ في حَالِ ذُلٍّ وهَوانٍ وعَذاب، بعدَ حياةِ التنعُّمِ والترفُّهِ في الدُّنيَا.
هلْ عُوقِبَ الكافِرونَ على استِهزائهمْ بالمؤمِنين، وجُوزوا مِنْ جنسِ ما كانوا يَفعَلونَ بهم؟ نعم.
(تفسيرٌ للآيات ٢٩ – ٣٦ من سورة المطففين).

أهل الجنة

{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ}

أقبَلَ أهلُ الجنَّةِ بَعضُـهمْ على بَعض، يَتسـاءَلونَ عنْ أحوالِهم، وعمَّا كانوا عَليهِ في الدُّنيا، وهمْ على الأسِرَّةِ مُتَّكِؤون.

قالَ واحِدٌ منهم: لقدْ كانَ لي صاحِبٌ في الدُّنيا،

يَقولُ لي على جِهَةِ الإنكار: أأنتَ مِنَ المصَدِّقينَ بالحياةِ بعدَ الموت؟

أإذا مِتنا وكُنَّا تُرابًا وعِظامًا باليَة، أإنَّا لمبعُوثونَ ومُحاسَبونَ على أعمالِنا ومَجزيُّونَ بها.

قالَ لأصـحابِهِ مِنْ أهلِ الجنَّة: هلْ أنتُمْ مُشـرِفونَ على النَّارِ وناظِرونَ إلى أهلِها لأُريَكمْ ذلكَ الصَّاحِب؟

فاطَّلَعَ على أهلِ النَّار، فرآهُ في وسَطِ الجَحيم.

قالَ لهُ المؤمِن: واللهِ لقدْ كِدْتَ أنْ تُهلِكَني، لو وافَقتُكَ على كَلامِك.

ولولا فَضلُ اللهِ عَليَّ ورَحمَتُهُ بي، لكنتُ مثلكَ مِنْ أهلِ النَّار.

وقالَ المؤمِنُ لأصحابِهِ مِنْ أهلِ الجنَّة: ألَا نَموتُ بعدَ هذا؟

إلاّ مَوتَتَنا الأُولَى التي كانتْ في الدُّنيا، ولا نُعَذَّبُ كأصحَابِ النَّار؟

إنَّ هذا النَّعيمَ هوَ النَّجاحُ الحقيقيّ، والسَّعادَةُ العُظمَى والدَّائمَة.

لمِثلِ هذا النَّعيمِ المقيم، ولمِثلِ هذهِ المنزِلَةِ والكرَامَةِ فليَعمَلْ أهلُ الدُّنيا.

(تفسيرٌ للآيات ٥٠ – ٦١ من سورة الصافات).

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ}:

وأقبَلَ أهلُ الجنَّةِ يتَحادَثون، ويَسألُ بَعضُهمْ بَعضًا عنْ أحوالِهِمْ في الدُّنيا.

{قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ}:

قالوا: لقدْ كنَّا خائفينَ وَجِلينَ بينَ أهلِينا، نَخشَى عَذابَ اللهِ ونُشفِقُ على أنفُسِنا مِنْ عِقابِه.

{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}:

فمَنَّ اللهُ عَلينا برَحمَتِه، وأكرمَنا بنِعمَتِه، فأدخلَنا جنَّتَه، وجنَّبَنا نارَ جهنَّمَ الشَّـديدَةَ النَّافِذَة، التي تَدخلُ في الجسمِ وتُحرِقُهُ مباشرَة.

{إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ}:

لقدْ كنَّا نَعبُدُ اللهَ في الدُّنيا مُخلِصـــين، ونَرجُوهُ أنْ يَقيَنا العَذاب، إنَّهُ هوَ المحسِـــنُ الكَريم، ذو الرَّحمَةِ العَظيمَة.

(الآيات ٢٥ – ٢٨ من سورة فاطر).

أهل النار

{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [سورة الأنعام: ٢٧ – ٢٨]:

ولو نظَرتَ إليهمْ حينَما يُعاينونَ نارَ جهنَّمَ وما فيها مِنْ أنواعِ العَذاب والأهْوال، فعندَ ذلكَ يَقولون، وقدْ عَرَفوا ذَنْبَهمْ ومَصيرَهم: يا ليتنا نَرجِعُ إلى الدُّنيا ولا نُكَذِّبُ بالقُرآنِ ولا نَقولُ إنَّهُ أساطيرُ الأوَّلين، بلْ نؤمنُ ونَعملُ صالحاً كما يرضَى ربُّنا.

وليسَ الأمرُ كما قالوا، مِنْ عَزمِهمْ على التَّصديقِ بالآياتِ وتَشَوُّقهمْ إلى الإيمانِ إذا عادوا إلى الدُّنيا، بلْ قالوا ذلكَ خَوفاً مِنَ العَذاب، وقدْ ظهرَ لهمْ ما كانوا يُسِرُّونَهُ مِنْ إنكارِ تَحَقُّقِ يومِ القيامةِ وعدمِ الإيمانِ بثبوتِ النارِ والحِساب. أو أنَّ المقصودَ هوَ ما كانوا يُسِرُّونَهُ منَ الإيمانِ بصدقِ رسالةِ الرسُولِ ولكنَّهمْ كانوا يُخْفُونَهُ عنْ أتْباعِهم، هكذا جَهلاً وعِناداً وحِفاظاً على الزَّعامة. ولو أنَّهمْ رَجعَوا إلى الدُّنيا لعَادوا إلى حالِهمْ منَ الكُفرِ والتكذيبِ والمعانَدة، فهمْ كاذبونَ في قولِهم: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنعام: ٢٧].

قالَ اللهُ لقَومٍ كافرينَ يومَ القيامَة: ادخلوا النارَ معَ أقوامٍ آخَرِينَ منْ أمثالِكمْ مَضَوا مِنَ الجِنِّ والإنس، كلَّما دَخلتْ أمَّةٌ منهمُ النارَ لعنَتْ ودَعَتْ على نَظيرِها في المعتَقَد، ويلعَنُ القادةُ أتباعَهمْ لأنَّهمْ يَزيدونَهمْ عَذاباً، ويَلعَنُ التابِعونَ مَتبوعِيهمْ لأنَّهمْ كانوا سببَ ضلالِهم وعذابِهم، وهكذا.

حتَّى إذا تلاحَقوا واجتَمَعوا كلُّهم في النَّار، قالتْ آخِرُ أمَّةٍ منهمُ دَخلتِ النار – وهمُ الأتباعُ منَ القادةِ والرؤساءِ – لأُولاهُم، وهمُ المتبُوعون: ربَّنا إنَّ هؤلاءِ قدْ دَعَونا إلى الضَّلالِ وصَرَفونا عنِ الهُدَى، فزِدْهمْ ضِعْفَ ما يَستَحِقُّونَ منَ العُقوبةِ بالنَّار.

قالَ اللهُ تَعالَى: إنَّ لكلٍّ منَ الأتباعِ والمتبُوعينَ ضِعْفَ العَذاب، ولكنْ لا تَعلمونَ ما لكلِّ فريقٍ منْ ذلك. أمّا القادةُ فلأنَّهمْ ضَلُّوا وأضَلوا، وأمّا أتباعُهمْ فلأنَّهم كانوا في ضَلالٍ وتَقليد.

وقالَ القادةُ حينَ سَمِعوا قولَ الأتباع: فقدْ ضَللتُمْ كما ضَلَلنا، وكفرتُمْ كما كفَرنا، فنحنُ في الكُفرِ سَواء، وفي العَذابِ سَواء، وقالوا على سَبيلِ الغَضبِ والتشفّي: فذُوقوا العذابَ جزاءَ ما كسبتُمْ بضلالِكم.

تفسيرٌ للآيتينِ الكريمتين: {قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٣٨ – ٣٩]

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} (فصلت : ٢٩):

وقالَ الكافِرونَ وهمْ يُعَذَّبونَ في النَّار: ربَّنا أَرِنا اللَّذَينِ كانا سببَ كُفرِنا وضَلالِنا مِنَ الجِنِّ والإنسِ حتَّى أردَيانا في النَّار، لنَدوسَهُما بأقدامِنا ونَنتَقِمَ منهما، ويَكونا في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ النَّار.

قالَ اللهُ سبحانه: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤٤]:

ونادَى أصحابُ الجنَّةِ – بعدَ الاستِقرارِ فيها – أصحابَ النارِ، تأنِيباً لهمْ وتوبَيخاً: لقدْ وجَدنا ما وعدَنا ربُّنا مِنَ النَّعيم والكرامةِ حقًّا وصِدقاً كما بلَّغَنا على ألسِنَةِ رسُلِه، فهلْ وجدتُمْ ما وعدَكمْ ربُّكمْ منَ العَذابِ والهَوانِ حقًّا؟

قالوا: نعم، قدْ وَجدناهُ حقًّا كذلك.

فنادَى مُنادٍ بينَهمْ يُسمِعُ الفَريقين: لعنةُ اللهِ على الكافِرين.
فيَزدادُ بذلكَ أصحابُ الجنَّةِ سُروراً، وأصحابُ النارِ حُزناً وغَمًّا.

ونادَى أهلُ النَّارِ – وهمْ في الجَحيمِ تُسَعَّرُ بهمُ النار – أصحابَ الجنَّة، وهمْ في النَّعيمِ مُتَلذِّذون: صُبُّوا علينا شَيئاً مِنَ الماء، أو ممَّا رزقَكمُ اللهُ مِنْ طَعامِ الجنَّة، فيقولونَ لهم: إنَّ اللهَ حرَّمَ ماءَ الجنَّةِ وطعامَها على الكافِرين.
قالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ رحمَهُ اللهُ في هذهِ الآية: يُنادي الرجلُ أباهُ أو أخاهُ فيقول: قدِ احتَرقتُ، أفِضْ عليَّ منَ الماء. فيُقالُ لهم: أجيبُوهم. فيقولون: إنَّ اللهَ حرَّمَهُما على الكافِرين.
همُ الكافِرون، الذينَ اتَّخَذوا دينَ اللهِ الذي أُلزِمو باتِّباعه، هُزْءاً وسُخريَة، بدلَ أنْ يَستقبِلوهُ بصدْقٍ وجِدّ، فاستحلُّوا وحرَّموا كما تُملي عليهمْ أهواؤهم، واغترَّوا بزينةِ الدُّنيا، وشَغلتهُمْ شهواتُها وزَخارِفُها عنِ الآخِرَة، فأعرضوا عنها ونَسُوها، واليومَ نَتركهُمْ في العَذابِ ولا نلتَفِتُ إليهم، ونعامِلُهمْ معاملةَ مَنْ نَسِيَهم، مثلما نَسُوا همْ لقاءَ هذا اليومِ العَظيم، ومثلما أنكَروا آياتِنا العَظيمةَ في الحياةِ الدُّنيا، وهي حُجَجُ اللهِ التي احتجَّ بها عليهم، من الأنبياءِ والرسلِ والكتبِ وغيرِ ذلك، فكانتْ حُجَّةً عليهم.
قولهُ سبحانه: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ . الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [الأعراف: ٥٠ – ٥١]

{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ}
وقيلَ لأهلِ النَّار: كمْ سنَةً بَقيتُمْ في الدُّنيا أحياءً؟
قالوا: لقدْ مَكَثنا مُدَّةً قَليلَة، فاسألِ المتَمَكِّنينَ مِنَ العَدّ، فقدْ دَهَمَنا مِنَ العَذابِ ما أنسَانا مَعرِفَةَ ذلك.
قيلَ لهم: حَقًّا لقدْ مكَثتُمْ مُدَّةً يَسيرَةً في الحَياةِ الدُّنيا، فقدِ انقضَتْ ومَضَت، ولو كانَ لكمْ عِلمٌ وتفَكُّر، لعرَفتُمْ حقارَةَ الدُّنيا ومتاعَها الزَّائل، وصبَرتُمْ على ما كُلِّفتُمْ بهِ مِنْ طاعَةِ الله، في عُمرِكمُ القَصير.

أظَنَنتُمْ أنَّني خلَقتُكمْ هَمَلاً، لَعِبًا وباطِلاً، دونَ حِكمَةٍ ومِنْ غَيرِ هدَفٍ وغايَة، وأنَّكمْ لا تُبْعَثونَ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاء، والثَوابِ والعِقاب؟

تنَزَّهَ اللهُ عنْ مِثلِ هذا العبَث، وتعالَى عنْ أنْ يَخلُقَ شَيئًا مِنْ دُونِ قَصدٍ وفائدَة، فهوَ المالِكُ بالحَقِّ والعَدل، لا إلهَ غَيرُه، وهوَ رَبُّ العَرشِ الكَريم.

(تفسيرٌ للآيات ١١٢ – ١١٦ من سورة المؤمنون)

{قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ} (الشعراء : ٩٦)

قالَ الضالُّونَ مِنْ أهلِ النَّارِ للأصنَامِ والشَّياطينِ وهمْ يَتخاصَمون:

واللهِ لقدْ كُنَّا على خطَأ واضِحٍ، وفي ضَلالٍ بيِّنٍ في الدُّنيا،

عندَما كُنَّا نَعبدُكمْ ونَجعَلُكمْ في رُتبَةِ رَبِّ العالَمين، وأنتُمْ أدنَى مَخلوقاتِه!

وما أغوانا عنِ الطَّريقِ المستَقيمِ إلاّ هؤلاءِ الشَّياطين، وأتْباعُهمْ مِنْ رُؤوسِ الضَّلال،

فلا يوجَدُ هُنا مَنْ يَشفَعُ لنا ويُنقِذُنا مِنْ هذا العَذابِ، مِنَ المِلائكَةِ والنبيِّينَ والمؤمِنين،

ولا قَريبٌ شَفيقٌ يُهِمُّهُ أمرُنا ويتَوجَّعُ لنا، فيواسِينا أو يَنفَعُنا،

فلو كانتْ لنا رَجعَةٌ إلى الدُّنيا فنَكونَ مُؤمِنين، ونَعمَلَ بطاعَةِ رَبِّنا ونَكونَ منَ الصَّالِحين.

وفي ذلكَ عِبرَةٌ لمنِ اعتَبَر، ومَوعِظَةٌ لمنِ اتَّعَظ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يُهِمُّهمْ أمرُ الإيمان، ويُؤْثِرُونَ الدُّنيا على الدِّين.

(تفسيرٌ للآيات ٩٦ – ١٠٣ من سورة الشعراء)

{وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ}

وقالَ أهلُ النَّار: ما لَنا لا نرَى معَنا ناسًا كنَّا نَعتَبِرُهمْ في الدُّنيا مِنَ المستَرذَلينَ والأشرارِ الذينَ لا خَيرَ فيهم. يَعنونَ المؤمِنين، أو فُقَراءَهم.

{أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ}

ما الذي جعَلَنا لا نَراهم؟ هلِ ازدَرَدْناهمْ واستَحقَرناهمْ حتَّى لم نَعُدْ نَنظُرُ إلى وجوهِهم، أمْ مالَتْ عُيونُنا عَنهمْ فلمْ ترَهمْ وهمْ حَولَنا؟

{إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ}

وهذا الذي يَجري بينَ أهلِ النَّارِ مِنْ مُخاصَمَةٍ ولَعنٍ حَقٌّ لا شَكَّ فيه.
(سورة ص: ٦٢ – ٤٦)

{وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ}
ولما اشتدَّتْ بهمُ النَّار، وضَاقَتْ بهمُ الحيَل، قالوا للمَلائكةِ المُوَكَّلينَ بتَعذيبِ أهلِ النَّار: ادعُوا اللهَ ربَّكمْ أنْ يُخَفِّفَ عنَّا ولو مِقدارَ يَومٍ مِنْ أيَّامِ العَذاب.
{قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}
قالَ لهمُ الخزَنَة: أمَا كانَ الأنبياءُ المرسَلونَ إليكمْ يأتونَكمْ بالأدلَّةِ الواضِحَة، والحُجَجِ المقنِعَة، الدالَّةِ على صِدقِ نبوَّتِهمْ وصِحَّةِ رِسالَتِهم؟ قالوا: بلَى، قدْ أتَونا بها، فكذَّبناهم.
قالَ لهمُ الملائكة: فادعُوا أنتُم، فإنَّنا لا نَدعو للكفَرَةِ المجرِمين، العاصِينَ لرَبِّ العالَمين. ودُعاءُ الكافِرينَ باطِلٌ لا نَفعَ فيه، لا يُجدي ولا يُستَجاب.
(سورة غافر: ٤٩ – ٥٠)

عندما يرَى الكافرونَ النار:
{فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ} (الملك : ٢٧)
فلمَّا رَأوا العَذابَ يَومَ القِيامَةِ قَريبًا، اسوَدَّتْ وجُوهُ الكافِرين، لِما عَلاها مِنَ الذُّلِّ والكآبَة، ولِما يَعلَمونَ ما يَنتَظِرُهمْ مِنَ الشَّدائدِ والعُقوباتِ والأهوَال. وقالَ لهُمْ خزَنَةُ النَّار: هذا العَذابُ هوَ الذي كنتُمْ تَستَعجِلونَهُ في الدُّنيا وتَستَهزِؤونَ به {وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [سورة الزُّمَر: ٤٨].

وعندما يُلقَونَ فيها:
{إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ}
إذا طُرِحوا في جهنَّمَ سَمِعوا لها صَوتًا مَنكرًا فَظيعًا، وهيَ تَغلي بهم.
{تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}

تَكادُ أنْ تتَقطَّعَ مِنْ شِدَّةِ غَيظِها وحَنَقِها عَليهم، كُلَّما طُرِحَ فيها جَماعَةٌ مِنَ الكفَّار، سألَهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ مِنَ الملائكة: ألمْ يُبعَثْ إليكمْ رُسُلٌ يُحَذِّرونَكمْ مِنْ يَومِ الحِسابِ والجَزاء؟

{قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ}

قالوا: بلَى أُرسِلوا إلينَا، ولكنَّنا كذَّبْناهم، وأعرَضْنا عَنهم، وقُلنا لهم: لم يُنَزِّلِ اللهُ على أحَدٍ كتابًا ولا غَيرَه، وأنتُمْ مُخطِؤونَ بَعيدونَ عنِ الحقِّ والصَّواب!

{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}

وقالوا مُعتَرِفينَ بذَنبِهم: لو كنَّا نَسمَعُ مِنَ الرسُلِ ما أَنزلَ اللهُ مِنَ الحقّ، أو كانتْ لنا عُقولٌ نُمَيِّزُ بها ونَنتَفِعُ منها، لمِا كُنَّا في عِدادِ أهلِ النَّار.

والعَقلُ الذي لا يَزجُرُ صاحِبَهُ عنِ المعاصي والجرائمِ والمنكَرات، ليسَ عَقلاً مُستَقيمًا ولا سَليمًا.

{فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ}

فاعترَفوا بكُفرِهِمْ وتَكذيبِهمْ بآياتِ اللهِ ونُذُرِه، فبُعدًا لأصحابِ النَّارِ مِنْ رَحمَةِ الله.

(سورة الملك: ٧ – ١١)

{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}؟

ما الذي أدخلَكمْ جهنَّم؟

قالوا: لم نكنْ نُصَلِّي للهِ الصَّلواتِ المفروضةَ عَلينا،

ولم نَكنْ نُعطي حقُوقَ الفُقراءِ لهم، ولا نُطعِمُ مِسكينَهم،

وكنَّا نتكلَّمُ في الباطِل، وفيما لا يَعنِينا، وفيما لا نَعلَم، معَ هؤلاءِ الذينَ لا يَزالونَ يَتكلَّمونَ صَباحَ مَساءَ في أفكارٍ ونَظريَّاتٍ وأمورٍ شَتَّى، ولا يُبالونَ فيها بحقٍّ ولا باطِل، فنَميلُ معَهمْ حيثُ مالُوا، ولا نُبالي.

وكنَّا نُكذِّبُ بالبَعثِ بعدَ الموت، والحِسابِ والجزَاء،

حتَّى أتانا الموتُ الذي لا بُدَّ منه.

(تفسيرٌ للآيات ٤٢ – ٤٧ من سورة المدثر).

الندم

قالَ التابِعونَ المقلِّدون، المناصِرونَ للضَّلالِ وأهلِه، وهم في النَّار، بعدَ أنِ انتَكسَتْ أعلامُ الآلهةِ الفارِغة، وانكشَفتِ الخِدَع، وظَهرتِ الحقَائق: لو كانتْ عندنا فُرصَةٌ للعَودةِ إلى الدُّنيا حتَّى نتبرَّأَ مِنْ هؤلاءِ فلا نتَّبعَهمْ ولا نوافِقَهمْ على أفكارِهم، ولا نكونَ لهمْ كالعبيدِ فنهتفَ لهمْ ولمبادئهمُ المضلِّلة، بعدَ أنْ تبرَّؤوا همْ منّا وقالوا لا علاقةَ لنا بكمْ ولم نُجبِرْكُم على اتِّباعنا. وهمْ كاذبون، فلوا أنَّهم أُعيدوا لعَادوا إلى ما كانوا عَليه. وإنَّما يُريدُ اللهُ ببيانِ أعمالِهِمْ أمامَهمْ ليَزدادوا كمَداً ونَدامَة. وهمْ باقُونَ في النارِ أبَدًا.

قولهُ تعالَى: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} (البقرة: ١٦٧)

وقالَ عزَّ من قائل:

{يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا}

في ذلكَ اليَومِ الشَّديدِ تُقَلَّبُ وجوهُهمْ في النَّارِ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَة، ليَذوقُوا ألَمَ العَذابِ أكثَر، فيَقولونَ نادِمينَ مَقهورين: يا لَيتَنا سَمِعنا كلامَ اللهِ وأطَعنا رَسُولَهُ في الحيَاةِ الدُّنيا، حتَّى لا نُعَذَّبَ في هذا المكان.

{وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا}

وقالوا: ربَّنا إنَّنا اتَّبَعنا أشرَافَنا وقادَتَنا ومَسؤولينا، فحرَّفوا أفكارَنا، وزَيَّنوا لنا الباطِل، وأبعَدونا عنِ طَريقِ الإيمانِ والهِدايَة.

{رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً}

ربَّنا فآتِهِمْ ضِعفَي عَذابِ غَيرِهم، لضَلالِهِم، وإضلالِهِم، وأبعِدْهمْ مِنْ رَحمَتِكَ بُعدًا كثيرًا.

(سورة الأحزاب: ٦٦ – ٦٨)

والحمدُ لله ربِّ العالمين

فهرس الموضوعات

مقدمة ٣

الفصل الأول

مواقف الأنبياء عليهم السلام

آدم عليه السلام ٤
نوح عليه السلام ٥
هود عليه السلام ٨
صالح عليه السلام ١٠
إبراهيم عليه السلام ١٢
لوط عليه السلام ١٧
شعيب عليه السلام ١٨
يعقوب عليه السلام ٢٠
يوسف عليه السلام ٢٠
موسى عليه السلام ٢١
داود عليه السلام ٢٨
سليمان عليه السلام ٢٩
زكريا عليه السلام ٣٣
آدم عليه السلام ٣٤
محمد صلى الله عليه وسلم ٣٦

الفصل الثاني

مواقف الملائكة

مواقف الملائكة ٣٩

الفصل الثالث

مواقف إبليس

الاستعلاء والتكبر ٤٠
الإغواء ٤١
الخذلان ٤٤
الكذب وخلف الوعد ٤٤

الفصل الرابع

مواقف أهل الكتاب

أهل الكتاب ٤٦
بنو إسرائيل ٤٩
النصارى ٦٥

الفصل الخامس

مواقف المؤمنين

الإيمان ٦٨
الخشية ٦٩
صفات ٧٠

الخير ٧١
الحب والإيثار ٧٢
الأسوة ٧٣
الفداء ٧٣
الحذر ٧٥
الحرب ٧٥
التجارة ٨٥

الفصل السادس

مواقف نسائية

مواقف نسائية ٨٧

الفص السابع

مواقف الجن

مواقف الجن ٨٩

الفصل الثامن

مواقف الكافرين

الكفر ٩٢
الشرك ١٠٩
التشكيك ١١٠
الكذب ١١٠

الجهل ١١٢
التكبر ١١٣
العناد ١١٤
الخصومة والجدال ١١٦
الاستهزاء ١١٩
السفه ١١٩
الظلم ١٢١
القتل والتعذيب ١٢٢
الوأد ١٢٤
الندم ١٢٥

الفصل التاسع

مواقف المنافقين

النفاق ١٢٦
الكفر ١٢٨
التذبذب ١٣٠
الكذب ١٣١
التكبر ١٣٤
الخلف ١٣٤
الخيانة ١٣٥
التزوير ١٣٧
الخداع ١٣٨

البغضاء ١٣٨
الإيذاء ١٣٩
الاستهزاء ١٤٠
الإفساد ١٤٠
لحن القول ١٤١
المصلحة والأنانية ١٤١

الفصل العاشر

مواقف متنوعة

الهداية والضلال ١٤٣
قضاء الله وقدره ١٤٤
الابتلاء والاختبار ١٤٤
النجوى ١٤٦
الحسد ١٤٦
البغي ١٤٧
التطفيف ١٤٧
نقض العهد خلف الوعد ١٤٨
الاعتراف بالذنب ١٤٩
تصحيح ما هو خطأ ١٤٩
طبائع ١٥١
موقف متباينة ١٥٢
الأعراب ١٥٦

ذو القرنين ١٥٨
أهل القرية ١٥٩
المال ١٦٠
أصحاب البستان ١٦٢
صاحب البستانين ١٦٣
المترفون ١٦٥
قارون ١٦٥
السنن ١٦٧

الفصل الحادي عشر

مواقف في يوم القيامة

الحساب ١٦٨
نتيجة العصيان ١٦٩
تباين ١٧٠
أهل الجنة ١٧٤
أهل النار ١٧٦
الندم ١٨٢
فهرس الموضوعات ١٨٣